
هوامش المقريزي
حكايات من مصر
المجموعة الثانية
صلاح عيسى







المعالجة وتخفيض الحجم







شكرا لمن قام بسحب الكتاب








mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

الطبعة الأولى : دار القاهرة للنشر والتوزيع

١٩٨٣

الغـلاف للفنان : صلاح عنـانى

الخطوط للفنان : محمد بغدادى

وكم فيك يا مصر من كاتب ... اقال اليراع ولم يكتب

فلا تعذلينى لهذا السكوت ... فقد ضاق بى منك ما ضاق بى

ايعجبنى منك يوم الوفاق ... سكوت الجماد ولعب الصبى

وكم غضب الناس من قبلنا ... لسلب الحقوق ولم تغضبى

أمور تمر وعيش يمر ... ونحن من اللهو فى ملعب

فهذا يلوذ بقصر السفير ... ويطنب فى ورده الأعذب

وهذا يصيح مع الصائحين ... على غير قصد ولا مارب

« حافظ ابراهيم ـ ١٩٠٤ »



الى صديقى مصطفى بهجت بدوى ٠٠

رمز لعديدين من ابناء هذا الشعب العظيم ٠٠ مدوا الى اليد حين ظننت ـ وانا اعانق الوحدة والوحشة ـ ان هذا الزحام لا احد :

فعلوا ذلك ٠٠ يوم كان الاختيـــار هو الركوع او الجوع ، فاعانونى على ضعفى البشرى ، دون ان يسالونى شيئا ٠٠ او ان يوافقوا على صحة ما اجتهدت واجتهد فيه ٠٠ حبا ٠٠ وتقديرا واعترافا بالجميل ٠

« صلاح عيسى »

١٧ يونيو ١٩٧٦



مقدمـــة :

هامش على هذه الهوامش

لهذه المجموعة الثانية من (حكايات من مصر) ـ كما كان لمجموعتها الأولى ـ حكاية ، بيد اننى ـ وقد بدأت الكتابة فعلا ـ ما زلت مترددا فى روايتها ، وقد ينتهى الأمر فيمزق ترددى ما سوف أكتب ، ويصدر هذا الكتاب بلا مقدمة ، وبدون حكاية ، وعندئذ يكون عذرى اننى لا أود أن أشغل القارىء بمسائل شخصية فى بعض جوانبها · فاذا لم يدمر التردد هذه « المقدمة / الحكاية » فليكن شفيعى فى كتابتها أن كثيرين من الأصدقاء الأعزاء الذين ألحوا فى صدور هذه المجموعة ، اعتبروا حكايتها جزءا منها · ولولا ذلك ما تحولت من ذكريات أتندر ـ ويتندرون ـ بها ، الى مقدمة لكتاب يمسى الى قارئه ·

وهذه المجموعة الثانية تتفق مع سابقتها فى أن موضوعهما واحد ، فهمـا تتقصيان تلك الجزئيات الصغيرة التى تصب فى مجـرى التاريخ ، وتتبلور فيها قوانين تطوره ، لكـن المجموعتين تختلفـان بعد ذلك من حيث الشكل ، فقد اختارت المجموعة الأولى لحظات أكثر تفجرا وأطول نسبيا ، بينما تلتقط الثانية ، ومضات تاريخية ، قصيرة ومركزة ومكثفـة ، تبـرق بسرعة ، ولكنها لا تنطفىء قبل أن تضىء عقل من يقرأها ـ بوعى ـ بكل دلالات عصرها ·

ولست أذكر بالتحديد متى نشأت فكرتها فى ذهنى ، لكنها على الأرجح واكبت التفكير فى انجاز هذا المشروع المتكامل من « حكايات من مصر » ولعلها تولدت من متابعة لصحافتنا المصرية والعربية ، منذ بدأت « الأهرام » ـ قبل

سنوات ـ تقلد الصحف الأوربية فى نشر باب يتضمن مختارات مما كانت تنشره فى سنوات صدورها الأولى ، وانتقل هذا الى صحف ومجلات عديدة فى أنحاء الوطن العربى • فقد تابعت وقتها باهتمام تلك الأبواب ، راضيا فى أحيان قليلة ، وساخطا فى معظم الأحيان ، وأخذت عليها دائما أن من ينقلون ويقتطفون مما نشر فى الماضى ، يفعلون ذلك بلا عقل يختار وينسق ويفسر ويحلل •

ولأننى أقرأ كثيرا فى الأدب ، وأتجاسر أحيانا فأكتب فيه ، فان عالمه الخاص ، وهو جزئى وحسى ومباشر ، كان يجعلنى أتوقف طويلا فيما أقرأه من مراجع التاريخ ، عند جزئيات قد يمر عليها كثيرون فلا يهتمون لها ، وكنت أشغل عقلى كثيرا بتفسير دلالات تلك الجزئيات ولا يعسر على أن أجدها متناسقة مع الظاهرة التى أحاول فهمها أو الكتابة عنها أو تحليلها • وأصبحت شغوفا بالبحث عن تلك الجزئيات والتفكير فيها ، ويوما طمحت أن أختار منها ما يمكن أن أقدمه لنوع من القراء ، يعرفه ويحرص عليه كل من يسعى لكى تكون الكتابة « دورا » وليست صراعا للحصول على مكانة اجتماعية ، أو درجة علمية ، أو استثمارا تجاريا ، ذلك الذى يسمونه أحيانا بالقارىء العام ، من يعتمد أساسا على الصحيفة والمجلة فى تكوين معارفه ، والذى ينفر منهما ومن غيرهما ـ اذا عسر عليه أن يتفاعل مع اللغة ، أو اذا غمت عليه الأفكار ، وتعالت عليه الرؤى والمناهج •

وكنت أقول لنفسى : ان غاية المراجع التاريخية لا تقع عادة الا فى يد المتخصص فى التاريخ ، أو القارىء الذى يملك الصبر عليها ، وهذه الومضات التاريخية تنشد من يجردها ليقدمها لهذا القارىء العام ، الذى هو القاعدة الحقيقية لسوق القراءة فى وطن عربى تنتشر فيه الأمية كالمرض الطفيلى الثابت والمقيم ، وما أظن الا أن التواصل مع هذا القارىء العام كان وما يزال ، على رأس همـوم الذين يسعون لكى تكـون للكتابة دورا مؤثرا وفاعلا فى الصراع الاجتماعي والسياسي الذى يشهده الوطن والمعمورة التى نسكنها ، وليس خطأ تماما أن نضع الشباب ضمن تنويعات هذا القارىء العام ، وقد كان جهله بهموم أمته التاريخية ، وما يزال ، واحدا من مبررات قلقى المستمر ، لذلك حلمت أن تسعى اليه هذه الومضات ، تتفتح معها قابليته لفهم عالمه ، كما تسعى ـ أيضا ـ للمثقف الذى لا يدخل التاريخ فى اطار تخصصه ، فتتكامل بقدر الطاقة معارفه •

وبدرجة ما ، أدركت أن هذه الومضات لا تستطيع أن تؤدى دورها بدون تراكم كمى مستمر فتطالع قارءها كل يوم ، تشده اليها بتركيز وتكثيف دائمين ، وتستدرج خطاه الى عالم التاريخ المصرى الرحيب ، حريصة على الا تقع فيما أخذته على غيرها ، فتنقل أو تقتطف من حوادث الماضى بلا عقل يختار أو يتسق ويفسر ، ان لو فعلت لتحولت الى وسيلة يدفع بها القارىء عن

نفسه ملل الحياة ، ولأصبحت طرائف وألغاز وأحاجى وحكما ومواعظ ، وذلك ما كرهته دائما فيما قرأت من محاولات سابقة تأخذ نفس الشكل ، أو تعالج ذات الموضوع ، لذلك فان هذه « الومضات » تسعى الى قارئها بهدف محدد وصريح ، هو أن تستقيم خطاه على درب العطاء للوطن وللشعب وللأمة وللكون كله •

ولست فى حاجة الى أن أكرر ، أننى فيما اجتهدت فى فهمه من ظواهر التاريخ المصرى والعربى كنت بقدر الطاقة موضوعيا ، لكنى لم أكن أبدا محايدا ، وذلك ما كان واضحا أمامى وأنا أختار تلك الومضات ، فقد حرصت على أن أروى الواقعة كما حدثت بقدر ما تسعفنى المقارنة بين الروايات المختلفة للحدث الواحد ، وتلك هى الموضوعية كما أفهمها ، لكننى رجحت دائما ، تلك الروايات التى تقف مع الشعب ـ بمفهومه التاريخى ـ فى صراعه الأزلى والدائم ضد أعدائه ومستغليه ، فالحياد بين الشعب وبينهم ، كان دائما ـ فى منظورى ـ خيانة قبيحة وصريحة •

وحين تكاملت فكرة هذه المجموعة الثانية من « حكايات من مصر » ظلت حبيسة درج مكتبى كمشروع الى أن شجعنى حماس صديقى « رجاء النقاش » لمجموعتها الأولى حين كان رئيسا لتحرير مجلة « الاذاعة والتليفزيون » فدفعت اليه ببعض حكايا هذه المجموعة فاذا بها تلقى نفس الحماس ، وتنشر ضمن باب بعنوان « أنابيش مصرية » لكنه لم يستمر سوى أسبوعين أو ثلاثة ، فقد هجم اليمين المصرى بكل أثقاله على المجلة ، واستصحب معه التفاهة والغثاثة ، فغادرها « رجاء النقاش » ، ومعه كل ما هو جاد أو مفيد ، وكان من بينها حكاياتى وأنابيشى •

وفى بدايات العام ١٩٧٢ عادت الفكرة تلح على وكنت قد التحقت ـ بعد خمس سنوات من البطالة الاجبارية ـ بأسرة تحرير جريدة « الجمهورية » وقت كان الأستاذ **مصطفى بهجت بدوى** يرأس تحريرها ومجلس ادارتها ، وأذكر أننى فى أحد أيام الربيع الباكر من ذلك العام قد سحبت ورقة كتبت عليها فكرة هذه الحكايات ، واقترحت أن تخصص « الجمهورية » زاوية يومية تنشر لقطة مركزة من التاريخ المصرى على شكل أقصوصة متناهية القصر ، لا تزيد عن خمسمائة كلمة ، وقدمت فى مذكرتى تلك المبررات الصحفية التى تجعل فتح هذه النافذة على صفحات « الجمهورية » ضرورة •

كان قارىء الصحيفة اليومية ، هو نفسه ذلك القارىء العام الذى أسعى اليه ، وكان قد سقط طوال سنوات بين براثن الصحف الرسمية ، فانهمكت تخرب عقله ووجدانه ، وتسطح وعيه وتهرب به مما كان يواجهه من هموم ومهام ، وحتى بعد أن انهارت الأبنية المزيفة التى ظلت هذه الصحف نفسها تؤسسها وتدعمها على امتداد السنوات التى سبقت نكسة يونيو

(حزيران) ١٩٦٧ ، عادت الصحف تمارس نفس دورها القديم ، واحتلها — الا فيما ندر — المهرجون والمشعوذون والكذبة والفريسيون ، وحررها لاعبوا الكرة ، ومانسون ، وجاكلين كنيدى ، وأشباههم يسعون كل صباح الى القارىء المسكين — غير المحصن الا بفطرته — بسخافات العالم ومحتويات أمعائه الغليظة : الشذوذ والانحطاط والعبث واللاجدوى والجرائم والادعاءات الرسمية التى تفح بخرا وتنشر بهتانا ·

ولأن تكوينى كان يفتقد منذ البداية لتلك المواهب العظيمة ، ولأن المناخ العام لم يكن يشجعنى — أو يسمح لى — أن أكتب فى السياسة ، فقد كانت الهوامش — وهو العنوان الذى اقترحته لهذه الحكايات — هى خلاصى الحقيقى ، لذلك سعدت حقا عندما وافق عليها مجلس تحرير « الجمهورية » (بعد مقاومة طفيفة انطلقت من قوانين الصراع المهنى ، لم اكن اقدر خطورتها حينذاك) وهكذا قدر لهذه « الحكايات / الهوامش » أن تنشر بشكل مستمر بين ١٩ يونيو (حزيران) ١٩٧٢ الى مارس (آذار) ١٩٧٥ ·· وخلال تلك السنوات الثلاث أثارت من الضجة والضجيج ما يتجاوز فى رأيى قيمتها وأهميتها ، وسببت لصديقى مصطفى بهجت بدوى — رئيس تحرير الجمهورية أيامها — مشاكل وازعاجات ، بل واعتبرها البعض احد اسباب قليلة فقد بسببها منصبه فى ربيع ١٩٧٥ ، اذ دخلت فى لعبة السياسة على الطريقة المصرية ، تلك التى تمارس بأقذر الأساليب وأكثرها تدنيا وتخلفا وانحطاطا ، لأن أحد أطرافها — وهو اليمين المصرى وخاصة فى الصحافة — لا علاقة له أصلا ، لا بالفكر ولا بالصحافة ، ولا حتى بصفات البشر ·

· · · · · · · · · · · ·

· · · · · · · · · · · ·

كانت الهوامش صلاة فى معبد مصر الشعب ، طموحة الهدف بصرف النظر عن صلاحيتى للقيام به ، ولعلها قد جاءت فى اكثر الأوقات ملاءمة ، أيامها كانت مصر تعيش مرحلة ما اصطلح على تسميته « باللاسلم واللاحرب » ·· توقفت المقاومة العسكرية للغزو لأن الحماس للحشد الجماهيرى سياسيا وعسكريا وتنظيميا ، كان منذ البداية مجرد ديماجوجية اتقنتها البرجوازية المصرية على اختلاف مراحل ثورتها ·· فقد وجد الشعب نفسه مستندا بظهره للجدار ·· وآن لنكسة ١٩٦٧ أن تطرح ثمار المرارة ، فتسللت الى الروح المصرية نبرات من اليأس الفاجع ، واختلطت كل الأشياء ، انمحت الحدود بين الشجاعة والحماقة ، وبين التضحية والغباء ، واستوت الظلمات مع النور ، ولم يعد ثمة فرق بين الأعمى والبصير ، ولا بين الظل والحرور ·· وغم الأمر على كثيرين من الناس ·

وعلى جبهة الثقافة والفكر والصحافة ، بدأت الهزيمة تفح بخرها ، وان للذين زرعوا الاثم أن يحصدوا النفاق •• وخرجت أشباح الموتى من الطبقات والأفكار تقتنص الفرصة السانحة وتخرب وجدان شعب كانت البندقية هى خلاصه الحقيقى ، يستعيد بها ثقته بالنفس ، ويفرض بها ارادته على الحاضر ، ويمتلك بها المصير •

وكنت بحكم الظروف أقرب الى فهم المثقف المصرى ، ذلك النمط الاجتماعى الذى أنتمى اليه وأملك أحيانا الفرصة لتأمله واستبطانه ، وهى رحلة كنت أعود بعدها مجهدا ممتلئا بالشجن ، ومرة رصدت بذهول ، أنه حتى فى الانتاج الأدبى والفنى ، طرح المثقف المصرى احساسا طاغيا بكراهية الكلمة ، وابتدع يقينا جديدا ، بأن عالم الكلمة بارد يفتقد لدفء البنادق ، وان عليه ، وهو المثقف ، أن يتوارى فى الظل ليتقدم المقاتل ، وان على فرسان الكلمة أن يتركوا مكانهم لفرسان السلاح • فلم يعد ثمة مكان الا للمقاتل : سوبرمان العصر وبطله ونموذجه المصفى ، ورافع أعلام المستقبل •

وكان طبيعيا أن تفرز الأوضاع المصرية مثل تلك الأفكار ، فالمثقف العربى عموما ينتمى الى النمط العاطفى ، تنوء رأسه بالأفكار الزراعية ، فيصبح بذلك شديد القابلية للتطرف بمفهومه النفسى ، يتقلب فى المواقف بلا أى رابط ، ولا يرى العالم الا من أقصى أطراف الجهات الأصلية • والمثقفون من هذا النمط لا يعرفون من الألوان الا الأسود الحالك والأبيض الناصع ، والناس عندهم اما أبطال أو خونة ، أنبياء أو شياطين ، والبندقية عكس الكلمة ، والمقاتل هو نفى المثقف ، ولأن هناك كلام لا معنى له ، فلتسقط كل الكلمات ، وليحيى الجهل مع الجدعنة •

وكانت الدنيا زحاما خانقا ، بحيث عسر على الانسان أن يقول أن هذه الرؤية خاطئة على طول الخط ، فالمقاتل سوبرمان حيث هو يؤمن بقضية ويحميها ويدافع عنها الى درجة الاستشهاد • ومعظم الشعوب التى خاضت حروب تحرير وطنية اعتمدت فى بنائها من جديد بعد خراب الحرب المادى والروحى على الكوادر التى بنت نفسها وهى تحارب • انها لم تعتمد على القوة المطلقة التى يحوزها المقاتل ولكن على الوعى الذى تحقق له خلال القتال ، وهذا الوعى هو نتيجة تفاعل الانسان مع البندقية وفهمه الصحيح للقضية التى يقاتل من أجلها ، وهو الذى ينتهى عادة بايمان الانسان بفاعليته وبقدرته على السيطرة على حاضره ومستقبله •

ان « وعى » المقاتل هو نوع من الثقافة بلا شك ، وبقدر وعيه تتحقق فاعليته ، ذلك أن الوعى هو الذى يقود الأصبع للضغط على الزناد ، كما انه أيضا – فى مجرى القتال من أجل قضية – ينطلق من فوهات البنادق ، والمقاتل السوبرمان هو حصيلة عملية معقدة وجدلية بين الوعى والممارسة ، وهو

عندئذ نموذج نقى ومبلور للثورى الحقيقى ، والفرق بين « المقاتلين » فى فيتنام و « القاتلين » من جنود اليانكى الأمريكيين ليس مجرد حرف ، ولكنه فرق بين الذين يعون قضيتهم العادلة وبين الذين يقتلون فقط وأحيانا دون أى قضية ٠

ان الكلمة والبندقية وحدة واحدة والمثقف والمقاتل ليسا نقيضين فعلى كل المثقفين أن يقاتلوا وعلى كل المقاتلين أن يتثقفوا وربما بسبب افتقاد المثقفين لهذه الوحدة الجدلية انتشرت هذه النغمة الفاجعة فى أعمالهم وكتاباتهم ، وهى تعبير عن أزمة ضمير لدى شرائح متكاملة من المثقفين ، هؤلاء الذين شغلوا خلال العقدين السابقين ، ببناء مستقبلهم الفردى بينما كان كثيرون يطحنون فى المعركة ٠ وقد كرست الظروف التى سادت مصر - قبل يونيو (حزيران) ١٩٦٧ - هذا الانفصال المرعب بين « الكلمة » و « الفعل » وبين « الوعى » و « الممارسة » ، فمعظم الذين كانوا يبشرون بحماس شديد فى كتاباتهم بالاشتراكية وبالعدل الاجتماعى كانوا يسعون بنفس الحماس للتمايز الاجتماعى ويجرون وراء شبق الاستهلاك ويخططون حياتهم العملية على أساس السلوك البرجوازى الصرف بدءا بهموم السيارات وانتهاء بالمدارس الخاصة وحفلات أعياد الميلاد لأبنائهم ، والسعى وراء الوجاهات الاجتماعية بكل أشكالها ، والخضوع المزرى لقانون التنافس البرجوازى سعيا وراء الصعود والمكسب ٠ وقد عاش هذا الانفصال أيضا بعض الذين يدافعون عن القيم الدينية بحماسة تصل الى التعصب ، وهم فى حياتهم الخاصة أبعد الناس عن الايمان ، لا يصلون ولا يصومون ويرتكبون من الخطايا ما يتعفف عنه حتى هؤلاء الذين يجترئون على الأديان ٠

ولأن حياتهم كانت خاطئة من البداية فان فهمهم يصبح انتقالات سريعة ، ولكن فى الاتجاه الخاطىء نفسه ، وهو نفى وحدة العالم وجدل الظواهر ، لذلك كانوا أسرع الناس بعد حرب أكتوبر لاعلان انتهاء زمن الثقافة وزوال عصر الفكر ٠

وصحيح أن هناك من الكلمات ، ما لا معنى له ، لا يضيف كثيرا ولكنه يلتهم الورق - الذى غلا سعره - محققا خسارة مادية ، لكن هذا لا يعنى أن كل الكلام تافه ، أو أن كل شىء هو « فلسفة ورغى ووجع دماغ » وكنت - وما زلت - أرى أن مهمتنا الأولى هى أن نتطهر من هذا الانقسام بالنقد الذاتى وليس بالاستمرار فى لعبة تقسيم الظواهر ، ذلك أن معظم ما تحقق فى حياة البشرية كان فى الأصل كلاما وكتبا ، سواء فى ذلك الرسالات السماوية أو الدعوات الاجتماعية التى كانت كلها استجابة لحاجة انسانية واقعية فكلاما فممارسة ، وهكذا !

وربما كان عسيرا على الانسان أن يحقق هذا التطابق التام بين الكلمة والفعل ، لكن التاريخ يشهد بأن كثيرين ماتوا دون كلمتهم ، ويشهد أيضا

أكثر منهم ماتت كلمتهم دون أطماعهم ، وأن الأغلبيـة العظمى وازنت هذا بعمليات نقد قاسية تجاه الذات قبل أن تكون تجاه الآخرين ، فحققت أكبر قدر ممكن لتلاؤم الانسان ، ووحدة وعيه وسلوكه فى ضوء الظروف المحيطة به ، وهى غالبا قاسية وضارية ٠

وتحقيق هذه الوحدة بين « الوعى » و « الفعل » وبين الكتاب والبندقية رهين باتاحة أوسع الفرص للمثقفين لكى يعبروا عن أحلامهم ويعيشوها وسط الناس ، وكان هذا يعنى دائما أن يموج مجتمعنا بالزهور المتفتحة ، وليس بالحلفا والصبار ، ساعتها سيتحقق هذا الدمج بين الكلمة والفعل ، وسط جحافل الناس ، وسوف نتطهر كلنا لنصبح ذاك المقاتل : سوبرمان العصر وبطله ونموذجه المصفى ورافع أعلام المستقبل ٠

تلك واحدة من ظواهر عدة أفرزتها الهزيمة ، بعد أن وجدت فى مرحلة اللاسلم واللاحرب مناخها الحقيقى لكى تتحقق تحققا كاملا ، فتعطى ثمارها : قحطا وغباء وديماجوجية وابتذالا ٠

٠٠ وكان المزعج حقا أن المثقف المصرى ، وهو الكائن الذى ما يزال يلعب دورا متزايدا فى بلد تنتشر فيه الأمية كالوباء ، ويتدنى وعى شرائحه المؤهلة لاستكمال الثورة الى ما تحت الصفر ، هذا المثقف قد فقد كثيرا من جسارته الروحية ، فحتى جيلنا ذلك الذى ورث عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وقد افلست خلالها كل الأفكار الرجعية ، وكل الدعاوى السلفية ، وانفضحت فيه الحضارة الأوربية الرأسمالية ، وتعرى لحمها ، فكشف عن تجاعيد الزمن ٠٠ هذا الجيل الذى كان مؤهلا – اكثر من غيره – لأن يكون عقلانيا ومستنيرا ، فقدت أقدام شرائح عريضة منه الطريق ، فوجدت نفسها تغترب الى الماضى ، تنتمى اليه ، تذوب فيه عشقا وتعيش فى يوتوبيا رجعية ، تحلم خلالها أن يعود العالم الى مكانه الطبيعى ، بل أن عناصر منه امتشقت السـلاح بالفعـل لكى تدمر تلك الحضارة الضخمة التى أنشأها الانسان ، باعتبارها الأب الشرعى للتعاسة والشقاء ، وكما افتقد هؤلاء الوعى بأن اغتراب الانسان فى ظل الحضارة الرأسمالية ، هو طبيعة ملازمة للبنية الطبقية لتلك الحضارة ، فان المتقدمين أو بعض شرائحهم قد حولوا يوتوبيا الغد الى وثن يفتريون اليه هم الآخرين ٠٠ وهكذا خاصموا الواقع خصاما مؤلمـا ، وفقدوا الطموح الحقيقى للتأثير فيه ، وجلسوا ينتظرون عالم الفرح الآتى وفاتهم أن ارادتهم الفاعلة هى جزء من تحقيق أية فرح ٠٠ وان بناء العالم الجديد ، لا يتم بخصام القديم ، أو اشاحة الوجه عنه ، ولكنه يتم بالاشتباك معه ٠٠ والجدل واياه ٠

ومن المؤكد أن تأمل مثل تلك الأوضاع لم يكن مصدر متعة لأحد ، وقد عانيت حصـارا ذهنيـا هائلا ، عندما تخلقت أمـامى المأساة ، فاذا كانت

الشرائح الأكثر وعيا من الشعب قد انفلتت بهذه الصورة ، فكيف يكون الأمر بالنسبة للآخرين ، هؤلاء الذين لا يفرقون بين الألف وكوز الذرة أو الذين يفرقون بينهما ، ولكنهم مع هذا يعجزون عن فهم ظواهر العالم فى تشابكها وتعقدها • وبرغم أن ظواهر عديدة برزت على صعيد المثقفين انفسهم • فقد كانت هناك ضرورة لكى تتوحد جهود كثيرة من أجل الحفاظ على وجدان أمتنا من التمزق والتبدد •• والضياع •

وفى هذا المناخ سعت « الهوامش » الى الشعب ، تضع فى يده بندقية هى الوعى بذاته والثقة بتاريخه ، وتتغنى بذكريات ماضى عظيم ، تستخلص منه قانون التطور الذى لا مفر منه : ان الشعوب لا تهزم ولا تفنى ، وان الشعب يأتى من الأزل ويبقى الى الأزل •

كنت أريد لها أن تكون كالشعب : حنونة وقاسية ، رقيقة وعنيفة •

ولأن موضوعها كان تاريخ مصر ونضال شعبها ، فقد كانت تعود ـ فى كل مرة تختفى فيها ـ قوية وصلبة •• هذا شعب كان دواما قويا وصلبا تستلهم « الهوامش » بعض قوته ، وبعض صلابته ولا تستطيع الا أن تكون كذلك •

شعب مرت الأحداث كلمى هزيمة ووجهه وضاء وثغره باسم ، هزم غزاة ، وحطم طغاة ، صعد أبناء له فى عمر الورود درجات المشانق ، وهم يهتفون باسم وطنهم ، وترك ضباط وجنود من أبنائه المستشفيات العسكرية ـ اذ هم جرحى ـ ليواصلوا القتال •• وخرج مجاورو الأزهر ومشايخه وفتوات بولاق والحسينية وصناع القباقيب فى تحت الربع وطولون ، ليحاربوا فرنسا اذ هى أقوى دولة أوربية ، وليجبروا « الجنرال اللنبى » ـ بطل الشام فى الحرب الأولى ـ على التراجع أمام لحمهم الحى •

شعب يضحك وهو ينزف ، يحارب جائعا ، اتهموه بالجهل كثيرا ، وبالبلاهة حينا ، لكنه فى كل مرة يؤكد لهم ، أنه فى صمته أكثر وعيا ، وفى جهله أبلغ علما ، وعندما يغم الأمر على كثيرين ، فان الفقراء منه ، يختارون ببساطة ودون تحذلق ، الزنازين الرطبة المظلمة الموحشة ويصعدون الى المشانق وهم يهتفون بحياة الوطن !

وكانت لحظات التفجر والغليان فى تاريخ الشعب المصرى تغرينى دواما بالوقوف عندها طويلا •• اذ كانت تبدو لكثيرين ـ وربما لى أنا نفسى ـ كأنها مفاجأة متوقعة ، نبتت من العدم ، وكثيرا ما كان يشوقنى ذلك الذى حدث فى مارس ١٩١٩ ـ على سبيل المثال ـ فقد تغيرت مصر فجأة ، وبشكل بدا مفاجئا ، بل ومذهلا لكل الذين يحتلونها ، وما كان أكثرهم •

تفجرت الثورة فغيرت كل شىء : نمط الحياة وشكل الشوارع ، وملامح الرجال والنساء ، وذهل المحتلون ، كانوا يظنون أن كل شىء قد انتهى بعد

أربعين عاما من الاحتلال مكنوا لأنفسهم خلالها ، بدأوها بتدمير الجيش العرابى العظيم ، ثم سيطروا بالقهر وصيد الحمام وتحكموا باقتناص المناضلين وأسرهم فى معتقلات طرة والقلعة والجماميز أو منافى كريت ومالطة وسيلان ·

أيامها ـ كما ظنوا ـ كانت مصر هادئة تماما :

كانوا قد ضحكوا علينا · قبل قرون جاء الغزاة ليقولوا لنا : أنتم مصريون · مهمتكم صنع الحضارة · ازرعوا ·· تفننوا ·· ابتكروا · لكن دعو الحرب لنا · صدقنا اللعبة · وجدنا فى أيدينا الفأس وفى أيديهم البندقية · قالوا : أنتم تبنون الحياة ، ولكننا نحطمها فارضوا عن أنفسكم وتفاخروا بنبل ما تصنعون · سرقوا عرقنا ·· عاشوا نيابة عنا ·· متنا بالبلهارسيا والانكلوستوما والبلاجرا والدودة الشريطية وعرفنا الجوع الحقيقى ·· فى الظلام كنا نهتف : يا رب يا متجلى اهلك العثمانلى ·· أو يا رب يا عزيز تاخذ الانجليز ·

قبل أن تنشب الثورة ، وربما فى الثانية الستين ، كان القانون الامبريالى لتقسيم الأدوار مطبق بدقة : المصريون يعملون فى المصانع والمزارع والمكاتب ، والانجليز يحملون السلاح · اذا أصيب مصرى بلوثة « وعى » فان أدوات الغيبوبة منتشرة ومتوفرة : انتشرت الخمارات الصغيرة كالوباء ، ونبتت بيوت البغاء وبؤر الكوكايين ، كل المغريات التى تفقد الناس الرغبة فى أن يخاطروا بحياتهم ، وتجعلهم أكسل من أن يفكروا فى شىء خارج حواسهم · فى قتامة حجرات الدرس كان أبناء المدارس يعيشون فى أحلام متدنية : أن يخرجوا حيث يبنى كل منهم مستقبله الفردى فى اصرار يباعد بينه وبين الآخرين · بل ويدفعه للصعود فوق جثثهم لو استطاع ·

وفجأة تندلع الثورة ·· فيلغى قانون تقسيم الأدوار الامبريالى ، ويتغير كل شىء حتى رائحة الحياة العفنة · تضرب المومسات عن العمل وتغلق بيوتهن · ويكف النشالون عن السرقة وتتحول علب الليل فى شارع عماد الدين ، الى مسارح ثورية تتغنى بمصر وتهتف لها ويختفى فيها الثوار المطاردون ·

ويكف البلطجية والفتوات عن نشاطهم ، وينتقلون الى صفوف المناضلين ، ويدرك علماء الأزهر أن الله لا يمكن أن يعبد ـ كما يليق بجلاله ـ فى وطن مستذل مقهور ، فيهجروا أعمدتهم ويحملوا المسدسات والقنابل فى جيوب قفاطينهم مع المصاحف ، ويخرج القسس الى الأزقة والحوارى يُقودون المظاهرات ويترنمون بالمجد لله فى الأعالى وبالمسرة للناس ·

ويغادر أولاد المدارس قتامة الحجرات والمكاتب ، الى دفء الناس فى المصانع والورش · ويذهل المحتلون وهم يرون شبانا فى عمر الزهور يواجهون الرصاص بلحمهم الحى ، فينتصرون عليه ، وتحملهم سيارات الاسعاف

مضرجين بدمائهم ، فيرفعون ستائر السيارات ويجد بعضهم – برغم جراحه البليغة – القوة التى تمكنه من أن يهتف وهو الجريح :

– نموت وتحيا مصر ..

وتختلط الأصوات التى ترد عليه : الممرض وسائق السيارة ، وبقية الجرحى ، ومظاهرة تشتبك فى معركة ، وبنات محجبات خلف المشربيات ، وصعاليك لا يملكون من أرض مصر شبرا واحدا ، لكنهم يملكون شجاعة للموت فى سبيلها ، وتمضى عربة الاسعاف تاركة على أرض الميدان قطرات من الدم تعلن عن الغاء قانون تقسيم الأدوار الأمبريالى .

وكان منطقيا أن يذهل المستعمرون ، ذلك أن العقل الامبريالى ، كان قد وصل الى فرضية تقول أن الشعب المصرى قد قطع صلته بأمور الحرب والقتال قبل زمن طويل ، وأن مصر التى عاشت بلا جيش نظامى قرونا طويلة – ومنذ تحطمت دولتها المستقلة – قد فقدت مجرد شجاعة حمل السلاح ، فما بالك بمواجهته .

وعندما تفجرت الثورة ، ذهل الاستعماريون ، لأن المصريين لم يملكوا فحسب شجاعة مواجهة سلاح انجلترا – أقوى دولة فى عالم ذاك الزمان – بل انهم واجهوه – عزلا وبلا سلاح – وانتصروا عليه بلحمهم الحى وحده .

وبالرغم من أن العقل الامبريالى كان قد تلقى عديد من الضربات التى تؤكد خطأ فرضيته فانه ظل مستمرا عليها بغباء نادر يحسد عليه . فعندما كانت حكومة « الديركتوار » الفرنسية ترتب لحملتها على مصر بنت تقديراتها على أساس تقرير كتبه « تاليران » وزير الخارجية ، ومما قاله فى هذا التقرير أن أهالى مصر قاطبة يكرهون حكامهم المماليك الذين يسومونهم الظلم والاضطهاد وهم عزل بلا سلاح ، واذا أعطاهم المماليك سلاحا بهدف الدفاع عن البلاد من أى غارة أجنبية ، فان المصريين سيحاربون المماليك بهذا السلاح ، فليس ثمة خوف من مقاومة أو وثبة من الأهالى .

وقبل مرور عقد واحد من القرن التاسع عشر ، جاءت حملة فريزر الانجليزية فى عام ١٨٠٧ ، وفى ظنها أن الشعب المصرى خارج الحلبة تماما . وأنه ليس عاملا مؤثرا فى الموقف وان الحملة مضمونة النجاح لأنها جاءت متواطئة مع المماليك ، القوة العسكرية الوحيدة فى مصر .

وفى كلا المرتين تعلم الاستعماريون أن المسألة بالنسبة للشعوب تختلف ، هرب المماليك أمام الغزاة وسعوا للاتفاق معهم مقابل مشاركتهم فى السلطة ، ولم يتحركوا ضد حملة « فريزر » لكن الشعب أخذ المبادرة فى المرتين ، وتصدى للغزو ، وهزمه فقلب حسابات الغزاة ، وصدم العقل الاستعمارى فى أعتى مسلماته ، وجعله يعيد التفكير فى الأمر كله .

ولأن الاستعماريين أبناء عمومة ينتمـون لأرومة واحدة ، فان خطتهـم احتفظت بملامح متشابهة واتبعت خطى متماثلة ٠٠ ومنذ فقدت مصر استقلالها بالغزو اليونانى وهدف الغزاة واحد : أن يخرج المصريون من حلبة الصراع ، فتقطع أيديهم قبل أن تحمل قطعة سلاح ٠

على امتداد قرون الغزو ، صاغ الغزاة أيديولوجيتهم حول تقسيم الأدوار بالمنطق الامبريالى : ان على شعب مصر أن يتفرغ لبناء الحضارة ، أن يزرع ويصنع وينجب ويفكر ، فيتمتع الغزاة بكل هذا ، ولا يناله الا الفتات ٠٠ أما الحرب والقتال ، فهى مهمة ينبغى أن تترك لهم ، أما المصريون فانهم مجرد بناة حضارة ٠

وصحيح أن المصريين بنـاة حضارة ، بنوها فى طفولة التاريخ ، فلم يسبقها مثيل ولم يلحقها شبيه ، فكانت كما يقول البروفيسور توينبى : حضارة فذة « لم تلد ولم تولد » ، لكن ما تعمد العقل الامبريالى نسيانه حتى ننساه نحن أيضا ، هو أن هذه الحضارة بنيت بالقتال والصراع ٠

ويفسر البروفيسور « توينبى » الحضارة المصرية ، بأنها وليدة التحدى الشرس مع الطبيعة ، والاستجابة الشجاعة من المصريين ، فعندما انتهى عصر الجليد ، حدث تحول طبيعى خطير فى مناخ جزء من قارتى آسيا وافريقيا ، وأحدث هذا التحول ارتباكا عنيفا فى حيـاة القبائل التى تعيش فى هـذه المناطق ، ووقفت أمام اختيارين صعبين : الأول أن تبقى ، سـواء احتفظت بأسلوب حياتها ـ وهو الصيد ـ أو غيرته ، والثانى : أن ترحل ، سواء الى مكان يتواءم مع أسلوب حياتها ، أو الى مكان بعيد تبتكر فيه أسلوبا جديدا للحياة ٠

واختار المصريون أصح وأشق الاستجابات لهذا التحدى الطبيعى القاسى : قرروا أن يغيروا موطنهم ، وأسلوب معيشتهم فى عملية واحدة هى أشجع وأعظـم مبادرات تاريخ ما قبل التاريخ ، وهبط هؤلاء الرواد ـ كما يقول الأستاذ شفيق غربال ـ بدافع الجرأة واليأس الى مستنقعات قاع الوادى ، واخضعوا طيش الطبيعة لارادتهم ، وحولوا المستنقعات الى حقـول تجرى فيها القنوات والجسور ، وهكذا استنقذت أرض مصر من براثن الطبيعة ٠

وأثبت التطور التاريخى أن الاختيار المصرى ، كان أفضل الاختيارات ، فالذين استسلموا لتغير الطبيعة فنوا أو انقرضوا ، والذين بقوا مكانهم وغيروا معيشتهم أصبحوا مجرد رعاة ٠ أما المصريون فانهـم لعبـوا ـ كما يرصد توينبى ـ دور « القلة الخالقة » بالنسبة لكل الشعوب التى عانت قسوة عصر الجفاف ٠

وهكذا تشكل الانسان المصرى خـلال أرقى أشـكال الصراع ، وأنقى أنواع القتال : الصراع من أجل تطويع الأرض للانسان ، من أجـل الغذاء

والكساء والبناء والرفاهية • وهذا هو مصدر السمات النفسية الراقية التى يتميز بها المقاتل المصرى ، اذ تقل لديه نوازع العدوان على الآخرين ، بينما تزداد شجاعته فى دفع أى عدوان على جهده ، الصبور فى صنع التقدم ، فهو نموذج نقى للمقاتل المتحضر ، الذى يشن الحرب للدفاع عن الحياة وليس لتدميرها •

لقد تجاوز المقاتل المصرى نفسية الانسان البدائى المتوحش فى فجر التاريخ ، وحقق المصريون بانتصارهم على الطبيعة مجتمع الوفرة ، ويقول « فان لون » : ان انسان ما قبل التاريخ كان مضطرا لانفاق ستة عشر ساعة كل يوم سعيا وراء طعامه ، أما المصرى فان الخير الذى حققه لم يعقه عن اكتشاف الأديان والفلسفات ، ووضع أول أبجدية فى التاريخ •

وكان المقاتلون المصريون هم أول من جاوزوا فردية الكائن البدائى ، واكتشفوا نبالة العمل الجماعى ، اذ أنهم فى صراعهم مع النيل ، تعلموا كيف يعطون معا ، فشقوا معا قنوات الرى ، وبنوا الجسور ، وأصبح القتال لديهم جهدا جماعيا متحضرا لصنع التقدم وحمايته ، وليس توحشا فرديا عدوانيا يسعى لاقتناص واغتصاب الآخرين •

واذا كان صحيحا أن الانسان المصرى صانع حضارة ، فأن ما ليس صحيحا أن هذه وحدها مهمته ، وما يتعمد العقل الامبريالى نسيانه ، هو أن بناء الحضارة والدفاع عنها ، وجهين لعملة واحدة لا يمكن الفصل بينهما : وقد كشفت خرافة هذا التقسيم عن وجهها الحقيقى ، عندما تدهورت الحضارة المصرية وسقطت لأن حماتها لم يكونوا هم أنفسهم صناعها ، فالشعب المتحضر هو وحده الذى يعرف قيمة ما يصنع ، وهو وحده القادر على صيانة ما يبتكر •

ويبدو التطبيق العملى لفكرة تقسيم العمل واضحا فى القرون الخمسة التى سيطرت فيها الشراذم المملوكية والعثمانية على مصر • خلال هذه القرون سيطر الغزاة بالتطبيق الحاد لقانون تقسيم العمل ، ان المصرى هو (حامل الفأس) ، أما المملوك أو العثمانلى فهو (صاحب السيف) وكان التقسيم من العمق ، بحيث كان المصرى يدفع رأسه ثمنا بسيطا اذا دارت بتلك الرأس فكرة استبدال الفأس بالسيف • أما العثمانلى فهو يأنف من العمل ، ويرفض أن يمسك فأسا ، لكنه بالطبع لا يحرم نفسه من اقتناص ثمرات العمل ، وكل كتب تاريخ العصور الوسطى حافلة بصفحات سوداء لما كان يرتكبه حملة السيوف من جرائم فى حق الفئوس ، وكان من عادة أى عثمانلى ـ كما يروى الجبرتى ـ أن يختار أى دكان من دكاكين الحرفيين المصريين فيعلق سلاحه على بابه ، ويسحب كرسيا فينام عليه طوال اليوم • ثم يصحو عند المغرب فيطالب صاحب الدكان المصرى بنصف ايراداته •

وأخطر تحول حدث فى تاريخ مصر الحديث هو الغاء هذا التقسيم الاستعمارى للأدوار .. وصحيح أنه طوال قرون السيطرة الاستعمارية ، لم يكف الشعب المصرى عن المشاغبة والمقاومة . لكن التحول الحاسم فى هذا حدث عبر حركة المقاومة الشجاعة التى صدت الغزو الفرنسى ، والتى أثبتت أن النفس المصرية التى تربت فى التحدى الشرس لمستنقعات الوادى ، ما زالت تحتفظ بمقوماتها الأساسية .

وهكذا أخذ « الجعيدية » و « الزعر » و « الفتوات » و « أوباش الناس » ـ وكلها تعبيرات للجبرتى يصف بها جماهير أولاد البلد ـ المبادرة فى الغاء ذلك التقسيم الجائر للأدوار ، وفى مجرى القتال تعلم الشعب كيف يقاتل ، واكتسب خبرة جعلته يتفوق على محترفى أقوى جيش أوربى فى ذلك الوقت . وببساطة أصبح الحرافيش والجعيدية جنرالات يرسمون خططا عسكرية ناجحة ، ويقاتلون ، وينتصرون ..

وهكذا اختلطت الألقاب ، وتداخلت الأدوار ، وسمعنا عن الجنرال / الشيخ عمر مكرم ، والجنرال / المعلم مصطفى البشتيلى ، بائع الزيت الشهير ببولاق ، والجنرال / الحاج أبو شعير قائد معركة كفر عشما الباسلة .

وولدت يقظة مصر الحديثة من الغاء هذا التقسيم المزيف للأدوار . وهى اليقظة التى شهدت مدها العظيم خلال العقود الثمانية الأولى من القرن التاسع عشر ، وكان طبيعيا أن يكون بناء الجيش المصرى الحديث هو النتيجة الطبيعية لتحرك مصر من جديد على أرض القومية وفى ظل اعلامها .

ومع أن اتجاهات محمد على العثمانية جعلته يعزف عن تجنيد المصريين ، عندما فكر فى بناء الجيش حرصا على قانون تقسيم الأدوار ، فانه اضطر أخيرا الى الاستعانة بهم ، فقد رفض جنوده من الباشبوزق ـ أو المرتزقة ـ الخضوع لتقاليد بناء الجيش النظامى ، وثاروا ثورة عنيفة لمجرد أن مدربيهم أرادهم أن يسيروا فى طوابير منظمة ، وكادوا يخلعونه .

وبتجنيده للمصريين ، اكتشف محمد على أن الجوهر الحقيقى للفلاح المصرى هو جوهر المقاتل القديم ، الذى طوع مستنقعات وادى النيل الزهيبة فى نهاية عصر الجليد ، وأن روحهم الجماعية الراقية تطبعهم بطابع النظام ، وتجعلهم يخضعون لنظام التسلسل القيادى فى الجيش ، ومع ذلك فان (محمد على) لم يتوسع فى تجنيدهم الا عندما تقلصت العناصر العثمانية فى حروبه الأولى العدوانية ضد الجزيرة العربية والثورة اليونانية والسودان .

وهكذا لم يشترك المقاتل المصرى ـ بشكل حقيقى ـ الا فى حرب تتواءم مع طبيعته المتحضرة ، وهى حرب تثبيت الاستقلال ، وخلالها حرر الجيش المصرى الشام كلها وسوريا ولبنان وفلسطين من أسر السيطرة العثمانية ،

وشطر جيش الفلاحين المصريين الامبراطورية العثمانية الى قسمين ، وأعلن استقلال مصر عن تركيا ، وواصل تقدمه فتخطى حدود تركيا نفسها ، ودارت الحرب في الأناضول وعلى مبعدة خمسة أيام فقط من ضفاف البسفور ٠

أدى قيام الجيش المصرى بتبعة حروب تثبيت الاستقلال ـ كما يقول الاستاذ صبحى وحيدة ـ الى عودة المصريين الى صنعة السلاح بعد أن هجروها ، وأدى انشاء الجيش الى تكتل المصريين والتقائهم فى ميدان القتال بالشعوب الأخرى ، فشعروا بشخصيتهم ووحدتهم واختلافهم عن غيرهم ٠

وربما لهذا السبب تحركت الدول الأوربية فى هجوم عسكرى شرس ، حطم جزءا هاما من قوة مصر العسكرية ، فى محاولة لاعادة قانون تقسيم الأدوار الى العمل ٠٠ وهو وهم ظل يقود محاولات القوى الاستعمارية ، ودفعها الى تحطيم محاولة احمد عرابى الرائدة لالغاء السيطرة التركية المملوكية على الجيش ليضمن توحد التيار القومى داخله ٠ وبعد هزيمة الجيش بالخيانة والتآمر ، ظن الاستعماريون ان القانون قد عاد للعمل ، ولهذا دهشوا وذهلوا وهم يرون ما حدث فى مارس ١٩١٩ ٠

ولكن المناخ المصرى ايامها ـ ١٩٧٢ ـ كان مثقلا ـ بل ومتخما ـ بأفكار بالغة التشويش ، وكنت وما زلت أرى أن مشكلتنا كانت اننا لا نعرف أى حرب نريد ٠ كان البعض يطالب بالثأر ، وكان آخرون ينظرون للأمر كله باعتباره استردادا لقطعة أرض مغتصبة ٠ وكان قليلون يرون انه ليس بالأرض وحدها يتحرر الشعب ، ويصرون على أن ما نريده هو حرب تحرير شعبية ٠

ولعلى كنت من الذين يرون أن حروب التحرير ليست ثأرا ، انها ليست استعادة عدد من أمتار الأرض طالت أو قصرت ، اتسعت أو ضاقت ، وهى ليست شبقا للتدمير والفتك أو حبا فى الولوغ فى الدم ٠ انها شىء أهم وأرقى من هذا كله ، هى ببساطة : استرداد انسانية الانسان ، وتحرير طاقاته الخلاقة والمبدعة ، من اسار القهر والتخلف والتبعية ٠

والاستعمار ظاهرة بلا ضمير أو عقل ٠٠ انه آلة عنف هائجة متدنية المشاعر والملكات ، ومعه لا فائدة من مخاطبة العقل ، ولا أمل فى ايقاظ الضمير ٠ فقبل هذا أو ذاك لابد أن يرفع يده ، وأن يتحطم عنفه الاستعمارى الدموى ، بعنف ثورى دموى ، يتطهر به المستعمر كما يتطهر به الذين يناضلون من أجل حقوقهم ٠٠ والتجربة الانسانية كلها تقول أن الاستعمار لا يرفع يده الا والسكين فى عنقه ٠ والوجه الآخر لهذه المقولة الصحيحة هو أن الشعوب المستذلة والمقهورة لا ترفع قامتها المنحنية والمستذلة ولا تسترد انسانيتها الا اذا كانت يد كل فرد من افرادها تمسك السكين وتلامس بسنها الحاد الجلد الناعم الغليظ لرقبة الاستعمار ٠

فى وهج حرب التحرير ، تتطهـــر الشـــعوب المقهـــورة من رجس الاســتعمار ·· تختفى الخلافات الطائفيــة والقومية ·· وتنقى المشـــاعر الاجتماعية والملكات الفكرية من كل العناصر غير العقليــة ، ذلك أن العنف الثورى ، مصفاة تسقط من ثقوبها ظواهر كثيرة ، ولا يبقى على ســطحها الا بشائر التقدم ، وجحافل الزحف نحو المستقبل ، فالعنف لا يسترد فقط كل الأرض ·· بل أيضا كل النفس ·

***

وتجربة شعبنا مع كل المستعمرين ، تكشف عن نصيبهم من الضمير ، فحتى الدين الذى يصوغ الضمير بمعناه المطلق ، يتحول عندهم الى ألعوبة تبرر استنزافهم للشعوب وفى الوقت المناسب ، يتكشف مدى حرصهم عليه وايمانهم به ·

كان العثمانيون مسلمين ، تحملت الشعوب الاسلامية حكمهم الغبى بكل ضراوته ، لأنها صدقت زعمهم بأنهم يدافعون عن الرسالة المحمدية ·· فتحول العالم الاسلامى ببشره وموارده الى بحر ينزحون منه ما يمولون به قصورهم المكتظـة بالحريم والصبيان المـرد والجواسيس والمعتقـلات ، وكل مظاهر الكفر بالله ·

وفى كل مرة يشهد فيها شـعبنا معركة ضد الاستعمار الأوربى ، أو يشتبك فيها معه ، يثبت العثمانيون أنهم يعرفون جيدا لمن ينتمون ، ويؤكدون أن اختلاف الدين بين المستعمرين لا يفرقهم ، فالاستعمارى للاستعمارى كالبنيان المرصوص ، يشد بعضه بعضا ·

وهكـذا تحالف العثمانيون مع دول أوربا الاستعمارية لتصفية نظـام « محمد على » ، برغم أن جيوشه قد وقفت فى المرحلة الأولى من حربها ضد تركيا عند حدود قومية ، لا تتضمن عدوانا على الأراضى التركية ، بل ان « محمد على » اعترف فى معاهدة كوتاهيه بوجود صلة بين مصر المستقلة وبين السلطنة العثمانية ·

واسـتمر الحلف الاستعمارى يحرض السلطان العثمـانى على نقض المعاهدة فيضغط على « محمد على » ليمنعه من اعلان استقلال مصر استقلالا كاملا من الناحية الأخرى ، ليس هذا فقط ، بل ان السلطان شارك دول أوربا فى تحريض الشعوب العربية التى حررها « محمد على » من نير الاستعمار التركى على الحكم المصرى ، مستغلا بعض الأخطاء الطفيفة ، ومركزا على أن « محمد على » عاص ·· خرج على « خليفة رسول رب العالمين ·· خاقان البحرين وسلطان البرين ·· وحامى حمى الحرمين السلطان محمود » ·

وهكذا تحرك « الضمير الاسلامي » للمستعمر العثماني ، ليستخدم ضد ثورة مصر الاستقلالية ، وهو ما فعله « السلطان عبد الحميد » بعد ذلك عندما خان « عرابى » وطعنه في الظهر ٠٠ وكان « عرابى » قد تبادل رسائل سرية مع السلطان ، أكد له فيها مولانا الخليفة أنه يؤيده فى دفاعه عن مصر ، وأنه لا يثق بالخديو « توفيق » ٠٠ وفجأة و « عرابى » فى خط النار يستعد للمعركة الفاصلة ، صدر منشور العصيان الشهير من قلب قصر يلدز ، وبين سحائب دخان النرجيلة ، ورقص الجوارى ، وتهريج المضحكين ٠٠ طبعت مئات الألوف من نسخ هذا المنشور الذى يقول أن « عرابى » خارج عن دين الاسلام ، لأنه خرج عن طاعة ولى الأمر الشرعى « الخديو توفيق » ، وعلى هذا فان من يموت تحت رايته يموت كافرا ٠ وحتى آخر لحظة ظل « عرابى » يرفض أن يصدق أن « خليفة رسول الله » هو الذى أمر باصدار هذا المنشور ، حتى انه رفض اقتراحا « للنديم » بطبع المنشور والرد عليه ٠٠ بينما كان عملاء الخديو يوزعونه بغزارة على ضباط الجيش المصرى وجنوده ، أما المخابرات البريطانية فقد طبعت منه ملايين النسخ ووزعتها فى شبه الجزيرة الهندية ، وبلاد العرب ، وعلى كل المسلمين الذين كانوا يساندون بالمشاعر والتحرك السياسى محاولة الشعب المصرى النبيلة لتحرير نفسه ٠

ولا يختلف الضمير السياسى للمستعمرين عن ضــميرهم الدينى ٠٠ وتجربة شعبنا معهم تؤكد هذا ٠٠ لقد جاء « نابليون » الى مصر بعد عشر سنوات من اندلاع الثورة الفرنسية الكبرى ٠٠ جاء وهو يحــمــل ضميرها السياسى : ثائر كورسيكى قاد الثورة فى جزيرته واندمج فى عالم باريس الثائرة المتفجرة بشعارات الحرية والاخاء والمساواة ٠

واثبت الثائر الكورسيكى القــادم من طرف « الفرنساوية المبنى على الحرية والتسوية » أن ضميره السياسى حى جدا ، فعلى الرغم من أنه وعد أعضاء الديوان بالعفو العام عن كل من اشترك فى ثورة القاهرة الأولى ، وراح عنه وقتها هذا التسامح النبيل ٠٠ فقد كشفت وثائق الحملة بعد ذلك عن أنه ــ كما قال ــ كان يعتبر الرأفة فى ذاتها « فضيلة تافهة حقيرة » ، لذلك أصدر أمرا سريا الى الجنرال برتيه « بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين قبض عليهم وبيدهم السلاح ، فليؤخذوا الى شاطىء النيل ٠٠ ولتلق جثثهم المقطوعة الرؤوس فى النهر » ٠

وبسرعة وعى حرافيش القاهرة درس الاعتماد على ضمير المستعمرين ٠٠ الذين أعدموا الثوار دون محاكمة قانونية ، وخرقوا أبسط القواعد فى معاملة الخصوم السياسيين معاملة متحضرة ٠٠ وفى ثورة القاهرة الثانية رفض الحرافيش القاء السلاح ، وكذبوا كل وعود العفــو التى جربوها ، وكان منطقهم بسيطا ــ وعظيما ــ أنت مع المستعمرين لا تتعامل مع ضمير ٠٠ أنت

معهم أما شهيد أو منتصر أو مقتول غدرا .. ولا داعى أبدا لهذا الاحتمال الثالث .

وخلال معـارك شعبنا الضارية والمستبسلة ضد الاستعمار ، اكتشف الشعب أن المستعمرين لا يستعيدون ضميرهم الا عندما يسيل دمهـم ، وأن القتال هو الوسيلة الوحيدة لا لتحقيق نصر فحسب ، ولكن لانقاذ الحضارة من الظاهرة الوحشية المنافية لجوهر الانسان : الاستعمار . وأيضا فان القتال هو الوسيلة الوحيدة للتطهر من أدران ما يصيب الشخصية القومية من مثالب وعيوب .. وأن الوعى ينطلق من فوهات البنادق ، أكثر مما ينتشر من ثرثرات المقاهى .

قبل الحملة الفرنسية كانت مصر منقسمة على نفسها قوميا .. وأى مراجعة سريعة لتاريخ الجبرتى ، تنتهى بحصيلة وافرة من حوادث الصراع الضارى بين العربان والفلاحين ، بحيث لم يكن يمر يوم دون معركة على مشارف المدن : يهجم العربان على الفلاحين فيسرقون البيض والدجـاج ، وينهبون كل ما جاء الفلاحون يبيعونه فى أسواق المدن .. وخلال حرب التحرير اختفى هذا كله ، ترك العربان مضاربهم ، واختلطوا بالفلاحين ، ووضعوا خبرتهم العسكرية فى خدمة المعركة ، وشنوا معا حربا ضارية ضد الغزو ، ومعظم قبائل العربان التى توطنت وادى النيل والتحمت به قوميا ، قد فعلت ذلك فى تلك المرحلة بالذات .

ومن يراجع تاريخ المرحلة ، بين هزيمة الثورة العرابية وتفجر ثورة ١٩١٩ ، يكتشف بأسى ومرارة أن الخلافات بين المسلمين والأقباط ، وصلت الى الذروة ، وفى لحظات ، وعندما بدأت لغة الدم والعنف ذاب كل هذا .. ودهش الاستعماريون لهذا التبلور القومى السريع ، الذى جعل الهلال والصليب شعار الثورة ، وكانا يتقاتلا قبل سنوات قليلة ، فأصبحا يقاتلان معا .. وأصبحت مصر هى المعنى الذى يموت ويسجن وينفى ويشرد من أجله كل الأقباط وكل المسلمين ، وهذا التبلور القومى ـ بما يعنيه من تأكيد علمانية الدولة وديموقراطية الحكم ـ هو الابن الشرعى لمواجهة العنف الاستعمارى بعنف مثله ، ذلك أن نفى الاستعمار من الواقع بقوة السلاح هو نبضه داخلنا .. والانقسامات القومية والطائفية لا تحدث ، لأن الاستعماريين يطبقون شعار « فرق تسد » فقط ، بل أساسا لأنهـم خلقوا وضعا يجعلنـا نستجيب لهـذه المؤامرة . فعندما يكون الشعب مستذلا محبطا يشعر بالقهر ، لا يستطيع أن يواجه المستعمر أو يرد على عنفه وتجبره بعنف مثله ، يقوده كل هذا الى عنف مرتد الى الذات .

والاستعماريون يعيشون بذلك الشرطى الذى يزرعونه داخلنا ، فيشلنا عن التفكير ويمزقنا من الداخل .. وتدريجيا نصدق أنهم كائنات علوية ..

وأننا كائنات دونية ‥ وأصغر تصرفات المستعمر تتعمد تأكيد هذا التقسيم ‥ حتى أن « اللورد كرومر » ـ وهو من أهم مهندسى الاستعمار البريطانى لمصر ـ كان يفخر بأنه لم يسمح لأى مومس انجليزية بالعمل فى مصر ، وبينما كانت مصر مليئة بشرائم أوربية ممن يبتذلون الجسد المصرى ، ويحولون بنات البيوت المستورة الى غانيات ، فان اللورد أعلن فخره لأنه لا يسمح لأشياء مصرية أن تلامس الجسد الانجليزى المتفوق ‥ حتى ولو كان جسدا مبذولا لمن يدفع الثمن .

ومرة انتقد « الخديو عباس حلمى الثانى » أسلوب المدَّربين الانجليز العاملين فى الجيش المصرى ، فأثار « اللورد كرومر » أزمة سياسة حادة ، لأن « شيء مصرى » قد جرؤ على انتقاد بريطانيا العظمى ، ولم تحل الأزمة الا بعد أن أجبر خديو مصر على الاعتذار رسميا فى الوقائع المصرية ، محنيا بذلك رأس مصر كلها فى الرغام أمام التجبر الاستعمارى .

وبعد الحرب العالمية الثانية كان « أمين عثمان باشا » يجمع شباب مصر ليقول لهم بعربية متكسرة :

ـ انجلترا غلبت المانيا فى الحرب . فيه ناس مجانين بتفكر تحاربها .

ولأن هذا هو التعبير المركز لايديولوجية التجبر والاستذلال ، فان الرد الوحيد الذى استحقه أن انقض عليه عدد من المجانين « فأسكتوه الي الأبد » واثبتوا أن انجلترا ممكن غلبها .

وفى كل مرة خاض فيها شعبنا تجربة العنف ضد المستعمر تطهر من أشياء كثيرة . وتفجر الوعى من فوهات بنادقه ، ومن رطوبة الخنادق التى حفرها . وكان اختلاط الدم المصرى بالدم الاستعمارى ، هو الوسيلة الوحيدة لتطهيرنا من كل أدراننا الفكرية والاجتماعية ولتطهير المستعمر ذاته ، واعادته الى الجوهر الانسانى .

وكل فترات اليقظة التى ارتجفت بها مصر ، كانت ابنة العنف فى مواجهة الاستعماريين : حدث هذا خلال اليقظة التى قادها « محمد على » ‥ وخلال التحدى العظيم الذى قاده « عرابى » ‥ وبعد ثورة ١٩١٩ .

من هذا العنف ولدت مصر الديموقراطية والمتحررة . وتفجرت بالفن والفكر والابداع ‥ وترقت الصراعات بين أبنائها ‥ من صراعات متخلفة بين المسلمين والأقباط أو العربان والفلاحين الى صراعات فكرية وسياسية تنتمى لقضايا العصر وتسمع نبضه .

ان حرب التحرير الوطنية ، تعنى ببساطة أن تحمل كل يد السونكى أو السكين ، وتلامس بنصلها الحاد الجلد الناعم الغليظ لرقبة الاستعمار ‥

بهذا نسترد كل الأرض ٠٠ وكل النفس ونساهم فى تحطيم حضارة الاستعمار وبناء حضارة الانسان ٠

. . . .

. . . .

كان الجهر بأفكار مثل هذه فى تجردها وعموميتها قد أصبح مزعجـا للكثيرين ، ولم تكن المشكلة مشـكلة هؤلاء الذين تعالى صراخهم فيما بعد ـ بما كانوا يهمسون به أيامها ـ اعتراضا على ما سموه بـ « الفلسفة » و « النظريات » وينعتونه بمقالات « الطوب والزلط » يعنون به كل كتابة أو كلام تعجز عقولهم القاصرة عن فهمه أو استيعابه ، يخدمون بذلك فى المدى القصير ـ والبعيد ـ كل الذين يهمهم أن يتسطح وعى الشعب ٠ وأن تظل الظواهر كلها أمامه غير مفهومة أو مبررة أو مترابطة ٠

لم تكن المشكلة هؤلاء وحدهم ، ولكن الشعب نفسه كان قد مل كلاما كثيرا سمعه طويلا ، وتبين له أنه كذب صريح وقبيح ، وكانت نكسة يونيو (حزيران) قد حطمت كل الأوثان ، وربما كانت تلك فضيلتها الوحيدة وكان لابد أن يمر بعض الوقت قبل أن يستعيد الناس ثقتهم بأن الكلام الذى استخدم للضحك عليهم ، ليس هو المسئول عما حدث ، وأن الذين هزموا الوطن قد لوثوا ـ بالعبث والتهريج والديماجوجية ـ قيمـا عديدة كالفكـر والحرية والاشتراكية ٠

كان لابد من العودة الى الينابيع ، ليستعيد الناس ثقتهم فى أن كل شىء ليس وهما ، وكانت محاولة مستمرة قد نجحت فى تشويه التاريخ ، بحيث بدا لكثيرين من الناس أن الاستشهاد سـخف ، والبطولة حماقة ، وتقدس مهرجون أو شبه مهرجين ، بينما اختفت كل رموز المقاومة والتحدى ٠

وفى عام ١٩٦١ مرت خمسون عاما على ذكرى وفاة « عرابى » ، فلم يلتفت اليها أحد ، ولم يعن بها كاتب ، ولم تتحدث عنها جريدة ، وبعدها مرت مناسبات تاريخية متعددة ، لقيت نفس الاهمال : ذكرى عمر مكرم ومحمد كريم والنديم والبارودى ٠٠ وتحكم قانون التنافس البرجوازى فى أحط صوره وأكثرها ابتذالا ـ مواصلا بذلك دورا قديما لعبته البرجوازية بعد ثورة ١٩١٩ ـ عندما تحكم الانقسام الحزبى فى المناسبات القومية التى كانت الأحزاب تحتفل بها ، فلم يحتفـل الوفد مثـلا بذكرى « عرابى » أو « مصطفى كامل » أو « النديم » ٠٠ ولم يحتفل الحزب الوطنى بذكرى ثورة ١٩١٩ ، والغريب أن تلك الأحزاب كلها كانت تحتفل بذكرى « محمد على » وشاركت فى مهرجان مرور خمسين عاما على وفاة « اسماعيل » ، فضلا عن حماسها الدائم والمستمر للاحتفال بأعياد الجلوس والميلاد الملكية ٠

وبعد ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ أصبح الاهمال كاملا ، والصمت تاما ، ولم يكن لذلك من معنى الا أن يوقر فى نفس الشعب ، ان الذين كافحوا مع « مصطفى كامل » أو الذين قتلوا فى ثورة ١٩١٩ وضحوا بحياتهم ، يتساوون مع من ماتوا فى مشاجرة عابرة فى الطريق ٠

فى عام ١٩٦٦ توفى المناضل المصرى « وسيم خالد » وتصادف أنه توفى فى الاسبوع نفسه أو بعده بقليل لاعب كرة مصرى شهير هو « رضا » وصحيح أن بعض أصدقاء وسيم قد كتبوا عنه ، ولكن المساحات الهائلة التى خصصتها صحفنا لرضا ـ رحمه الله ـ زادت عما كتب عن « وسيم » عشرات المرات ٠ ولم يكن لدى أحد اعتراض على تكريم ذكرى « رضا » باعتباره مواطنا أظهر تفوقا فى ميدان من الميادين ٠ ولكن الأمور كان ينبغى أن توضع فى مكانها الصحيح ، فنحن عندما نحتفل بذكرى مواطن نؤكد قيما معينة ٠ اننا نقدم لشبابنا وأطفالنا « البطل » كما نتصوره وعندما نهمل ذكرى مناضل مثل « وسيم خالد » ونقدم عليها ذكرى لاعب كرة ٠ فنحن نقدم الكفاح ضد الاستعمار والتخلف والرجعية كقيمة أقل مكانة وأدنى من قيمة الكر فى الملاعب والفر فى المباريات !

لكن أحدا فيما يبدو لم يكن يعنيه كل هذا ٠ على العكس من ذلك ، تملكت الحساسية المرضية كثيرون ممن كانوا يملكون أن يقولوا فيستمع الآخرون لما يقولون تجاه كل ذكريات الماضى ففرض حصار اعلامى على أسماء رجال مثل : مصطفى النحاس ومكرم عبيد ، وجيل ما بين الثورتين (١٩١٩ ـ ١٩٥٢) ولم يدرك الذين فعلوا هذا أنهم يضربون الشعب فى الصميم ، مهما زعموا أنهم يقفون فى صفه ٠

وفيما بعد ، وفى ضوء الرماد الذى تخلف من تحطيم المعابد والأوثان ، بدأ المفلسون البحث فى دفاترهم القديمة ٠ وهكذا شهدت سنوات ما بعد النكسة ، الاحتفاء ـ المبالغ فيه أحيانا ـ بالذكريات الوطنية ، ففى عام واحد ـ هو ١٩٦٩ ـ احتفل رسميا بذكرى مرور خمسين عاما على ثورة ١٩١٩ وعلى وفاة محمد فريد ، وبعدها بقليل احتفلت الصحافة بمرور تسعين عاما على الثورة العرابية ، وكان ذلك كله خيرا ٠٠ لكنه جاء متأخرا جدا ٠

. . . .

. . . .

ولست أزعم أننى كنت واعيا بذلك كله عندما قررت أن أطالع القارىء بهوامشى تلك على صفحات جريدة الجمهورية كل صباح ، توثق صلته بتاريخ وطنه وأمته ، وتكشف الرماد الذى يغطى شعبا كجمرة النار لا ينطفىء

حماسه ٠٠ لكنى على الأقل كنت انطلق من المناخ الذى أعيش فى ظله ، والذى كان يفرض على كل من يعيه أن يفعل ما يظن انه الصواب لكى يحافظ على معنويات كان ضروريا الحفاظ عليها باعتبارها الذخيرة الحقيقية لمواجهة ذلك الذى حدث فى حزيران ٠

ربما كانت الهوامش ـ اضافة الى كل ما قلت ـ آنذاك ضرورة لى أنا نفسى ، فبرغم ادراكى أن عملا مثل هذا قد لا أكون أفضل من يتقنه ، ومع أن عديدين من أصدقائى ، كانوا مجاملين عندما طالبونى بأن أوجه جهدى الى ما يسمونه بـ « الدراسات الثقيلة » أو « الاستراتيجية » لكننى بشىء قريب من الالهام الفنى ، كنت أشعر بضغطه على برغم وجاهة ما قاله الأصدقاء ، ولكن فكرته ظلت مشروعا غير قابل للتنفيذ ، لأنه كان يحتاج وسيلة النشر التى تتواءم مع هدفه ، فيصل الى أعرض الناس ، ويكون تراكما فكريا وزادا معنويا يوما بعد يوم ، فلم يكن تأليف كتاب هو هدفى ، ولكن الالتقاء اليومى والمباشر بقارىء ما زال يؤرقنى أن تواصلنا معه ، ليس حميما بالدرجة التى نرجوها ٠

وهكذا سعت الهوامش الى قارئها لأول مرة ، صباح يوم ١٩ يونيو (حزيران) ١٩٧٢ ، وفى الوقت نفسه سعت الى المشاكل ٠

ولعل الترتيب الزمنى لنشر هذه « الهوامش » هو ابلغ الأدلة على المناخ الذى كتبت فيه ، والذى كان قاسيا بدرجة لا تحتمل ، وقد لاحظت وأنا أعد هذه المجموعة منها للنشر ، اننى على امتداد الفترة بين ١٩ يونيو (حزيران) ١٩٧٢ ، ٣١ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٤ قد توقفت عن كتابتها ثلاث مرات ، لفترات تتراوح بين ثمانية أشهر ، وثلاثة أسابيع ٠

فقد استيقظت ذات صباح لأجد اسمى فى قائمة بأسماء عدد من الكتاب والشعراء والصحفيين تقرر فصلهم من عضوية الاتحاد الاشتراكى العربى ، وصدر القرار من شىء ما كان يسمى أيامها « لجنة النظام بالاتحاد الاشتراكى » ، وتضمنت مذكرته التفسيرية ما يفيد بأن ذلك يستتبع فصل هؤلاء من عملهم الصحفى ٠ وكان الأمر مضحكا جدا لى ، واستكمالا للمهزلة أرسلت برقية للمرحوم الدكتور حافظ غانم ـ وكان أمينا أول للاتحاد الاشتراكى ـ نصها :

« أحتج على فصلى من الاتحاد الاشتراكى الذى لست عضوا فيه » ٠

وهكذا اختفت الهوامش لمدة تسعة أشهر كاملة بين ٤ فبراير (شباط) و ٣٠ أكتوبر (تشرين أول) ١٩٧٣ ٠

وفى صيف ١٩٧٤ وابان تفجر معركة مجلة « الكاتب » واشتداد الصراع داخل مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر ، أوقفت عن كتابتها لمدة ستة أسابيع

كاملة ، ارضاء للمرحوم الأستاذ يوسف السباعى ، الذى اتهم « الهوامش » بأنها هاجمته بضراوة من خلال اسقاطات تاريخية على شخصيات تحمل اسم يوسف ، وكما أوقفت فجأة عن الكتابة ، دعيت فجأة للعودة ، وعدت .

واستيقظت ذات صباح آخر ، لأجد فوق رأسى ضابطين وثلاثة مخبرين ، قادونى الى تخشيبة قسم السيدة زينب ، ثم الى سجن القلعة ، فسجن طرة ، متهما فيما سمى آنذاك بقضية التنظيمات اليسارية ، لأظل أربعة أشهر فى انتظار واقعة واحدة تبرر هذا المزاح الثقيل ، وعندما لم يقدموها للقضاء ، اضطروا آسفين للافراج عنى .

طوال هذه الفترات ظلت الهوامش يتيما تبناه عدد من الأصدقاء ، لكنه وقبل أن أسترد حريتى بأيام قليلة ، غادر « **مصطفى بهجت بدوى** » « الجمهورية » وجاء الأستاذين « **محسن محمد** » و « **ابراهيم الوردانى** » فكان أول ما فعلاه قبل أن يستقرا هو الغاء « الهوامش » بين زوايا أخرى كثيرة لم تعد منذ ذلك التاريخ الى صفحات الجمهورية ، وتركت مكانها لأبواب مثل « سوق السيارات » و « سوق الأوراق المالية » وجرائم من نوع « شقيق يتزوج شقيقته » .

وقد انزعجت فعلا وأنا أقلب قصاصات هذه الهوامش مما سببته لى ، ولصديقى « مصطفى بهجت بدوى » من مشاكل ، وأشهد أن الرجل كان ودودا وصبورا ، وأنى لأدين له بأفضال كثيرة ، فقد مد الى يده ، بعد خمس سنوات من البطالة الاجبارية ، فى وقت كان الجميع يصرون فيه على أن أمثالى ينبغى أن يموتوا من الجوع ، فأكد ثقتى التى لم أفقدها يوما ــ رغم كل شىء ــ بأن وطننا ــ على طول القهر وبشاعة التخويف ــ لم يفقد عناصره النبيلة والوطنية .

وما أظننى مبالغا حين أقول أن هذه « الهوامش » قد سببت لى من التوتر والضيق ، واستنزفت ــ على بساطتها ــ جهدا عصبيا وعقليا ضخما ، لكن ما يدهشنى وأنا أتذكره الآن لأكتب بعضه ، كيف تحملته ولماذا ؟

دخلت « الهوامش » لعبة الصراع بين اليمين واليسار على الطريقة المصرية ، وفوجئت منذ أول يوم لنشرها ، بحملة معادية لها بين صفوف محررى الجمهورية أنفسهم ، ولأننى لم أكن قد درست جيدا قوانين الصراع المهنىء فقد دهشت لذلك ، ثم عرفت أن من « تقاليد المهنة » أن الزوايا والأبواب ــ يومية أو اسبوعية ــ تتعلق بالأقدمية لا بالكفاءة ، وبما أننى ــ آنذاك ــ طائر جديد على الوسط الصحفى ، فقد أزعج كثيرين أن أحوز « شرف » كتابة زاوية يومية ، رغم أننى رفضت أن أتقاضى عنها مكافأة اضافية ، كما رفضت أن أوقعها باسمى الصريح . واخترت اسما مستعارا هو « المقريزى » .

وأخذت الحملة شكل التشكيك فى أمانتى العلمية ، وأصبح من الأحاديث الصباحية فى « الجمهورية » أن يقول واحد أو أكثر أن هامش اليوم يتضمن خطأ فى ذكر تاريخ أو واقعة ٠ ثم تبدأ حملات الاستفزاز والتشهير ، وكان ما يبعث على الضحك حقا أن أصحاب هذه الأقوال كانوا أغبى من أن يخفوا حقدهم ، الذى قادهم – فى معظم الأحيان – الى الكشف عما يتميزون به – وحق التسمية للصديق الشاعر **أحمد فؤاد نجم** – من « جهل عصامى » نادر المثال ٠

وعندما تكسرت نصال هذه الحملة ، وفشل وقودها ، جددت وقودها بالصراع السياسى الذى كان كامنا ، ثم بدأ يشتعل من جديد على ضوء أحداث الأسابيع الأولى من عامى ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ عندما بدأت الانتفاضات الطلابية تفرض نفسها على الاهتمام العام ، وقد طرحت هذه الحرب الباردة نفسها على صحيفة « الجمهورية » حيث قوانين الصراع المهنى محرك أساسى ، يتقنع غالبا بأرضية سياسية ، ولست أدرى ما هى الحكمة الخفية ، فى أن اليمين المصرى قد انطلق بهذه الكثافة والوقاحة بل « الفجر » بعد حرب أكتوبر ؟

لكن ما حدث أننا فوجئنا ذات صباح من أواخر عام ١٩٧٣ بقرار ادارى يعزل الاستاذ « **عبد العزيز عبد الله** » ، رئيس تحرير الجمهورية التنفيذى عن منصبه ، ليحل محله الأستاذ « **ممدوح رضا** » ، وكان مديرا لتحرير العدد الاسبوعى ، وقيل أن ذلك تم بتوجيه شفهى من الدكتور « **عبد القادر حاتم** » – وكان أيامها نائبا أول لرئيس الوزراء – ولم يكن نمط الأستاذ ممدوح الانسانى غريبا على ، فقد كنت أتعامل قبلها معه معاملة لم تخل من توتر : كنا نمطين بشريين مختلفين نفهم الصحافة بمنهج مختلف ، وكان لابد أن تتوتر معاملاتنا ، وأن تنقطع أحيانا ، فى حدود القانون العام الذى يحكمها وهو أنها علاقة اجبارية ، لكنى لم أسمح أبدا لأحد أن يمارس على صلاحيات منصب لم ينتخب صاحبه انتخابا ديمقراطيا ، لهذا قاومت محاولات دائبة منه لتشويه ما أكتب ، بالاختصار أو بالتغيير ، بما يخرج آرائى على غير ما أريد لها ٠

وبعد أيام قليلة من توليه لمهام منصبه الجديد ، اتضح لى أن جهة ما أوصته بالهوامش خيرا ، وأذكر أنه استدعانى يوما وأغلق علينا مكتبه ، وفى حديث ناعم وطويل بدأه بمدحى أنبأنى أن الاتحاد الاشتراكى غير راض عن الهوامش ، وأنه – أى الاستاذ ممدوح – يفضل أن أكف عن الكتابة فى التاريخ وأن أحول « الهوامش » الى باب يتناول انتصارات اكتوبر ٠ قلت موضحا : ان للباب وظيفة محددة ، واهتمام محدد ، وان تطبيق قاعدته تلك يعنى الغاء كل أبواب الجريدة وتحويلها الى الحديث عن انتصارات أكتوبر ، وقلت انه

لا مانع لدى من احداث ما يطلبه ـ أو ما ذكر لى أنه طلب منه ـ اذا ما تم تحويل صفحة الرياضة وصفحة التسلية وصفحة الجريمة الى صفحات أكتوبرية · فعاد يؤكد لى أن أحد أعضاء الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى قد أبدى له عدم رضاه عن هامش كان قد نشر قبل أيام ، يتحدث عن صحفى تافه الشأن خدم الملوك ولعق أحذيتهم ، وابتكر صحافة الجنس والاثارة ، هو كريم ثابت · ودهشت لأن الاتحاد الاشتراكى يغضب للهجوم على كريم ثابت ، الذى حوكم أمام كل أنواع المحاكم ، والذى كان باعترافه أحد قوادى صاحب الجلالة الملك وصاحبة الجلالة الصحافة · لكنى ما كدت أغادر مكتب الأستاذ ممدوح رضا حتى وجدت مفاجأة فى مكتبى : رسالة حملها الى البريد من الدكتور « محمد سالم » الأمين العام للاتحاد الاشتراكى بكفر الشيخ وقتها ، وعضو الأمانة العامة ، تضمنت كلمات رقيقة عن الهوامش ، وأضاف : أن ما نشر بها عن كريم ثابت وعن الهلباوى قد أثار لديه بعض ذكريات كتبها · وببساطة ، كتبت هامش ذلك اليوم عن خطاب محمد سالم ، وقدمته للاستاذ ممدوح رضا ، فاستدعانى بعد قليل ، لأجده قد افتقد نعومته المعروفة وبرودة أعصابه ، وقد اعتبر اننى بما كتبت ، اتهمه بالكذب ، اذ قدمت له ما يؤكد أن الاتحاد الاشتراكى ليس معاديا للهوامش ·

وما أظن أن الأستاذ « ممدوح رضا » كان قليل الثقة بذكائى الى تلك الدرجة ، فلم يكن الأمر مما يعسر ادراكه على من يملك حدا أدنى من الذكاء ، فمشكلة الهوامش أيامها ، أن كثيرين قد وجدوا فيما تنشر من حوادث تاريخية ، ما اعتبروه اسقاطا على الواقع السياسى الذى كان قائما آنذاك ، واعتبرها آخرون تعليقا سياسيا تاريخيا ، على ما كان يجرى فى مصر فى منتصف الحقبة الساداتية ، وجاملنى كثيرون اعتبروها ـ رغم انها كانت تاريخا محضا ـ أفضل التعليقات السياسية فى الصحف المصرية ·

وكانت دعوى الاسقاطات السياسية مشكلة تقليدية من مشاكل الهوامش ، ولكن الجهر بها بدأ فى هذه المرحلة ، عندما اندفعت جحافل من اليمين المصرى الغبى والجهول تستظل من هجير الصراع الفكرى بسحابات ثقيلة وقوية بما يمكنها من الهجوم الضارى وغير الأخلاقى على كل القيم التى كانت قد استقرت فى ثقافتنا الوطنية بعد سنوات من النضال المستبسل والاستشهاد النبيل ·

كانت الشهور التى تلت حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، قد شهدت ـ للعجب ـ مدا يمينيا جارفا ، وبدأت الحرب على جبهة الثقافة التى كانت بطبيعتها أكثر حساسية لمواضعات وأشكال الصراع الطبقى · واندفعت جحافل اليمين طوال الصيف تمهد لمواسم الهجرة الى منافى الصمت ·· وتلح فى استعداء السلطات ضد كل من يخالفها فى الرأى أو الاتجاه ، وكان الأمر مزعجا لتدنى

أساليب الصراع ، بعد أن تدهور اليمين المصرى ليصبح مجرد افرازات الأمعاء الغليظة لبرجوازية السبعينات ، مما جعل الناس يتحسرون على أيام كان اليمين فيها « **لطفى السيد** » و « هيكـل » ، والمؤسف حقـا أن هذا اليمين الجهول ، كان يطنطن بشعارات ديمقراطية رنانة ، فى وقت كان ضيقه واضحا بأى صوت غير صوته ، وكان التبشير بالفاشية هو جوهر دعوته ٠

ومع التعـديل الوزارى الذى ذهب بالدكتور حاتـم وأتى بالدكتـور عبد العزيز حجازى نائبا أول لرئيس الوزراء « تغيرت القيادات الصحفية » وكان التغيير عن رغبة فى احداث توازن يعطى الوسط بعض الفرص للتأثير ، ويركز وجود التيار المتعاطف مع الغرب ـ وخاصة الولايات المتحدة ـ فى مؤسسة صحفية واحدة ، بحيث لا تختل التوازنات بين التيارات السياسية فى مصر بافتراض أن اليسار ـ الماركسى بالذات ـ تيار مرفوض ٠

وجاء اختيار « **احمد بهاء الدين** » لرئاسة تحرير الأهرام ـ وقتها ـ وتثبيت « **مصطفى بهجت بدوى** » كرئيس لمجلس ادارة الجمهورية ، تدعيما لتيار الوسط ذى النزعات الاصلاحية والراديكالية ، بظن أن هذا التيار مقبول من كل القوى ٠ وقد شملت تلك التغيرات أيضـا البدء بتصفية جهـاز « **د٠ عبد القادر حاتم** » فى الصحافة ، وفى أجهزة الاعلام المصرية بعد أن ترك منصبه كوزير للاعلام ٠٠ ففشلت محاولته لابقاء أصدقائه فى مناصب قيادية فى الصحافة المصرية ، اذ شملت التغييرات الصحفية ـ وقد جرت فى ربيع ١٩٧٤ ـ فقد اثنين من أقرب أتباعه اليه منصبيهما ، هما الأستاذين ممدوح رضا وابراهيم الوردانى ـ الذى كان قد عين عضوا بمجلس الادارة بتوجيه شفهى من د٠ حاتم ـ كما فشلت محاولة ضارية بذلها لطرد « مصطفى بهجت بدوى » من رئاسة تحرير الجمهورية ورئاسة مجلس ادارة دار التحرير ٠

وبرغم أن اليمين كان يملك منابر قوية فى دار الهلال ودار أخبار اليوم ، فان الأيديولوجية الرأسمالية الطفيلية التى كانت تلح وتضغط لكى يتم الزواج الكاثوليكى بين مصر والغرب ـ الأمريكى بالذات ـ قد رفضت هذه التغييرات وبدأت تقاتل بضراوة من أجل طرد « احمد بهاء الدين » و « مصطفى بهجت » ، وركزت هجومها عليهما باعتبارهما شيوعيين ، وهو ما كانت تعلم أنه كاذب تماما ، لكن ما كان اليمين الجهـول ينقمه عليهمـا ، انهمـا لا يضطهدان الشيوعيين ـ واليساريين عموما ـ فى الصحافة ، كما أنهما كانا متحفظين لدرجة ما ، فيما يتعلق بالهجوم على عبد الناصر ، حيث يمثل ذلك انتماؤهما الفكرى الحقيقى ٠ هذا فضلا عن أنهما لم يغرقا فى التشبيب بالولايات المتحدة الأمريكية ، وتحفظا على جلافة التعبير اليمينى عن الخلافات التى نشبت بين مصر والاتحاد السوفيتى ، ولم يكن للهجوم الشرس الذى تعرض له مصطفى بهجت بدوى وأحمد بهاء الدين ، من دلالة سوى أن كل من لا يعلن امريكيته ،

وكل من لا يضطهد الشيوعيين أو الناصريين ، هو فى مفهوم هؤلاء السادة شيوعيا ·

أيامها كانت مشكلة الحريات الديموقراطية تفرض نفسها على الالحاح العام ·· على جبهات متعددة · كان النقاش يدور على جبهة السياسة حول ورقة تطوير الاتحاد الاشتراكي التى كانت تجتذب الاهتمام كما طرحت فكرة تعدد الأحزاب نفسها بالحاح من قوى متعددة ، وساندها اليمين الذى كان يتصور انه قوى ، وان الجماهير فى صفه ، وان انشاء الأحزاب سيقود الجماهير الى أشرعته الممزقة ، كان غائبا عن الوعى فيما يبدو ، فلم يدرك طبيعة التغير الذى أحدثه النظام الناصرى بكل عيوبه فى البنية الاجتماعية المصرية ، وبمجرد أن شعر اليمين أن الكتل العريضة من اليسار تسعى لانتزاع حقوقها الديموقراطية فى الاستقلال ، حتى كشف عن فاشيته ، وبدأ يتحدث عن حريات تمنح فقط لمن يؤمنون بمصر وحدها لا من يستوردون الأفكار ، ولأن جبهة الثقافة والفكر بطبيعتها أكثر حساسية لمواضعات وأشكال الصراعى الطبقى ، فقد اندفعت جحافل اليمين المجهول الشرس تكرز بفاشيتها ·

وكما يحدث فى القصص الخرافية تماما ، فان مجموعة تعد على أصابع اليد الواحدة من محررى جريدة « الجمهورية » شكلوا تجمعا سريا سموه « الصحفيون الوطنيون بدار التحرير » وبدأ هذا التجمع يصدر سلسلة من المنشورات السرية ركزت الهجوم على مصطفى بهجت بدوى باعتباره ، كما قالت هذه المنشورات ، زعيما خطيرا لتنظيم شيوعى يعمل فى جريدة « الجمهورية » ويتقاضى مرتبا ثابتا من السفارات الشيوعية · وتضمنت هذه المنشورات هجوما على عدد من كتاب الجمهورية من مختلف فصائل اليسار هم : محمد عودة وكامل زهيرى وحسين عبد الرازق وعبد العزيز عبد الله وفتحى عبد الفتاح ومصطفى كمال والمرحوم عبد الحميد عبد النبى ، وعبد العال الباقورى ، ومحمد أبو الحديد وصلاح عيسى ·

كان واضحا أن المنشورات تطبع فى حماية جهة ما ، تستطيع أن تمنح حمايتها لمن يمارسون عملا يعاقب عليه القانون المصرى بقسوة بالغة ، خاصة أن تلك المنشورات بدأت تتجه الى عمال الطباعة بدار التحرير للطبع والنشر – التى تصدر عنها الجمهورية – زاعمة لهم أنهم لا يتقاضون حقوقهم الاقتصادية – ومنها بدل طبيعة العمل – لأن ميزانية الدار منتهبة فى شكل مرتبات مرتفعة ، تمنح للكتاب الشيوعيين الذين تنتهى كتاباتهم بتدهور توزيع الجمهورية ، وتكبيد الدار خسائر فادحة لأنهم ليسوا صحفيين ، ولا يعرفون كيف يجذبون القارىء ·· ومع أن المنشورات كانت بهذه الصيغة تتجه لتحريض مباشر على التمرد فان الصحفيين اليمينيين الذين كانوا يصدرونها ويوزعونها ، استمروا فى ذلك ، وهو ما بدا غريبا أن يصدر عن عناصر افتقدت طوال

عمرها لأية شجاعة حقيقية ، ولم تقم يوما بعمل مخالف للقانون ـ مهما ضؤل ـ الأمر الذى أكد بلا جدال أنهم يحتمون من هجير القانون بسحابات شتاء ٠٠ فى حر أغسطس ٠

وقد يفيد أن أقدم هنا نصا كاملا لأحد هذه المنشورات ، أنقله عن كتاب « مذكرات رئيس تحرير » الذى كتبه الأستاذ مصطفى بهجت بدوى ، وهو وثيقة بالغة الأهمية ، ومرجع أساسى لكل من يريد أن يدرس المكارثية على الطريقة المصرية أو العربية عموما ، ومن قلم لا يستطيع أحد أن يتهمه فى نزاهته أو صدقه ، وفى الكتاب اشارات متعددة لوقائع تتعلق بهذه الهوامش ، فيمكن لمن يريد أن يعود اليه ٠ ولكننى استكمالا للمناخ الذى كانت تلك الهوامش تصدر فيه أكتفى هنا بنص كامل لأحد المنشورات السرية التى كان الصحفيون الوطنيون بدار التحرير يصدرونها ، وكان العثور عليه قد أعيانى الى أن نشره الأستاذ مصطفى بهجت فى كتابه (ص ٢١٣) :

جريدة الجمهورية ٠٠
قاعدة للحزب الشيوعى الجديد :

« تسيطر على صحف دار التحرير مجموعة من العناصر الشيوعية هم : بدر الديب ـ محمد العزبى ـ محمد عودة ـ كامل زهيرى ـ فتحى عبد الفتاح ـ صلاح عيسى ـ عبد الحميد عبد النبى ـ مصطفى كمال ـ حسين عبد الرازق ؛ ويساندهم العميل عبد العزيز عبد الله ٠ وتردد هذه المجموعة الآن أن التوجيهات قد صدرت من القيادات الشيوعية فى رومانيا وبلغاريا الى **مصطفى بهجت بدوى** ، خلال زيارته أن يجعل صحف دار التحرير منبرا لليسار فى مصر ٠ ويؤكدون أن هذا المنبر سوف يتحول الى حزب شيوعى جديد فى الأسابيع القادمة ٠ ويردون فشلهم والعجز المالى المتضخم فى المؤسسة ، بأن المنابر العقائدية لا يجب أن تستهدف الكسب بل يجب أن تعان من الدولة شأن ما يجرى فى الدول الشيوعية ٠

ومن الغريب أن مجموعة الشيوعيين المسيطرة على « الجمهورية » تتصرف الآن على أساس حزب ، وهم يتخذون مواقف سياسية واضحة ضد القيادات والعناصر الوطنية وكبار المسئولين فى مصر ، ويستخدمون الأبواب والمنابر المختلفة فى صحف الدار للترويج لما يريدون ٠

ولعل ابرز مثال يمكن أن يقدم فى هذا المجال « هوامش المقريزى » بجريدة الجمهورية ، الذى يتبادل كتابته مصطفى بهجت وصلاح عيسى ، والذى نشر فيه خلال الستة أسابيع الأخيرة مجموعة مقالات تهاجم الحرمات ، وعددا كبيرا من الوزراء وكبار المسئولين والكتاب الوطنيين فى مصر ٠

ودعما لمواقفهم وخططهم فى تكوين حزب شيوعى جديد هم على صلة بجهات خارجية تصدر صحفا مشبوهة فى بيروت منها ، جريدة « بيروت » وجريدة « السفير » ومجلة « بيروت المساء » ومجلة « البلاغ » وهم ينشرون مقالات تتضمن هذه الآراء والسموم التى تنشر فى الصحف المصرية واللبنانية المشبوهة ، فى وقت واحد ·

ومراجعة جريدة « الجمهورية » ومجلة « الكاتب » مع الصحف اللبنانية خلال الأسبوعين الأخيرين تؤكد ما نقول وتثبته ، بقى أن نقول أن هذه المجموعة الشيوعية تتلقى دعما خارجيا يصل الى بعضهم فى صورة مرتبات شهرية ننشر اليوم فقط جانبا منها : كامل زهيرى ٥٠٠ جنيه استرلينى شهريا ، محمد عودة ٥٠٠ جنيه استرلينى شهريا ، محمد العزبى ٢٠٠ جنيه استرلينى شهريا ، صلاح عيسى ١٥٠ جنيه شهريا ، عبد الحميد عبد النبى ١٥٠ جنيه شهريا ، فتحى عبد الفتاح ١٥٠ جنيه شهريا ·

اننا نثق فى يقظة القيادة المصرية ونؤمن بأنها لن تسمح باستمرار هذه المهازل ·

« الصحفيون الوطنيون بدار التحرير »

والغريب ان بعض ما تضمنته تلك المنشورات ، بدا يظهر فى مقالات مكثفة فى صحف دار الهلال ودار اخبار اليوم – وكان يرأس مجلس ادارة الأولى وقتها الاستاذين فكرى اباظة وصالح جودت والثانية الاستاذ على امين – بل وحتى فى صحيفة الجمهورية نفسها التى كان اليمين يمارس فيها ابتزازا واضحا فى حماية من لا أعرف بالتحديد ، تتحدث عن سيطرة الماركسيين على دور الصحف فى مصر ، لأنهم يقودون ويوجهون ثلاثة دور صحفية هى « الأهرام » احمد بهاء الدين – « والجمهورية » مصطفى بهجت بدوى – و « روزاليوسف » عبد الرحمن الشرقاوى ·

ورغم ان تلك كانت أكذوبة واضحة الافتراء ، الا انها أكدت شيئا واحدا ، هو ان الوسط أيضا أصبح غير مقبول ، وأن اليمين المصرى لا يرضى الا بديموقراطية ديكتاتورية ، تتيح له أن يتكلم وحده ، بعد ان يصمت الجميع ، وأنه مفلس فكريا بدرجة ينزعج فيها من أى تصد له ، ويخشى أن تؤدى أية مواجهة الى تعريته أمام الجماهير بما يعزله تماما عن التأثير ·

ووصلت الحملة الى درجة من الانحطاط ، اصبحت فيها المنشورات تستعدى السلطة علنا مطالبة بشنق الصحفيين والمثقفين اليساريين ، وخصصت جانبا كبيرا منها لـ « هوامش المقريزى » مكتشفة بذكائها المبتذل والرخيص أنها تتضمن « اسقاطات » على هذا وذاك من المسئولين ، وانها تتقدهم بتلك الاسقاطات مستخدمة التاريخ كرداء تتقنع خلفه وتتوارى وراء ظهره ، وبدا

ذلك مضحكا ومدعاة للسخرية ، فاليمين المصرى الذى يدعى أنه كان فارس الدفاع عن الحريات الديمقراطية يوم أهدرت هذه الحريات يطبع منشورات سرية لينبه الحكومة الى أن هناك من ينقدها (!!) ٠

ويبدو أن مصدرى تلك المنشورات كانوا يتصورون أن « الهوامش » تهمة تقضى على من تلصق به ، لذلك حرصوا على التأكيد بأن الهوامش يتبادل كتابتها **مصطفى بهجت بدوى وصلاح عيسى** ، ولم يكن ذلك صحيحا بهذا المعنى ، اذ لم تتجاوز عدد الهوامش التى كتبها مصطفى بهجت بدوى عشرون أو ثلاثون ، عندما كانت ظروف طارئة تضطرنى الى عدم الكتابة ، أو عندما تعترض الرقابة ـ وكانت مفروضة أيامها على الصحف ـ على الهامش فى آخر لحظة قبل الطبع ، لكن الاصرار على تأكيد تلك الأكذوبة كان ينطلق من رغبة لدى من ألفوا هذا الغثاء ، لشفاء صدورهم من أحقاد كانت تملأها على الرجل الذى لم يكن ـ حقيقة ـ يصارعهم ، ولكنه كان بأخلاقه وصدقه وشرفه ، يكشف كم هم أقزام وتافهين وكذبة وفريسيين ٠ ودخلت الحملة فى آفاق غريبة ، عندما حط على القاهرة الصحفى المصرى المهاجر « **محمد جلال كشك** » ، ولست أدرى حتى الآن من الذى استورده ، ومن الذى أملى عليه ما عاد ليكتبه متضمنا هجوما ضاريا على « الهوامش » ومعتمدا التفسير الذى تقدمه المجموعة التى تسمى نفسها بـ « الصحفيين الوطنيين بدار التحرير » ٠

لم يكن وراء تلك الحملة شىء سياسى بشكل حقيقى ، وكان هذا هو المزعج فى الأمر كله ، فما حدث ، هو أن قرار تعيين الأستاذ « **ممدوح رضا** » رئيسا لتحرير «الجمهورية » كان توجيها شفهيا ، من الدكتور حاتم ، وجاءت القرارات التى أصدرها رئيس الجمهورية بعد ذلك بتشكيل مجالس ادارات الصحف ، ولم تعتمد هذا القرار الشفهى ، وظن الأستاذ ممدوح رضا أن مصطفى بهجت كان وراء فقده لهذا المنصب الهام ، وهكذا تولدت المشاكل والصراعات وتكونت مجموعة الصحفيين الوطنيين بدار التحرير ، التى نفى الأستاذ ممدوح رضا فى أكثر من اجتماع علنى صلته بها ٠

ولم يكن الأمر رغم سخفه ، من المسائل التى يمكن أن يأخذها الانسان بشكل جدى ، وكنت قد نقدت مرة الأستاذ « **ابراهيم الوردانى** » فى جلسة ضمت عددا من محررى الجمهورية وقلت أنه يهاجم من اصطلح ـ آنذاك ـ على تسميتهم بمراكز القوى ، ناسيا أنه كان أحد الذين مدحوهم وشببوا بهم ، وقبل أشهر قليلة من أحداث ١٥ مايو (آيار) ١٩٧١ وصف شعراوى جمعة ـ وزير الداخلية الأسبق ـ بأنه خفير مصر القومى ووصف السيد ضياء الدين داود بأنه « ضياء مصر » ، وقلت أن ذلك كله يمكن قبوله ـ على مضض ـ لو أن الاستاذ الوردانى لم ينقلب فجأة بعد ١٥ مايو ليهاجم هؤلاء ، ويقول فيهم

ما لم يقله مالك فى الخمر ، ويدعى أنهم اضطهدوه وعذبوه وعذبوا مصر كلها معه ، فلا يمكن أن يتغير رأى الانسان فى الآخرين بهذه السرعة ·

وأذكر أن الأستاذ ممدوح رضا رفض لحظتها ما قلته ، وقال بالحرف الواحد :

ـ وفيها ايه ·· مش كانوا بيحكموا مصر ؟ وماله لما يمدحهم !!

وقلت اننى لا أعترض على المدح فى ذاته ، ولكنى أعترض على التقلب السريع فى المواقف بسرعة ، ورد الأستاذ ممدوح :

ـ مافيهاش حاجة ·

ولم يكن نمط الأستاذ ممدوح غريبا على ، لكنه كان كفيلا بألا يأخذ الانسان ما يقوله مأخذ الجد ، أو أن يعتبر أية معركة يكون طرفا فيها معركة سياسية · ولم تكن الأمور تختلف كثيرا بالنسبة للآخرين ·

واشتبكت خيوط معركة « الجمهورية » بخيوط أزمة مجلة « الكاتب » التى تفجرت فى نفس الفترة تقريبا ، وشاءت الظروف أن أكون قاسما مشتركا فى المعركتين ، وقد أصبحت معركة الكـاتب معروفة التفاصيل الى درجـة الاملال ، لكنها ـ وهذا هو المهم الآن ـ كانت وجها آخر لذلك الذى يجرى على صعيد الصحافة ، وكذلك الذى يجرى على غيرها من الأصعدة ، وقد بدا الأستاذ يوسـف السباعى ـ وكان أيامهـا وزيرا للثقافة ـ ضيق الصـدر سريع الاستثارة ، ولكثرة ما أدلى به من أحاديث حول أزمة « الكاتب » بدا ثرثارا كثير الكلام ، وعصبيا مهتاج الأعصاب ، لكنه لم يفقد القدرة على رؤية هدفه بوضوح ، كان باختصار يعبر عن ضيق عارم بكل ما هو يسارى ، ولم يكن فى ذلك سوى مستقبل جيد لمناخ من رفض اليسارية ينتشر فى الأبنية الفوقية المصرية كالوباء · وبرغم ثرثرات كثيرة قيلت عن الديمقراطية أيامها ، فقد بدت لى ، اللقيط الذى ينكر الجميع أبوته ·

ولا شك أن الأستاذ يوسف السباعى مناور ذكى ، يدعو لاعجاب من تفتنهم مثل تلك الصفة ، اذ كان هدفه منذ اللحظة الأولى أن يبعد اليسارية عن « الكاتب » كصفة مذمومة لا يرضى عنها ، ويثق أنه ليس وحده الساخط عليها أو المصارع ببسالة ضدها · وهكذا اندفعت جوقة اليمين تركز هجومها على تلك الصفة الرديئة فى الكاتب ، عبر مقولات « ديمقراطية » بالغة « الفكاهة » تلك هى أن « الكاتب » مجلة تنقد نظام الحكم ·· كأن الديمقراطية هى مدح نظام الحكم ، والتشبيب به ، والنفاق لمن يتولون أمره « وفيها ايه ·· مش بيحكموا مصر ؟ » كانت حملة مضحكة ، تورط فيها عدد ممن كنت الى فترة قريبة أقدرهم ، حتى أن ناقدا محترما ، ذو تاريخ ، هو مصطفى عبد اللطيف

السحرتي قال في مقال له : أن احدى مقالات « الكاتب » ضد الحكومة وأن كاتبها يهاجم فيها الرأسمالية وختم مقاله بقوله : أنه مع « الحرية » ولكن « الحرية المقيدة » ، وهي عبارة تدعو لضحك كالبكاء ، انها تساوي تماما « الاشتراكية الرأسمالية » و « الأبيض الأسود » و « الفاشية الليبرالية » (!!)

ولم يكن هذا البلاغ البوليسي المضحك ، الذي توج به الأستاذ السحرتي حياته كناقد سوى ترديد لبعض المنشورات التي أصدرها الصحفيون الوطنيون بدار التحرير ، والتي تحدثت عن التنسيق بين « الكاتب » و « الجمهورية » كجزء من مؤامرة دولية ، ومع ان الأستاذ يوسف السباعي هو الذي بدأ الهجوم على أسرة الكاتب ، بمقال نشرته له « الجمهورية » نفسها جاء متخما بالمعلومات الخاطئة ، المطرزة بألفاظ من السباب العلني ، الذي يعاقب عليه القانون ، فقد أزعجه أن « **مصطفى بهجت بدوي** » سمح للدكتور « محمد أنيس » ولصاحب هذه السطور ، بالرد على الوزير ، وبدا واضحا أن ديمقراطية الاستاذ السباعي تعني أن نسكت نحن ليشتمنا هو ، حتى لو اتهمنا بالخيانة · و « تحرك » الصحفيون الوطنيون بدار التحرير يتحدثون عن الكاتب والجمهورية ويرون في هامش كتبته عن وزير مملوكي اسمه « يوسف البباوي » ، اسقاطا على كبار المسئولين في وزارة الثقافة ·

في مواجهة تلك الحرب الشرسة واللاأخلاقية تحرك الكتاب اليساريون في دار التحرير في محاولة لتحديد المسئولية عن هذه الحملة · وفي لقائين متتاليين جرى أولهما مع د· احمد كمال أبو المجد ـ كان وقتها وزيرا للاعلام ـ وجرى الثاني مع السيد ممدوح سالم ـ وكان وقتها نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للداخلية ـ تساءلنا :

ـ ماذا يجري بالضبط ؟ هل هناك جهات رسمية تضيق الى هذا الحد بصحفيين وكتاب يساريين محدودي العدد ، ويخضع كل ما يكتبونه للمراجعة قبل أن ينشر · والى أين تتجه الديمقراطية في مصر الساداتية ؟!

وبدا الدكتور كمال أبو المجد رجلا طيبا ومتفهما · قال أنه راجع قوائم المرتبات والعلاوات في الجمهورية ، وتأكد له أن أهل اليمين كذبوا عندما زعموا أن مصطفى بهجت بدوي يغدق الأموال على كتاب اليسار ، وان القوائم أكدت أن اليساريين في الجمهورية يعملون ، بينما يحصل اليمينيون على العلاوات والمرتبات ·

وفيما بعد أثبتت تطورات الأحداث أن د· كمال ابو المجد رجل طيب ونبيل حقا لكنه يعيش في زمن لا يقدر تلك الصفات الطيبة حق قدرها ·

وفي حين اتفق « د· أبو المجد » مع « ممدوح سالم » على نفي أن هناك رضاء رسميا عما يفعله من يسمون بالصحفيين الوطنيين بدار التحرير ، فان

ممدوح سالم شخص المشكلة تشخيصا بدا غريبا ، فقد نظر اليها باعتبارها مشكلة « أمن ونظام ، وضبط وربط » ، لذلك كان كل ما اهتم له أن هناك شغبا في « الجمهورية » وأن هذا « الشغب » يدور بين عشرين من محرريها نصفهم من أهل اليمين والباقي من أهل اليسار · فيجب أن يتوقف لأن هناك ٢٠٠ محرر آخر ليسوا طرفا فيه ، ويؤثر على أعمالهم ·

في زحام المناقشة معه ، ضاعت فكرة بأن العدل يفترض تحديد المسئول عن الشغب ، وان هناك تفرقة ينبغي أن توضع في الاعتبار ، بين المعتدى والمعتدى عليه · لكن الجو كان قيظا أيامها ، ولذلك بدا السيد ممدوح سالم ضيق الصدر ، وان كان قد ذكر بثقة أن أجهزة الأمن بوزارة الداخلية ستصل الى من يصدرون تلك المنشورات أيا كانوا ، وأن سيادة القانون سوف تطولهم أيا كانوا ومهما كانوا ·· وهو وعد لم يتحقق ، فبعد شهور قليلة ، جاءت حملة يناير ١٩٧٥ ، وكنت أحد ضحاياها ·

في كل ذلك كانت « الهوامش » قميص عثمان الذى يرتديه كل فاشستى يطنطن بالديمقراطية ، وكل فاشـــل يحـــاول أن يخفى فشله المهنى بأردية سياسية ، تكأكأ عليها المزورون والأفاقون والمأجورون ، وأحاط بهم الحقد والصغار والتفاهة والجهل ، وهدف الجميع هو أن تتوقف النافذة التى تطل كل صباح على الناس ، تحمل فصولا من تاريخ وطن عظيم عانى كثيرا ، وتعب كثيرا ، ربما بسبب ذلك النوع من الناس ·

بيد أن الأمل الشرير لم يتحقق واستمرت « الهوامش » تنشر كل صباح برغم أنها كانت قد تحولت الى مصدر ازعاج لي ولصديقى مصطفى بهجت بدوى ، وأصبحت مصدرا لاستنزاف جهدى وعقلى ، ففى الفترة التى كان الاستاذ **ممدوح رضا** يتولى رئاسـة تحرير الجمهورية ، كنت أكتب سـبعة « هوامش » أسلمها له في بداية الاسبوع وبعد يومين يتوقف النشر بدعوى أننى لم أسلمه سوى اثنتين ، وتكرر الأمر بصورة استنزفتنى عقليا ، اذ كنت أكتب ثلاثين هامشا في الأسبوع ، لينشر منها خمسة أو ستة ويذهب الباقى الى حيث لا أعرف حتى اليوم ·

وجاء صباح ··

صدرت التغيرات الصحفية ، وذهب « **مصطفى بهجت بدوى** » كاتبا في « الأهرام » ، وجاء محسن محمد وابراهيم الوردانى ادارة الجمهورية · أيامها كنت في سجن ليمان طرة ، وكنت أقرأ « الهوامش » ، التى كان يكتبها آنذاك صديقى الاستاذ عبد العال الباقورى ، حفاظا على غيبتى ، وانتظارا لأوبتى ، وفى اليوم التالى ألغيت صفحة الرأى ، وحلت صفحتا الرياضة محل اليوميات في الصفحة الأخيرة ، واختفت الهوامش ليحل محلها ما يكتبون من غثاء ·

ومن وقتها وأنا أفكر فى اصدارها فى كتاب ··

كنت قد وعدت القارىء بأن يكون لحكايات من مصر مجموعة ثانية ، ولكن الشهور مرت وأنا لا أجد وقتا أتفرغ فيه له · وعندما طال الزمن ، فكرت فى أن أستجيب لطلب بعض الأصدقاء فى أن تكون « الهوامش » مجموعة ثانية وثالثة من هذه الحكايات · وذلك ما فعلته فى هذا الكتاب ·

وعندما جمعت ما نشر ، لاحظت أن كثيرا مما كنت اكتب ، كان يتغير عند النشر بالاختصار أو التعديل أو الخطأ المطبعى المقصود ·· الخ ·· من أساليب الحرب القذرة التى يتقنها من يريدها · كما أن اصول كل ما كتبت قد ضاعت ، ومكثت أراجع هوامشى المهشمة ، محاولا أن أعيدها ــ بقدر الامكان ــ الى الأصل الذى كتبته ، وما أظننى نجحت ، وأعدت ترتيبها زمنيا ، واخترت أن تتوقف تلك المجموعة الأولى منها عند ثورة ١٩١٩ ، وأرجو أن تتاح فرصة قريبة لتصدر المجموعة الثالثة من « حكايات من مصر » متضمنة هوامش المرحلة بين ثورتى ١٩١٩ و ١٩٥٢ ·

ولست فى حاجة فى النهاية الى أن اقول ، ان هذه المجموعة الثانية ــ كما كانت الأولى ــ هى صلاة صوفية فى معبد الأم الشجاعة التى تعلمنا على يديها الحب والصبر والكبرياء ·

صلاح عيسى





كشف السيئات ـ المعجة والبصارة ـ آفة الذهب ـ العاقل والجاهل ـ بأية حال عدت ؟ ـ اعزاز دين الله ـ سماط الأحزان ـ السلطة فى المزاد ـ خاطر السلطان ـ الشيخ الاقصرائى ـ بين الزفر وشنيعة ـ عظمة السلطان قلة ـ ضحك كالبكاء ـ زمن بلا قلب ـ ريمة المملوكية ـ الاسلام والسلطان ـ أولاد الناس ـ السلاموني والمنافقين ـ الواعظ المجهول ـ عن النجوم والقمر ـ اللعبة والمأساة ـ اللعب بالسيف ـ الشيخ أبو السعود ـ الجسد فى المشنقة ـ الباشا والشيخ ـ الأمير خاين بك ـ المجناكارتا المصرية ـ العيال على العرش ـ يحكمون بالأكذوبة ـ مرة واحدة فى العمر ـ صادومة الدجال ـ السؤال الغريب ـ الجنرال فرط الرمان ـ قلب الطاغية الحنون ـ كم قهرت جبابرة ـ الأمير والبقرة ـ الشعر قبل الموت ـ تهمة الالحاد القديمة .



كشـــف السيئات

قتل آخر الولاة الأمويين على مصر لأن ملك النوبة رفض أن يجيره وأبى أن يحمي ظالما سرق الشعب ونهبه وكبده العذاب ، أو ما هو شر من العذاب ٠

كانت الدولة الأموية قد سقطت وانتقل الحكم الى العباسيين ، وأرسلوا الى الشام يطلبون آخر من بقي من ولاة بني أمية ٠٠ ولما سمع « **عبيد الله بن مروان الحمار** » الوالى الأموى على مصر ذلك أدرك أن دوره قد حان فدخل الى خزائن أمواله ، وأخذ منها عشرة آلاف دينار ذهبا وحملها هى وأمتعة غالية على اثنى عشر بغلا ، واصطحب جماعة من العبيد والغلمان ، وخرج من القاهرة هاربا غايته بلاد النوبة فى جنوب مصر ٠ فنزل فى قصر مهجور فى طريقه ، وفرشه ببعض ما كان معه من رياش فاخر ، ثم أرسل الى ملك النوبة يطلب منه أمانا على نفسه ٠

ولما علم ملك النوبة بحلوله فى أرضه ، أرسل اليه أنه قادم للقائه ، وأصر عبيد الله ــ رغم أنه حاكم مخلوع ــ على أن يبدو فى نظر ملك النوبة مهيبا ، فأمر بأن يفرش القصر المهجور بما معه ، وجعل فى صدر المكان وسادة ليجلس عليها الملك اذا قدم ، ووقف فى شرفة القصر ينتظره ، ورآه من بعيد ، رجلا أسود طويل القامة نحيف الجسد ، وحوله عشر حراس فقط فاستصغر أمره ، واحتقره ٠ لكن ذلك لم يدم طويلا ٠

فما أن جلس ملك النوبة حتى فوجىء به الوالى المخلوع ، وهو يستجوبه استجوابا قاسيا ٠

سأله الملك :

ـ كيف سلبتم ملككم وأخذ منكم ، وأنتم أقرب الناس الى نبيكم ؟

ورد عبيد الله :

ـ ان الذى سلب منا ملكنا أقرب الى نبينا منا ٠

واندفع ملك النوبة يعدد للوالى المخلوع ما كان يرتكبه من مظالم :

ـ فكيف أنتم تلوذون الى نبيكم ، وأنت لما وليت على مصر كنت تخرج الى الصيد ، وتكلف أهل القرى ما لا يطيقون ، وتفسد الزرع ، وتجبر الأهالى على تقديم الأطعمة والهدايا لك ولحاشيتك ، وكل هذا من أجل أن تصيد طائرا لا تزيد قيمته على دراهم قليلة ؟

وطأطأ الوالى المخلوع رأسه وهو يستمع الى عريضة اتهام طويلة ٠٠ وكشف حساب لسيئاته التى لا تعد ولا تحصى ٠٠ وهو صامت لا يتكلم بحرف واحد ٠

وقال ملك النوبة فى ختام حديثه :

ـ لقد استحللتم ما حرم الله عليكم ٠٠ وسمتم رعاياكم عذابا لا يطاق ، فلهذا سلبكم الله ملككم ، وأخذه منكم ، وأوقعكم ، نقمة لم تبلغ غايتها عنكم ، وأنا أخاف على نفسى ان أنزلتك عندى ، فتحل بى تلك النقمة التى حلت بكم ! ٠٠ فارحل عن أرضى بعد ثلاثة أيام والا أخذت ما معك من الأموال وقتلتك !

فلما سمع الوالى الهارب ما قاله ملك النوبة ، خرج من أرضه فى يومه ، وعاد الى الفسطاط فقبض عليه الوالى العباسى ، وكانت تلك نهايته !

العجـــة والبصــارة

عرفت مصر فى العصر الفاطمى لونا من الحكام كانوا استمرارا لعذابها الطويل ، لكن الشعب المصرى كان يملك دائما ذكاء لم يفقده لحظة ، وقدرة على السخرية لم تفارقه أبدا ، وبهذا لم يستطع الفاطميون معه حيلة ، فكلما أغلقوا بابا للكلام فتح الشعب نافذة ، وكلما أوصدوا شباكا حفر لنفسه طاقة فى الجدار ٠

كان المصريون قد اعتنقوا المذهب السنى منذ دخلوا فى الاسلام ، وجاء الفاطميون ليفرضوا عليهم مذهبهم الشيعى ، ولأنه فرض من أعلى فان أشكال مقاومتهم له تعددت ، وتنوعت بالتالى أشكال القهر وألوانه ، وكان لابد من الاحتجاج على ذلك ، وهكذا تحول خطباء المساجد الى معلقين سياسيين يتحدثون فى أحوال الدنيا ، بكلمات تبدو بريئة المظهر ، وكأنها عظة عادية مما يقال كل صلاة ، بينما هى فى جوهرها تعليق سياسى ساخن على ما يجرى بين المصريين وحكامهم ٠

وفى كل جمعة كان الخطيب يقف ليتحدث عن شىء من سيرة النبى أو أصحابه أو التابعين ، وبعد لحظة يكتشف المستمعون أن الخطيب يتحدث عن الحاضر بلغة الماضى ، وأن ما يرويه ليس عظة عادية ، ولكنها طاقة يفتحها فى جدار الصمت ، وتمضى فترة ، يكتشف خلالها الحاكمون لعبة خطباء المساجد فتصدر الأوامر اليهم ، صريحة وواضحة ، بالكف عن تناول موضوعات معينة من سيرة الصحابة والتابعين ، وبعدم استخدام الماضى للحديث عن الحاضر ٠

فى أحد مساجد القاهرة وقف خطيب الجمعة ، وبعد أن بسمل وحمد الله وصلى على الرسول الذى قال « ان المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف » ، استطرد مفسرا الحديث قائلا انه يعنى أن على المؤمنين أن يكونوا أقوياء ، وواصل الخطيب كلامه قائلا :

ــ والطعام مصدر من مصادر القوة ٠٠ والبصارة يا عباد الله من أفضل الأطعمة لتقوية المؤمن وهى تصنع من فول مجروش تشرب ماء ، ثم دق فى ماجور أو سحق فى رحى ٠

واستمر الخطيب يتحدث عن طرق صنع البصارة ، والفرق بين الطريقة المصرية والطريقة الشامية فى طهيها ، وبين طبائع أهل دمياط وأهل الصعيد فى تناولها ٠٠ ودهش المصلون وظنوا خطيب مسجدهم أصيب بلوثة ٠٠ لكنهم بعد دقائق أدركوا أن الخطيب المشاغب قد أمر بالكف عن الكلام ٠٠ وأنه لم يجد وسيلة ليقول لهم ذلك الا أن يتحدث فى موضوع ليس موضوعه ٠٠ موضوع يجعله يبدو هازلا ٠

وفى الجمعة التالية كان الأمر قد صدر للخطيب بعدم الكلام عن البصارة أو العجة أو أى طعام آخر ٠

آفـــة الذهب

نكبت مصر المملوكية بحكام كان منهم المجنون والسفيه والطاغية ، أضحكها البعض وأبكاها الآخرون ، وعذبها هؤلاء وأولئك ٠

وكان الأمير « **خمارويه** » هو أشهر حكام مصر فى سفهه وتبذيره ، كان يحب الخيل فاستكثر منها حتى ضاقت بها الاصطبلات السلطانية ، وكانت لها أنساب مثبتة فى دواوين القصر السلطانى كأنساب الناس المعروفة ، وكان مولعا بالعمارات وغرس الأشجار ، لدرجة أنه أنشأ ميدانا بالقرب من جامع أبيه ــ « **احمد بن طولون** » ــ فنقل اليه الأشجار من سائر البلاد الهندية والشامية ، حتى من خراسان ومن مكة ومن اليمن ، فكان به سائر الفواكه وسائر الرياحين وأنواع من الزرع لم تدخل مصر قبله ٠

وبلغت به الهواية حدا جعلـه يزرع أنواعـا من الرياحين ويجعلهـا كالسطور تقرأ ، فبعضها يكتب آيات قرآنية أو حكم ، وبعضها الآخر يكتب شعارات تمجيد لشخصه الكريم ٠

ووصل به الأمر أنه عين لهذه السطور المزروعة أكثر من بستانى بأيديهم مقصات من الذهب والفضة ، ليصلحوا بها ما يفسد من الأوراق ، ويخرج عن قالب الاعتدال فى الأحرف حتى يستقيم الكلام فى معناه ٠٠ ليس هذا فقط بل أنه غطى جذوع الأشجار الضخمة بالنحاس الأصفر المطلى بالذهب ، فكانت الشمس اذا طلعت على تلك الأشجار لا يستطيع أحد أن ينظر اليها من شدة اتقاد ذلك النحاس المموه بالذهب ٠٠ وكان يسحق المسك والكافور وينشـره على تلك الرياحين الكتابية ٠

فى وسط ذلك البستان الخرافى أنشأ « **خمارويه** » بحيرته الشهيرة التى ملأها بالزئبق ووضع على سطحها فراش من جلد أنعم من الحرير ، وكان يملأ ذلك الفراش بالهواء ، وينام فوقه على الزئبق وسط مهرجان من الأضواء والعطور ٠٠ ويقال ــ والعهدة على المؤرخين ــ أنه كان يشكو من الام فى المفاصل لا يستطيع معها أن ينام الا بهذه الطريقة الملوكية ٠

ومما يروى عن سفهه أنه خرج مرة يتنزه فلقيه إعرابى فاخذ بعنان فرسه ، وأنشد شعرا يقول :

إن السـنان وحـد السـيف لو نطقـا

لحدثـا عنـك فى الهيجـاء بالعجب

أفنيـت مالـك تعطيـه وتبذلـه

يـا آفـة الفضـة البيضـاء والذهـب

وأعجبت الأبيات « **خمارويه** » وأراد أن يؤكد للشاعر أنه فعلا آفة الفضة والذهب ، فألقى اليه بكل ما معه ، وكل ما مع رفقائه ·

فى زحام التاريخ اختفى « **خمارويه** » · ولم يترك سوى حكاية ابنته « قطر الندى » التى زوجها جدها الى الخليفة « المعتضد بالله » ، وأرسلها فى موكب لم يشهد له التاريخ مثيلا ، قطع المسافة بين القاهرة وبغداد فى ستة أشهر ، وترك أيضا من مآثره أعجوبة النوم على فراش من مطاط فوق سطح من الزئبق !

وترك أيضا أغنية مليئة بالشجن ، لا ندرى أهى فرح أم حزن ، أهى زغرودة زفاف أم ترنيمة عزاء ، لعل المصريون أعادوا توزيعها موسيقيا لتدل على حالهم مع الأمير آفة الذهب ·· أغنية تقول : « يا للحنة ·· يا للحنة يا قطر الندى » ·

العـاقل والجـاهل

تولى « **محمد بن طغج الاخشيد** » ولاية مصر ، وأسس بها ملكا ودولة عاشت أكثر من عشرين عاما ، وأصر قبل أن يموت أن يتركها لخادمه ، بسبب شخصيته الغريبة ·· ونفسيته المريضة ·

كان **الاخشيد** متقلب المزاج ، شديد البخل ، سوداوى الطبع ، يعاوده فى الحين بعد الحين صرع يهيج به فيخرجه عن طوره ، ويدفعه الى العنف بمن رفق به ، والغلظـة مع من عاملهم بالحلـم ، ومن أحواله التى يرويها التاريخ ، أن اثنين من قضاة الشرع فى عهده ، أختلفا فى بعض مسائل

الفقه وشاع خلافهما فاستدعاهما ليتناظرا فى المسألة التى اختلفا عليها أمامه وفى مجلسه ، وظل طوال الجلسة يتابع الحوار بين القاضيين مستمتعا ، وفجأة استفزه ارتفاع صوت القاضيين ، فأمر بأخذ عمامتيهما ونزعهما عن رأسيهما وطردهما من المجلس ٠

ومن أطواره الغريبة أنه كان يحب العطور وخاصة العنبر ، وكان يلزم الناس بأن يهدوه اليه ، ليس هذا بل انه احتكر بيعه ، فيخرجه من خزائنه ويبيعه للتجار بثمن غال ، ثم يتلقاه منهم هدية ٠٠ وكان يكره أن يكون هناك نظير له ؛ ولهذا لم يقرب الا الأسافل ، ولم يترك رجلاً ذا وجاهة أو قيمة الا حطمه ، ليظل وحده الكبير والقوى ٠

وضاق المصريون به ، وكرهوا حكمه ، واستعانوا عليه بالسحرة والمشعوذين ليذهب عنهم ٠ وفى أحد الأيام ، وجد منشورا مكتوبا فى رقعة ورق بغرفة نومه ، قال فيه كاتبه أن الناس يدعون عليه وأن دعاءهم سيجاب ، لأنه خرج ـ كما قال المنشور ـ « من قلوب قرحتموها ، واكباد أحرقتموها ، واجساد عذبتموها ، ولو تأملتم لعلمتم أن الدنيا لو بقيت للعاقل لما وصل اليها الجاهل » وأضاف صاحب المنشور يقول : « ان الناس تتمنى وتنتظر زوال ملككم ، ومن المحال أن يموت المنتظرون كلهم ويبقى المنتظر به فافعلوا ما شئتم ، فانا صابرون ، وجوروا فانا بالله مستجيرون » ٠

ولشدة وساوسه كان يتصور دائما أن هناك من يأتمر به ، فكان يكثر من الحراس والعبيد ، حتى ليبلغوا الآلاف ، فاذا خرج للصيد ضاعف أعدادهم وتأكد من يقظتهم ٠

وحدث أن جلس يوما يتفرج على فيل وزرافة ، ورفع عينيه فجأة فاكتشف أن كل عبيده وحراسه قد انشغلوا بالفرجة وغفلوا عنه ، الا واحدا فقط هو خادمه « أبو المسك كافور » الذى كان يعلق بصره به ، وليس بالفيل والزرافة ، فقال :

ـ والله لا يرث دولتى الا هذا العبد (!!) ٠

ومات الاخشيد حريصا على ألا يتركها لصاحب شأن ، يعلو ذكره بعده ، فتركها لكافور الذى وصفه بعض المؤرخين بأنه كان خادما موفقا ، أكثر منه قائدا ناجحا ٠

وتحققت كلمة المصرى المجهول « تركها العاقل فوصلت للجاهل » ٠

بأية حال عدت ؟

كان للعيد مع « أبو المسك كافور الاخشيدى » نوادر ٠٠ بل وقصائد أيضا ٠

وكافور نموذج من الكائنات الغريبة التى تعذبت بها مصر ، وشقى بها شعبها ، فتحملها صابرا ، حتى ذهبت غير مأسوف عليها ٠ هبط مصر عبدا لا يعرف أحد له أصلا ، بيع فى سوق العبيد ، فاشتراه تاجر من تجار الزيوت ، على ما به من عيب ، اذ كان دميما مشوه الخلقة ، بطيئا ثقيل البدن ٠

ولقى كافور من العذاب ما يلقاه أمثاله ، حمل الأوانى على عاتقه ، وأدار المعاصر ، وجر العجلات بديلا عن الدواب والماشية ، وانتقل من سيد الى آخر ، حتى ملكه أحد أصدقاء « الاخشيد » - حاكم مصر - وأرسله يوما الى الحاكم فأعجبته قوته واشتراه من صديقه بثمانية عشر دينارا لا غير ٠

وحكم « كافور » مصر من وراء ستار ومولاه يعيش ٠ ثم حكمها عامين بعد وفاة « الاخشيد » ، ويصف المؤرخون عهده بأنه كان عهدا أسود كوجهه ، تعرضت سلطنة مصر فيه للهجمات العسكرية ووقعت زلازل مروعة ، وشبت نيران دمرت ١٧٠٠ منزل بالفسطاط ، وانتشرت الأوبئة حتى مات من أهل مصر نصف مليون ، وعجز الناس عن تكفين الموتى ودفنهم ، فكانوا يلقون بجثثهم فى النيل لكثرتها ٠

وبرغم كل الهيبة التى زعمها لنفسه فان طبيعته غير الوقورة كانت تغلبه ، ومما يروى عنه أنه كان جالسا فى قاعة عرشه يوم العيد ، فدخلت عليه طائفة من أهل الغناء والطرب وبيدهم طبول ومزامير ، فلما رقصوا بين يديه طرب السلطان ، ونسى نفسه وحرك كتفيه متراقصا بصورة رآها كل الجالسين ، فكانت فضيحة مدوية فى يوم عيد ، وأراد « كافور » تغطية موقفه فزعم أنه مصاب بمرض عصبى تهتز معه أكتافه ، وظل منذ ذلك التاريخ يهز كتفيه فى كل جلسة ، لينفى عن نفسه أنه تراقص وهو سلطان ٠

حاول « كافور » أن يجمع قلوب الناس بالعطايا والمنح والرشاوى ، فتجمع حوله المنافقون والمسترزقون ، وتقاطر الشعراء على مصر يمدحونه ويقبضون وهو سعيد ، لكن حظه العاثر كان ينتظره يوم العيد ، فقد انتهى كل هذا المهرجان ، عندما هجاه المتنبى يوم عيد فمضى تاركا أقسى قصائد الهجاء فى تاريخ الشعر العربى :

عيـــد بأيـــة حـــال عـدت يـــا عيـــد
يمـــا مضى أم لأمـــــر فيـــك تجـــديد
لا تشـــتر العبـــد الا والعصــا معـه
ان العبيـــــد لأنجـــــاس مناكيـــد
من علـــم الأســود المخصى مكرمـة
أقومـــه البيض أم اباؤه الصيـــد ؟

اعـزاز ديـن الله

وصل الاندماج بين المسلمين والمسيحيين فى مصر ، الى الدرجة التى تحولت معها بعض الأعياد الدينية الى أعياد قومية ، يبتهج لها الجميـع ويحتفلون بها ، ويمارسون طقوسها ، دون تفرقة ٠ بل وأصبحت أيضا من الأعياد الرسمية التى تحتفل بها الدولة ٠

ومن تلك الأعياد « عيد الغطاس » وهو يقع فى الحادى عشر من شهر طوبة من كل عام ، وفيه يحتفل المسيحيون بذكرى تعميد **السيد المسيح** فى نهر الأردن على يد « **يوحنا المعمدان** » ٠٠ ويذكر المؤرخ الاسلامى « المسعودى » ، أن ليلة الغطاس كانت من الليالى ذات الشأن العظيم عند أهل مصر لا ينام فيها الناس ٠

وقد وصف فى تاريخه طقوس الاحتفال بها فى سنة ٣٣٠ هـ (٩٤٢ م) فى زمن الدولة الاخشيدية ، فقال ان السلطان أمر فأوقدت المشاعل بين مصر القديمة والجزيرة ، حتى وصلت الى ألف مشعل ، هذا غير ما أسرجه أهالى مصر نصارى ومسلمين أمام بيوتهم ، وفى الشوارع العامة وأمام الحوانيت والوكائل ٠

وعلى سطح النيل وعلى شاطئيه تجمع المصريون فى الزوارق واحتشدوا على الدور المطلة على النهر ، وأخذ معظم الناس يغطسون فى النيل ، ويأكلون

معا ، ويشربون ، والمدينة ساهرة طول الليل ٠٠ ومن المعتقدات الشعبية لدى المسلمين والنصارى فى مصر ، أن الغطس فى النيـل ليلة التغطيس يقى من الأمراض ويشفى كل الأدواء ٠

وبعد هذا التاريخ بخمسة عشر عاما ، وفى « ليلة الغطاس » أمـر الخليفة « **الظاهر لاعزاز دين الله** » ، بأن توقد المشاعل والنار فى الليل ، وكثر شراء الفواكه والضأن وأناب الخليفة عنه « متولى الشرطة » فى حضـور الاحتفال ، فضرب خيمة على شاطىء النيل ، وحضر منها الاحتفال ، أما الخليفة فقد انتقل ومعه حريمه الى أحد القصور المطلة على النيل ، ليشهد منها الاحتفال ٠

وكان من رسوم الدولة فى أيام الفاطميين ، أن يوزع الخليفة منحا على كبار رجال الدولة بمناسبة الاحتفال بعيد الغطاس ، وغيره من أعياد الأقباط ، ففى « **خميس العهد** » ـ الذى يسميه العامة خميس العدس ـ توزع دار الخلافة عشرة آلاف دينار على أرباب الرسوم ، وفى « عيد الغطاس » توزع عليهم النارنج والليمون وأطنان من القصب والسمك البورى ، وهو ما كان يحدث أيضا فى عيد الميلاد اذ كانت دار الخلافة توزع الحلوى والأسماك احتفالا ومشاركة من « الدولة » فى الاحتفال بذكرى ميلاد أنبياء الله ٠٠

وفى ليلة الغطاس ، كان القسس والرهبان ، يخرجون فى موكب مهيب يحملون صلبانهم ومشاعلهم ويتلون صلواتهم وترانيمهم طوال الليل ، وتختلط أصوات أجـراس الكنائس بأصـوات المؤذنين وترانيـم القسس بتكبيرات المشايخ ٠٠ ويقوم « **الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله** » ليصلى ٠

سـماط الأحـزان

فى السابع من رمضان عام ٣٦١ هـ (٩٧١ م) ، افتتح **الجامع الأزهر** للصلاة لأول مرة ٠

وفى عيد الفطر من العام التالى ، ركب « **المعز لدين الله** » أول الخلفاء الفاطميين بمصر ، عقب مقدمه الى عاصمة ملكه الجديد بقليل ، الى الجامع

الأزهر لصلاة العيد ، وألقى خطبة بليغة أبكى فيها الناس . وكانت هذه أول صلاة رسمية يشهدها الخليفة الفاطمى بالجامع الأزهر ، ولم يكن قد مضى على قدومه مصر سوى أشهر قلائل .

ومنذ ذلك التاريخ أخذ الجامع الأزهر مكانته باعتباره المسجد الرسمى للدولة الفاطمية ، يخطب فيه الخليفة بنفسه طوال أيام الجمع فى رمضان ، وتعقد فيه الاحتفالات الدينية فى المناسبات الرسمية للدولة .

ومن الاحتفالات الفاطمية التى كانت تقام فيه : الاحتفال بيوم الأحزان فى العاشر من المحرم ، أو يوم « عاشوراء » ، وهو اليوم الذى استشهد فيه الامام الحسين ـ رضى الله عنه ـ فى كربلاء ، واستشهد فيه معه ، معظم آل بيت الرسول ، وهو ما جعل الفاطميين يعتبرونه من أسود الأيام فى التاريخ .

وفى ذلك اليوم كان الخليفة يحتجب عن الناس ، وفى الضحى يركب قاضى القضاة ونوابه وقد ارتدوا ثياب الحداد ، فيتوجهون الى الجامع الأزهر ، ويتوجه اليه ـ بنفس الطريقة ـ الأمراء والأغنياء والعلماء ، وعندما يتكامل عددهم ، يأتى الوزير فيأخذ مكان الصدارة فى المجلس ، ويتلو القراء القرآن ، ثم تبدأ المراثى ، فيلقى الشعراء قصائدا فى رثاء الحسن والحسين وآل البيت ، ولا يستطيع الحضور مغالبة دموعهم ، فينفجرون فى البكاء والعويل .

ويتوجه الجميع بعد ذلك الى قصر الخليفة ، وقد أصبح قصرا آخر ، فترفع الأبسطة والسجاجيد الفاخرة ، وتفرش الأرض بالحصر ، ويستقبلهم نائب عن الخليفة ، حيث يبدأ الجزء الثانى من يوم الحزن ، بقراءة القرآن والبكاء والعويل . وعند الظهر يدعى الجميع الى المائدة ، وكانت تسمى « سماط الحزن » وتمد فى القاعة الكبرى بالقصر ، ولا تحوى سوى العدس والألبان والأجبان ، وعسل النحل والخبز الأسمر ، ويدخل من يشاء لتناول الطعام فاذا انتهى القوم انصرفوا الى دورهم .

فى ذلك اليوم الحزين ، كانت الأسواق تعطل ، ويعتكف الناس حتى العصر ، ويعم الحزن والنواح ، كمظهر من مظاهر الندم على الحق الذى قتله الباطل متجبرا ، وقضى عليه مستهترا .

ولم يبق من تقاليد هذا اليوم سوى طبق عاشوراء الشهير أحد أطباق « سماط الحزن » .

السلطة فى المــزاد

فى عام ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) ، بيع كل أمراء مصر فى المزاد بما فيهم نائب السلطنة •

حدث هذا فى حكم الملك الصالح « نجم الدين أيوب » ، وكان قد أكثر من شراء المماليك ومنحهم امارة بعض الأقاليم ، وصاروا أصحاب الجـاه والنفوذ على الرعية ، لا يبالون فى ذلك بطشا ولا ظلما يقع على الناس ، وضج المصريون من مظالم المماليك وسرقاتهم وتحكمهم الغبى فى أمور السلطة والسلطان •

وفى تلك الفترة وفد من دمشـق الى القاهرة الشيخ « عز الدين بن عبد السلام » ، وكان فقيها خيرا ، بلغ من احترام الفقهاء له أن امتنعوا عن الافتاء مع وجوده ، وبالغ السلطان فى اكرامه ، فولاه قضاء مصر والوجه القبلى ، وقبل الشيخ المنصب ، ووضع تقاليد رائعة له ، واصر على أن تكون كلمة الحق لا سلطة القوة هى الفاصلة بين الحاكمين والمحكومين •

وعندما زادت مظالم أمراء المماليك ، بحث الشيخ عبد السلام الأمر فقهيا ، وخرج بفكرة غريبة تقول : ان هؤلاء المماليك أرقاء للشعب المصرى ، ذلك أن السلطان قد اشتراهم بمال الدولة ، وما زال حكم الرق ساريا عليهم فيحق لبيت مال المسلمين أن يبيعهم اذا ما شكى نقصا فى موارده ، واحتاج لثمنهم يسد به مطالب المسلمين ، وكتب الشيخ فتوى بهذا المعنى ، وانتهى الى ضرورة بيعهم وصرف ثمنهم فى وجوه الخير ومصالح الأمة •

وثار الأمراء ، وامتلأوا غضبا وغيظا ، وحاولوا أن يثنوا الشيخ عن فتواه ، فصمم عليها وأعلن أن هؤلاء المماليك لا يصح لهم اى تصريف فى أمور الحكم ، فتعطلت مصالحهم وتوقفت أعمالهم ، فرفعوا الأمر الى السلطان ، فأرسل الى الشيخ يطلب منه العدول عن فتواه ، فأصر عليها ، وأعلن انه سينفذها ، والا فسوف يعزل نفسه من منصب القضاء ويترك فتواه قائمة فى البـلاد الاسلامية يعمل بها المسلمون ، ويتصرفون على أساسها ، وثار نائب السلطنة وهم بقتل الشيخ ، لكنه خشى ثورة العوام •

وسألوا الشيخ عن حل للمشكلة ، فقال لهم :

ـ سأعلن بيع الأمراء فى المزاد •

وهو ما فعله ، اذ عقد مجلسـا كبيرا من رجـالات الدولة ، حضره السلطان والأمراء ، وأخذ قاضى القضاه ينادى عليهم واحدا بعد الآخر ، ويغالى فى ثمنهم ، لأنهم أمراء يزعمون أنهم ملوك الأرض ، ويتحكمون فى شعب اشتراهم بأمواله ، فظنوا أنهـم اشتروه بأموالهم ، وتقـدم السلطان

فاشترى أمراءه ٠ ودفع أضعاف الثمن الذى اشتراهم به ، وقبض الشيخ « **عز الدين بن عبد السلام** » المال ، وأعتق الأمراء ٠ أما الثمن فقد صرفه الشيخ على وجوه الخير ، ومصالح المسلمين ٠

وعاد الأمراء يتصرفون فى أمور معايشهم ، بعد أن تلقنوا درسا جعلهم يكفون ـ إلى حين ـ عن ظلم العباد ٠

خاطـر السلطان

عندما تكون السلطة شخصية ، فلا قيمة للانسان ، ولا معايير للصعود وللهبوط أو للارتفاع والانخفاض ٠

وفى العصر المملوكى ــ وهو النموذج المركز لهذه السلطة الشخصية ــ كبر رجال ، وارتفعوا وأثروا ، ثم حط بهم الهوان ، وافتقروا ، دون أن يعرف أحد السبب فى الحالتين ٠

ومن هؤلاء القاضى « **كريم الدين ابو السديد** » وكان ناظرا لخاصة السلطان « **الملك الناصر محمد بن قلاوون** » ــ أى مديرا لأمواله الخاصة ــ مقربا اليه ، فارتفعت درجته فى الدولة ، ونال من العز ــ كما يقول ابن اياس ــ ما لم ينله جعفر البرمكى فى أيام هارون الرشيد ٠

ومن مظاهر السلطة التى حازها ، أنه أصبح المتصــرف فى الخزائن والأموال من غير حرج ، فكان الأمراء والأعيان يركبون فى خدمته ، وينزلون معه الى بيته ، وكان مسرفا الى درجة غريبة ، فقد حدث مرة أن شفى من مرض ، فجمع كل الورد من أشجاره بالقاهرة ، وفرش منه فى داره ما قدر عليه ، فعل ذلك حتى فى دهاليز بيت الخلاء ، وفى الشارع المحيط بالمنزل ، وداس الناس منه ما داسوا ، وأخذوا منه ما أخذوا ، وجمع العبيد والغلمان ما بقى منه فباعوه بخمسة آلاف درهم ٠

وفجأة أمر السلطان بعزله وصادر أمواله ، ولم يترك له لا قليلا ولا كثيرا ، وصادر نساءه وغلمانه وحاشيته ، ثم نفاه الى أسوان ، ولم يطق « كريم الدين » الموقف ، فشنق نفسه فى سجنه ومات منتحرا ٠ أما السلطان

فقبض على ابنه وعذبه حتى أقر ببقية ما كان يخفيه من أموال فوجد لديه من الذهب مائتى ألف دينار أما التحف فكان عددها لا يحصى ٠

والغريب فى هذه الحكاية ـ التى كانت تحدث بمعدل كل شهر مرة فى العصر المملوكى ـ هو سببها :

ان السبب ـ فى كل مرة ـ كما يذكره المؤرخون « هو أن السلطان قد تغير خاطره على فلان » ٠

الشيخ الاقصرائى

عرف التاريخ المصرى عددا من « **شيوخ الاسلام** » الذين دافعوا بشجاعة عن آرائهم وقالوها فى وجه الخطر نفسه ٠

ومن هؤلاء الشيخ « **أمين الاقصرائى** » ، وكان شيخا للاسلام ، على عهد السلطان المملوكى « **الأشرف قايتباى** » ، وكانت هنـاك مناوشات على الحدود بين « السلطنة المصرية » ومملكة « شاه سوار » ، وعقد السلطان مجلسا كبيرا من العلماء والقضاه اجتمع بالحوش السلطانى بالقلعة ، وكان « **الشيخ الاقصرائى** » من بين من دعوا الى هذا الاجتماع ، لكنه تأخر فى الحضور ٠

وفى الجلسة تحدث السلطان ، فقال ان الغزاة يهددون البلاد السلطانية ولابد من خروج تجريدة عسكرية لملاقاتهم ، وهناك مال كثير مع الناس ، يزيد عن حاجتهم ٠ ولذلك فانه يطلب من العلمـاء الموافقـة على فرض ضرائب جديدة على التجار وأصحاب الأراضى والحرفيين ، وسائر أهل مصر قاطبة ٠

وكاد المجلس يهم بالموافقة ، لولا أن وصل « **الشيخ الأقصرائى** » الى مكان الاجتماع ، فلما علم بما دار ، ثار ثورة عارمة ، وخاطب السلطان علنا أمام الجميع ، فقال أنه ليس من حقه أن يفرض ضرائب جديدة الا اذا نفد كل ما فى بيت المال ،عندئذ يأخذ السلطان ما يحتاج اليه من فائض القادرين والأثرياء وحلى النساء ، فاذا لم يكف ، نظر الى ما فى يد الناس فيأخذ غير الضرورى ويترك الضرورى ٠

وخلال الحديث ارتفع صوت الشيخ الجليل ، وختمه مخاطبا السلطان :

ـ اننا نخشى أن يسألنا الله تعالى يوم القيامة : لم لا نهيتموه عن ذلك !

وخافه السلطان فعدل عما يريد ، وكثر دعاء الناس يومها له ٠

ومات الشيخ « **الأقصرائي** » بعدها بثمانى سنوات ، وكان في الثمانين ، وصفه « **ابن اياس** » فقال : « انه كان دينا خيرا قائما فى الحق يخاشن الملوك والسلاطين ، ويغلظ فى القول ، ولا يخشى الا الله تعالى » ٠

وأكثر الناس خشية الله ، أكثرهم حبا للوطن !

بين « الزفر » و « شنيعة »

ما اكثر المضحكات المبكيات التى شهدتها مصر فى عصر المماليك ٠

واحدة منها ، أن السلطان المملوكى « **خشقدم** » فى أواخر عهده عين « **الشمسى محمد البباوى** » وزيرا أول له ، وبمجرد أن سمع المصريون الخبر **قالوا جميعا** :

ـ الزفر تولى الوزارة بمصر ٠

ذلك أن « البباوى » كان طباخا أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وكان أصله معاملا فى اللحم ، أى جزارا ، وهو ما أوحى لأحد شعراء العهد أن يقول :

قالوا البباوى قد وزر
قلت كلا لا وزر
الدهر كالدولاب لا
يدور الا بالبقر

وقال آخر :

تجنب العلم والفضائل
ومل الى الجهل ميل هائم
وكن حمارا مثل البباوى
فالسعد فى طالع البهائم

وأقام « **البياوى** » بمقر الوزارة ببركة الرطل ، وأيد السلطان وزيره ، فأصبحت له حرمة وافرة وكلمة نافذة ، لدرجة أن السلطان نزل الى المدينة يوما ، فأقام بمنزل وزيره الأول الى ما بعد العصر ، أما هو فقد سار فى الناس سيرة سيئة ، وصادر الأموال ، واضطهد الشعب ، ولم يتعفف عن شىء ، حتي أن المؤرخين حكموا بأنه منذ تولى الوزارة انحط قدرها « وتبهدل هذا المنصب للغاية » .

ولم يطل **بالبياوى** عهد الوزارة ، فبعد شهور من توليه المنصب نزل من بيتـه المطل على « **بركة الرطل** » وتوجـه الى **قناطر بنى منجا** على الخليج الكبير ، وبينما هو عائد انقلب به المركب عند فم الخليج ، فغرق ومن معه ، ولم يعثروا له على جثة ، كأنه ــ بتعبير ابن اياس ــ « من بقية قوم نوح ، اغرقوا فادخلوا نارا » وفرح الناس لموته ، وقال شاعر :

لا تكرهــوا المـوت ان فيـه
حصــاد من طــاب مــع خبيــث

بيد أن فرحة الناس لم تطل ، ذلك أن من خلفـه فى الوزارة ، كان « **الزينى قاسم** » وكان مشهورا عند العوام باسم « شنيعة » .

وكـم ذا بمصـر من المضحكـات
ولكنـه ضـحك كالبكـاء !

عظمـة السلطان قلـة

« السلطان الأبله » نمط من الذين حكموا مصر ، وساموها العذاب ، بطيشهم وغبائهم ، وضعف مداركهم العقلية ، وفوق هذا وذاك بما يحوزون من سلطة شخصية ، تحصن أفعالهم الطائشة ، وقراراتهم البلهاء !

وكان « **الملك الظاهر بلباى** » واحـدا من هؤلاء ، بدأ حياته مملوكا عاديا ، ثم ظل يترقى فى السلك المملوكى الى أن تسلطن فى عام ٨٧٢ هـ (١٤٦٧ م) خلفا لسلفه السلطان خشقدم .. وفى سلطنته تزايد نفوذ الأمير **خير بك** ، وكان يتولى منصب « الدوادار الكبير » فتمكن من السيطرة على السلطان بحيث كان لا يتصرف فى أمر الا بمشورته ، فدفعه الى اضطهاد

مماليك سلفه « خشقدم » فقبض عليهم ونفاهم الى السجن بالاسكندرية ·· وصار معهم ـ بتعبير مؤرخى العصر ـ « فى غاية البلية » ·

وكان الأمير خير بك ، مستشار سوء ، أشار على « بلباى » بالتوسع فى نفقة العسكر ، فأعطاهم كل ما فى الخزائن ، فاضطربت الأحوال نتيجة لافلاس الخزانة بعد أن تسلط العسكر عليها يطلبون كل شهر زيادة نفقتهم وأحوال الناس تسوء ، ولما كثرت الفتن ، اجتمع الأمراء والقضاة ، فخلعوا بلباى ونفوه مسجونا الى الاسكندرية ولم يستمر فى السلطنة سوى ٥٦ يوما فقط ·

يصفه « ابن اياس » بأنه كان « أرشل قليل المعرفة ، وكان عمره كله فى غلاسة هو ومماليكه ، وشكله كتدبيره سيىء ·· فجمع بين قبح الفعل والشكل » ·

وقد كثر تندر الشعب المصرى عليه ، وأطلق عليه العوام العديد من الأسماء الهزلية ، وهى طريقة استخدمها المصريون دائما لمقاومة حماقة الحكام وسوء تدبيرهم ·· وقد تركزت السخرية من بلباى ، على غبائه ، وتبعيته المطلقة لدواداره الكبير ، وعجزه عن اتخاذ أى قرار منفصل دون أن يعود الى الدوادار ، حتى انه اذا سئل عن أمر من أمور المملكة يقول :

ـ ايش كنت أنا ·· قل له !

أى قل لخير بك ، وقد سماه العوام لذلك « السلطان قل له » ثم حرفها اللسان المصرى الساخر والعظيم متعمدا الى « السلطان قلة » ·

ضحك ·· كالبكاء

فى العصر المملوكى ، وقعت مصر فريسة فى براثن مجموعة من المرتزقة والحمقى والمجانين ، ومن الظواهر التى انتشرت فى ذلك العصر « جنون السلاطين » التى تبدو لمن يتابعها ويقرأ قصصها فى مصادر تاريخ العصر المملوكى ، وكأنها ظاهرة طبيعية ورد فعل عادى لقسوة قلوبهم ، ودموية سلوكهم ، وأساليب حكمهم التى كانت تزيد من توحشهم ، وتذهب فى النهاية بعقولهم ·

وكان الشعب يدفع الثمن سواء كان السلطان عاقلا أو مجنونا ، ففى الحالتين تزداد قسوته وتتفجر دمويته ، غير أنها فى حالات الجنون كانت تبدو نوعا من الكوميديا السوداء · فعندما مرض الملك « الأشرف برسباى » وطال به المرض ، وحصل له « مالاخوليا » وخفة عقل ونزق ، فأمر بنفى الكلاب الى الجيزة ، وانشغلت مصر كلها بالقبض على الكلاب وطردها الى الجيزة ، وكان كل من ينفى كلبا يتقاضى بعض القروش مقابل عمله هذا ·

ثم أمر السلطان بالمناداة بأن لا تخرج امرأة من بيتها مطلقا ، فكانت الغاسلة اذا أرادت التوجه الى ميتة تأخذ ورقة من المحتسب وتجعلها فى رأسها حتى تمشى فى السوق ·· وبعد أيام أمر السلطان بالمناداة من جديد بألا يرتدى أى فلاح غطاء للرأس ، سواء كان كبير المقام أم لم يكن ·

ثم تصاعد جنون السلطان ، وازدادت تصرفاته طيشا ، فتحولت من نوادر مضحكة الى مآسى مفجعة ، فقد خطر له أن يخلص مصر من الأطباء ، فأصدر أمرا بقتل كل الأطباء ، وبدأ فأمر السياف أن يطيح برأس اثنين من أطبائه المخصوصيين ·· ودار السيف بعدها فى رؤوس أهل الطب ·

واستمر السلطان يصدر كل يوم أمرا مضحكا ·· أو مبكيا ·· وينقضه بعد قليل ، والمصريون يضحكون قليلا ·· ويبكون قليلا ·· ويصبرون دائما ·

زمن بلا قلب

كان العصر المملوكى ، عصرا بلا قلب ، وبقدر ما تبدو ملامحه الآن رومانتيكية ، بقدر ما كان واقعه شديد القسوة ، ميت القلب ، فقد تسلطت على حكم مصر أيامها شراذم من الناس ، بلا ضمير وبلا أخلاق ·

كان السلطان « المؤيد شيخ » واحدا من سلاطين العصر الذين لا حد لقسوة قلوبهم ، وصلت قسوته الى الدرجة التى قتل فيها ابنه ، حتى لا ينافسه على الحكم ، وكان الابن « ابراهيم » معروفا بالشجاعة ، لا يمل من الحرب والقتال ، فمالت اليه قلوب الجنود ، فى الوقت الذى كان والده السلطان يشعر بآلام الروماتيزم الحاد فى مفاصله ، مما جعله يشك فى أن ابنه يتآمر عليه ليحل محله ، وقد عمل القاضى « ناصر الدين ابن البارزى » على زيادة شكوكه ، فقال له يوما :

ــ ان العسكر يقصدون خلعك من السلطنة ويولون سيدى ابراهيم ٠

وببساطة شديدة قدم السلطان لابنه السم فى قطعة من الحلوى ٠

وفى يوم الجمعة التالى ، خطب القاضى « ناصر الدين » فى المسجد ، قاصدا أن ينفى الاتهام الذى أشاعه الناس بأن السلطان قد قتل ابنه فى سبيل العرش ، فخصص الخطبة للحديث عن حزن الرسول لفقده ابنه ابراهيم ، واستشهد بقوله :

ــ ان العين لتدمع ، والقلب ليحزن ، ولا نقول الا ما يرضى ربنا ، واننا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون ٠

فلما سمع السلطان ذلك شق عليه ، وقال فى نفسه : يغرينى على ولدى حتى أقتله ، ثم يقطع قلبى ندما عليه ٠

فلما فرغ القاضى « **ناصر الدين** » من صلاة الجمعة ، دعاه السلطان اليه ، وتبسط معه ثم أمر له بسلطانية سكر ، وكان القاضى أكولا فالتهمها وذهب الى منزله فأقام ساعات ثم مات ٠

كان السكر مسموما ٠

٠٠ زمن بلا قلب ٠

ريمــة المملوكيــة

جاء شـــهر رمضـــان من عام ٩٠٣ هـ (١٤٩٧ م) والناس فى مصر مشغولون بأمر الطاعون ، كان السلطان هو « **الملك الناصر أبو السعادات محمد بن الأشرف قايتباى** » ٠٠ وكان الخليفة هو « **المستمسك بالله أبى الصبر العباسى** » ٠

كان الطاعون قد بدأ فى رجب ، وتزايد فى شعبان ، ثم انفجر ليصبح كارثة لا تبقى ولا تذر فى رمضان ، ولم يعان المصريون ــ فحسب ــ خطر الموت وشر الطاعون ، ولكنهم عانوا أيضا شر المماليك وقسوة قلوبهم ، اذ كانوا يخطفون القماش من الدكاكين ، والبضائع من الأسواق ، ووصل الأمر

الى حد أن أحدهم كان راكبا يوما على فرس فصادف جنازة فى وجهه ، فجفل منها الفرس ، فأوقع راكبه على الأرض فقام ساخطا وضرب الحمالين الذين كانوا يحملون الميت ، ففروا هاربين تاركين ميتهم على الأرض ، فلم يرحمه المملوك وانهال على الجثة ضربا بالسيف ، وتركها ملقاة فى الطريق حتى آخر النهار ٠

وعندما انفجر الطاعون في رمضان فشلت كل وسائل الوقاية التى لجأ اليهـا المماليك لحماية أنفسهم من عدواه ، وتحصين أجسـادهم الحاكمة ضد خطره ، لكن أمر الطاعون استفحل وشاع حتى طال بمخالبه الوحشية الطبقـة العليـا المرفهة فى المجتمـع ، آنذاك عرفوا الله ، وبدأوا يعترفون بخطاياهم ، ويكفرون عن ذنوبهم ، ويوما من رمضـان أصـاب الطاعون أحدهم ، فلما أشرف على الموت أحضر شهودا وأخرج بين أيديهم قماشـا كثيرا وأموالا طائلة تصل الى أكثر من ثلاثة آلاف دينار ، واعترف أمـام الشهود بأنه نهب ذلك من مكان سماه ، ثم قال لغلامه :

ـ امض وائتنى بأصحاب ذلك المال ٠

فمضى الغلام ـ والشهود جالسون عند المملوك المشرف على الموت ـ وأحضر أصحاب المال فسلمهم المملوك ما لهم بحضور الشـهود ، وسألهم المحاللة فلما حاللوه ومضوا ، مات ٠

وفى الليلة نفسها ، مات آخر من المماليك الجلبان ، فوجـدوا عنـده خمسة عشر ألف دينار ، ذكر لغلامه قبل أن يموت أنه نهب ذلك من دكان حدده فى حارة زويلة ، وحمل المال الى خزائن السلطان لكى يرد لأصحابه ٠

فى رمضان ذاك اعترف اللصوص والنهابون والقتلة بما ارتكبوا من معاص ، وخشى المماليك أن يقفوا بين يدى الله بذنوب لا تغسلها كل ميـاه المعمورة ، وارتفعت دعواتهم لله يعلنون توبتهم عن عذاب صبوه على شعب مسكين ، وهبهم أكثر مما يستحقون ، ومنحوه الجوع والسجن وافتقاد الأمن ٠

لكنه فى آخر رمضان ، انحسر الطاعون نسبيا ، وعادت ريمة لعادتها القديمة ، ووقع فى يد السلطان مواطن اتهم بتهمة تافهة ، فأمر بسلخ وجهه وهو حى ، فسلخوه من رأسه الى رقبته وأرخوا جلد رأسه ووجهه على صدره ، وصار عظم رأسه ظاهرا ، وطافوا به فى القاهرة ، ثم علقوه على باب النصر واستمر معلقا الى أن مات ٠

عادت « ريمة » المملوكية لعادتها القديمة ٠٠ وقال الشاعر ابن اياس :

قـد قلـت للطعـــن والمـــاليك
جاوزتمنـــا الحـــد فى النكـــاية
فترفقـــا بالـــورى قليـــلا
فى واحـــد منكمـــا كفـــاية

الاســلام والسلطان

استولى « **الظاهر بيبرس** » على السلطة فى مصـــر بمؤامرة دبرها ، وحافظ عليها بالقسوة والظلم ، وعندما أراد أن يرد عن سلطته خطرا وهميا ، حاقت به مؤامرته ، وذهبت بحياته ٠

وكانت البداية بعد أن هــزم سلفه السلطان « **المظفر قطز** » التتار فى معركة « **عين جالوت** » ، وهى المعركة التى كان « بيبرس » أحــد قادتهــا ، وصاحب نصيب بالغ فى النصر الذى تحقق فيها ، وهو ما دفعه لأن يطلب من السلطان منحه ولاية حلب ، ولكن « قطز » ــ وهو مملوكى يعرف لعبة السلطة جيدا ــ رفض أن يعطى غريمه القوى ولاية بعيدة عن رقابته حتى لا ينتهز الفرصة لكى يدبر المؤامرات ، ويستولى على السلطة منه ٠

غضب « بيبرس » من رفض طلبه ، وحفظها فى نفسه ، فما أن وصل « قطز » الى الحدود المصرية ، وخرج للصيد ، حتى استأذن « بيبرس » على السلطان ، طالبا أن يقبل يده ، شاكرا له أنه وهبه جارية من سبايا التتار ، وكان انحناؤه لتقبيل يد السلطان ، اشارة ــ متفق عليها سلفا ــ مع عدد من المتآمرين ، فخرجوا على « قطز » بسيوفهم ، وبعد دقائق ، كان السلطان قد سقط قتيلا ٠٠ وخلا العرش ، ليصعد بيبرس اليه ، ويصبح سلطانا !

وبعد سبعة عشر عاما من توليه الحكم ، ساور « بيبرس » القلق على سلطته ، وكان المنجمون قد تنبأوا بأن رجلا جليل القدر سيموت فى تلك السنة بدمشق حيث كان يقيم ، ولأنه كان يعتقد بالتنجيم فقد تيقن من صحة النبوءة لأن القمر خسف بأكمله فى دمشق ، وحرصا منه على دفع نبوءة الموت عنه ، دعا الملك « القاهر عيسى الايوبى » الى مجلسه ودار عليهم السقاة بالخمر ، وكان « بيبرس » يشرب فى أقداح خاصة به ، وتظاهر بأنه يريد أن يكرم ضيفه ، فقدم له كأسا من كئوسه ، ودس له السم ، وشرب الضيف القدح ٠٠ وقام السلطان لبعض شأنه وعندما عاد صب له الساقى فى نفس الكأس ، وعلى بقايا الشراب المسموم ، لأنه لم يكن يعلم بتفاصيل المؤامرة ، ولم ينتبه السلطان لما حدث فشرب من نفس الكأس ٠٠ ومات ٠

وكان « بيبرس » يحقد على « **الملك القاهر** » ، لأنه أبلى فى الحملة على بلاد الروم بلاء حسنا جعل الناس تشيد به وتهلج بما فعله ٠ فخاف منه على سلطته ، وتصور أن نبوءة الموت التى ستحيق به ، ستكون تمهيدا لتولى « القاهر » السلطة فى مصر والشام ٠

واثبت « بيبرس » أنه كان ابنــا شــرعيا لدولة المماليك ، التى دافــع سلاطينها عن الاسلام كما لم يدافع عنه أحد ، وليس فيهم سلطان ، الا وهو

فاسق أو عربيد أو ظالم ، والسبب بسيط ·· أن التخفى والتستر الكاذب وراء الدفاع عن الاسلام كان ـ وربما ما يزال ـ الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ بالسلطة والسلطان ·

أولاد النــاس

حتى الآن ما زال تعبير « **أولاد الناس** » يجرى على ألسنة المصريين ، ليشير الى قوم كانوا أعزاء فأذلتهم الأيام ، وكانوا أصحاب سلطة وسلطان فأصبحوا بلا جاه ولا نفوذ ، يشفق عليهم الناس ، ويروون مأساتهم ، وغالبا ما ينسون ما ارتكبوه من جرائم أيام كانوا أصحاب جاه وسلطة وسلطان ·

والى العصر المملوكى تعـود تسمية « **أولاد الناس** » ، فعنـدما يعزل السلطان أو يموت كان مماليكه يطردون من (مقر الحكم) فى القلعـة ، ويفقدون ما كانوا يحصلون عليه من امتيازات ، وتنزل نساء السلطان المعزول أو المقتول من القلعة وعلى وجوههن غبرة ، بعد أن ذهب زمن السلطة والتحكم ، والعزة والكرامة ، والتسلط على الناس ، وآن لمماليك السلطان الميت أن يعودوا الى أصولهم : حينئذ كانوا يسمون « أولاد الناس » أو « مماليك السلطان القديم » ، ويعيشون على مخصصات يقبضونها من بيت المال ، ولا تقاس بما كانوا يحصلون عليه من أموال فى عهد سلطانهم القديم ، فلم تعد الدولة عزيتهم ، يتحكمون فيها ويوزعون أنفسهم على مناصبها ، وينزحون بيت مالها ·

وكانت مخصصات « **أولاد الناس** » هى البند السهل فى ميزانية الدولة ، فاذا وقعت أزمة مالية منع بيت المال عنهم مخصصاتهم ، وانكسرت لهم مرتبات ، فعانوا شظف العيش ، لكنهم كانوا قد تعودوا العبودية ، لذلك كانوا يسكتون ، ومرة قرر أحد السلاطين أن يخرج فى تجريدة ـ حملة عسكرية ـ فصرف لمماليكه نفقة لكل واحد مائة دينار ، ومرتب أربعة أشهر وثمن جمل وثمن مئونة ، ثم أصدر أمرا بأن يلحق « أولاد الناس » بالحملة على أساس أن يصرفوا مرتب أربعة أشهر فقط ، فحصل لأولاد الناس كسر خاطر شديد ·

ورغم تخاذل « **أولاد الناس** » ـ الذين لا تبدو شجاعتهم أو وقاحتهم الا وهم فى السلطة ـ فقد وقفت جماعة منهم للسلطان بسبب النفقة ، فلما وقفوا له ، ساعدهم أحد الأمراء ، على عرض شكواهم ، لكن السلطان لم يهتم بهم ، ولم يرث لحالهم ، وقال :

ـ أنا ما عندى نفقة لهؤلاء ، فالذى لا قدرة له على السفر يرد الأربعة شهور التى أخذها ، وأنا أترك له شهرا ويستريح وتنقطع مرتباته ٠

وما أن قال السلطان ذلك حتى سكت « أولاد الناس » ، وانتهت لحظة شجاعتهم المؤقتة ، وقبلوا ـ وهم صاغرون ـ كل ما جرى فى حقهم ٠

وكان « أولاد الناس » كثيرى الكلام قليلى الفعل ، يهاجمون ما يجرى فى عهد السلطان الجديد حنقا على المكاسب التى ضاعت منهم ، لا معارضة لما يفعله ، فاذا ما زاد السلطان مخصصاتهم مدحوه وشببوا به ، كانوا قد تعودوا ذلة الالتحاق والهتاف لكل سلطة حتى تسقط ـ طالما تعطيهم مخصصات ونفوذ وسلطة ـ وسرعان ما كان الحال يتدهور بهم ، فيحترفون اللصوصية والقتل ، ويدخلون السجون ٠

فى ذلك الوقت كان فى مصر أبناء للشعب لا ينتمون الا له ، ولا يترنمون الا باسمه ، وكان « أولاد الناس » يسمونهم بالدهماء ، ويشنون ضدهم حملات قذرة ، ويسقطون عليهم كل تاريخهم الملوث ، يظنون كل الناس ذيولا وأتباعا ٠٠ لأنهم كانوا طول عمرهم لا يطمحون الا لذلك !!

السلامونى والمنافقين

كان الشاعر المصرى القديم « **جمال السلامونى** » يدخل السجن بسبب حرية الرأى أكثر من مرة ، بل وضرب مرة وشهر به و « جرس » فى القاهرة المملوكية لأنه كشف المنافقين وهاجم المتاجرين بالمبادىء والذين يبيعون دينهم بدينارات قليلة ، لكن جماهير القاهرة التى أحبت السلامونى لم تتركه فى محنته ووقفت معه ضد خصومه ٠

كان « **السلامونى** » شاعرا رقيقا ، لكنه كان يسلط شعره القاسى على أنواع معينة من الناس ، يتهمون الآخرين فى دينهم وهم بلا دين ، وفى ذمتهم وهم بلا ذمة ، وفى وطنيتهم وهم يبيعون أغلى ما فى الحياة بأبخس الأثمان ، وكان يعيش فى عصر السلطان « **قانصوة الغورى** » ، وحدث أن اكتشف جرائم « **لمعين الدين بن شميس** » ، وكيل بيت المال ، تتضمن اختلاسات من الأموال العامة ، فسلط عليه شعره وهجاه هجاء مرا ، واتهمه بقلة الذمة

وفساد الضمير وسرقة أموال الشعب ، وشكاه وكيل بيت المال الى القاضى « **عبد البر بن الشحنة** » ، الذى سارع فحكم فى القضية ، وأمر بأن يضرب « السلامونى » ويعزر .

ولم يسكت « السلامونى » ، اذ كان يعرف أن « عبد البر » الذى غضب لقصيدة هجاء لأنها ـ كما قال ـ خروج عن الأدب ، هو لص يتاجر بالأوقاف ويسرقها ، ويدعى الشرف والتدين ، وهو منهما براء ، ورغم الضرب والتجريس كتب السلامونى قصيدة ضارية ضد القاضى « عبد البر » .

ومما قاله فيها :

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها
ولم لا و « عبد البر » قاضى قضاتها

فاسلام « عبد البر » ليس سوى
بعمته والمقر فى سنماتها

وتعرض السلامونى لسرقة عبد البر للاوقاف فقال :

ألست ترى الأوقاف كيف تبدلت
وكانت على تقديرها وليساتها

كانت القصيدة قاسية اذ كشفت للناس عن القناع الذى يرتديه القاضى مدعيا الاسلام والتقى ، ولأن الملاحظة حقيقية فقد استفزت القاضى ، خاصة بعد أن تواترت القصيدة بين الناس ، فلما بلغ القاضى « عبد البر » ذلك ، شكا « السلامونى » الى السلطان عندما طلع الى القلعة فى يوم التهنئة بأول الشهر الهجرى ، وعرض عليه القصيدة ، فأحضر السلطان « السلامونى » بين يديه ووبخه بالكلام وقال له :

ـ أتهجو شيخ الاسلام بهذا الكلام الفاحش ؟

ولم يستطع السلطان أن يحمى السلامونى من غضبة القضاه ـ وكانت مكانتهم الدينية تعطيهم شيئا من الحصانة ـ فنزل به القاضى الى المدرسة الصالحية وهو مكبل بالحديد ، وتعصب عليه القضاه وقصدوا ضربه بالسياط ... وهكذا تجمع اللصوص ضد السلامونى لأنه قال فيهم كلمة حق ، عرت أكاذيبهم ومتاجرتهم بأقدس الأشياء ، وبرغم أن السلطان كان يعرف أن « السلامونى » شريف ، وأن خصومه ـ رغم أنهم ينافقون السلطان ـ بلا ذمة ولا ضمير ، فقد اضطر للصمت ورضى بعقوبته لعجزه عن حمايته ، فما كاد الناس يتجمعون بدعوة من القضاة ليشهدوا تنفيذ الحكم بضرب السلامونى ، حتى فوجىء عبد البر بالناس يتعصبون للشاعر ، واذا بهم قد ملأوا أكمامهم

بالحجارة ، وهددوا بضرب « عبد البر » ورجمه اذا تعرض للشاعر . وعندما رأى القضاة ذلك أطلقوا السلاموني وفروا هاربين .

الواعظ المجهول

فى شهر رمضان من عام ١١٢٣ هـ (١٧١١ م) حدثت أغرب **ثورة فى تاريخ القاهرة :**

كان الحكم المملوكى ينوء بكلكلة على الشعب المصرى ، وكانت سنوات التخلف والقهر قد انتهت بالشعب الى ظواهر غريبة . مظهرها الأساسى : الهروب فى البدع الدينية التى لا تنتمى للدين فى شىء . وذات يوم حط فى القاهرة رجل غريب جلس « **بجامع المؤيد** » يعظ الناس ، ويهاجم ما يفعلونه من زيارة لأضرحة الأولياء ، وتقبيل لأعتابهم . وقال ان فعل ذلك كفر يجب على الناس تركه ، وعلى ولاة الأمور السعى فى ابطاله . وندد بما ورد فى بعض الكتب من القول بأن بعض الأولياء أطلع على اللوح المحفوظ ، اعتبره كفرا لأن الأنبياء لا تطلع على هذا اللوح ، فكيف يطلع عليه من هم أدنى منهم ؟

واقتنع بعض خاصته بما يقول ، فخرجوا بعد صلاة التراويح ، ووقفوا بالنبابيت والأسلحة ، يتصدون للبدع الدينية ، وأثار فعلهم هذا غضب آخرين ، فذهب هؤلاء الى العلماء بالأزهر وأخبروهم بقول ذلك الواعظ ، وكتب علماء الأزهر فتوى بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت ، وأن الواعظ المجهول كافر ويجب على الحاكم أن يزجره . وتصدى لهم الواعظ ، وطالبهم بمناظرته فى مجلس قاضى العسكر . وخرج الواعظ المجهول فى جمع من المصريين يزيد عن ألف نفس ، ومر من القاهرة الى « بيت القاضى » مطالبا بالمناظرة ، ولم يحضر العلماء ، ونتيجة لضغط الجماهير التى تطالب بالمناظرة ، كتب لهم القاضى فتوى يؤيد بها الواعظ ويرفض فتوى العلماء .. وعاد الجمع سعيدا وراضيا .

وفى اليوم التالى اختفى الواعظ المجهول .. ولم يظهر فى جامع المؤيد ، وعلم الناس أن القاضى منعه من الوعظ ، فخرج المصلون من الجامع الى الديوان مطالبين باطلاق سراح الواعظ ، الذى أحبوه ووثقوا بما يقول ، ولم

ينصرفوا الا وقد أخذوه معهم الى جامع المؤيد ، فصار يعظهم ويطالبهم بالانتصار للدين وقمع الدجالين ٠

ولأن نظاما كالنظام المملوكى ، لا يمكن أن يحمى نفسه الا بالدجل الدينى ، فقد سارع والى القاهرة بانزال الجنود الى الشوارع ، لكى يرهب الناس وأعاد القبض على الواعظ وتقرر نفيه من البلاد ٠ وأخذ الجنود يطاردون أتباعه فضربوا بعضهم ونفى أكثرهم خطرا ، وعاد الدجالون ينشرون خرافاتهم فى حماية الوالى ٠

عن النجوم والقمر

فى زمن السلطان « **قانصوة الغورى** » تكاثرت موجات الغلاء ، وبرغم كل المحاولات التى كانت تبذل للتغلب عليها فقد كانت تعود لتظهر ، ذلك أنها كانت تنجم أصلا من مضاربة التجار واحتكارهم للأقوات ، وسوء توزيع الثروة ، وكانت تلك أشياء ثابتة فى مصر المملوكية ٠

هل شهر رمضان من عام ٩١٧ هـ (١٥١١ م) وفى مصر أزمة فى الوقود ، اذ عز وجود الحطب وأخذ الناس يستعملون روث الحيوانات وقش الغيطان ، ورغم ذلك استمرت الأزمة واستحكمت ، حتى تعطلت مطابخ الأمراء والشهر هو رمضان ، حيث تزداد الحاجة للوقود ٠

وفى الشهور التالية تزايدت الأزمات وتفاقمت ، وزاد الطين بلة أن ظهر الطاعون فى مصر فتجمع على الناس الفقر والغلاء والجوع والطاعون — كما يقول مؤرخ العصر ابن اياس — وفكر السلطان أن يوفر لبيت المال بعض الموارد ، فأمر بأن يؤخذ لحساب الخزينة قسما من تركة كل من يموت بالطاعون ، محاولا أن يدفع بما يتجمع من أموال الموتى ، كارثة الطاعون والغلاء والمجاعة ٠

ورغم كل محاولاته ظل الغلاء منتشرا ٠٠ ويوما نزل السلطان من القلعة — قصر الحكم — وتوجه الى عمارة كانت تبنى له فى المطرية ، فتفقد عمليات البناء ، وبعد أن انتهى عاد الى القاهرة من باب النصر ومر فى شوارعها كما هى عادته ، وتوجه الى مدرسته التى كانت قد تشققت وآلت للسقوط فأمر

يهدمها عن آخرها ، وفى طريق عودته تجمع الناس حول موكبه ، ويقول « ابن اياس » : ان العوام أسمعوه الكلام المنكى بسبب تشحيط الخبز وغلو الدقيق ، وكان القمح الجديد قد وصل ، وأشيع بين الناس أن السلطان يشترى القمح ويرسله الى الشام التى كان بها غلاء عظيم ، حتى قيل أن سعر اردب القمح فيها قد وصل الى سبعة جنيهات ، فكان السلطان يتاجر فيه ، فانشحطت القاهرة من الخبز والدقيق بسبب ذلك ، وكادت أن تكون غلوة برغم وجود القمح الجديد ، فلما شق السلطان من القاهرة تسببت عليه العوام بالكلام ، وقالوا له جهارا :

ـ الله يهلك من يقصد الغلاء الى المسلمين ٠

وسمع السلطان ذلك فتنكد طوال اليوم ، وطلع الى القلعة من بين الدروب ولم يشق من باب زويلة ٠

على أن نكد السلطان انتهى بمفاجأة لم يكن يتوقعها الناس ، فبعد ثلاثة أيام نزل ناظر الحسبة ـ أى وزير التموين ـ يعلن الأوامر الجديدة التى أصدرها السلطان وهى تقضى بابطال عدد كبير من الضرائب وخاصة الضرائب على الغلال ، ولأن ارتفاع كل الأسعار كان نتيجة لارتفاع أثمان القمح فقد انتهت الأزمة ، وارتفعت أصوات الناس بالدعاء للسلطان ، وانطلقت له النساء بالزغاريد من الطيقان ٠ وقال البعض ان ما دفع السلطان لفعل ذلك لم يكن الكلام « المنكى » الذى سمعه ، بل لأنه رأى فى المنام نجوما تتساقط من السماء ، تبعها سقوط القمر ، وفسر ذلك بأن النجوم هى العسكر الذى يموت بالطاعون ، والقمر هو شخصه الكريم ٠٠ ودفعه هذا الى اظهار أسباب العدل وابطال المظالم ٠٠ قبل أن تسقط النجوم ٠٠ ويسقط القمر ٠

اللعبة والمأساة

بدأت دولة المماليك بلعبة ، وانتهت بمأساة : لعبة تولت خلالها « **شجرة الدر** » السلطنة المصرية ، ثم ماتت ضربا « بالقباقيب » ، وظلت ملقاة فى فناء القصر حتى سرق اللصوص تكة سروالها ، وكانت مضفرة بخيوط من الذهب ومزينة باللآلىء على ما يقول المؤرخون ٠

أما المأساة فقد حدثت فى « مرج دابق » ، عندما خرج السلطان المملوكى « **قانصوة الغورى** » ليواجه الجيوش العثمانية الغازية بقيادة « **سليم الأول** » وكان طبيعيا ألا ينتصر السلطان وجيشه مجموعة من المرتزقة الذين لا يهمهم فى شىء أن تنتصر مصر أو تهزم ، بقدر ما كان يهمهم أن يعيشوا لنفسهم ، وأن يستنزفوا ثروات الشعب ، ليشبعوا بها شهواتهم ·

وفى المعركة لعب العدو بكل التناقضات بين فرق المماليك ، وبما بينهم من صراع على العرش ، وشجار على المرتبات والأرزاق ، شغلهم عن الاهتمام بالوطن ، الذى لم يكن يعنيهم من أمره الا أنه مصدر للنهب ووسيلة الارتزاق ، وهكذا نجح جواسيس العثمانيين فى توسيع شقة الخلاف بين أمراء المماليك حتى ظن كل فريق أن خطة الحرب وضعت لالتهامه لحساب الفريق الآخر ، وكان « خاير بك » قد تواطأ مع الغزاة فانسحب هاربا وكسر ميسرة الجيش ·· ذلك انه كان ــ بتعبير ابن اياس ــ « موالسا » مع ابن عثمان ·

ووقف السلطان الغورى وحيدا وقد هرب العسكر كلهم ، وهو يصيح فى الأمراء والمماليك :

ــ يا أمراء ·· هذا وقت المروءة ·· هذا وقت النجدة ·

فلم يسمع له أحد قولا ·· وغلت أيديهم عن القتال ، وخاف واحد ممن بقوا مع السلطان من الأمراء أن يصيبه مكروه ، فدعاه للهرب بنفسه ، فلما تحقق السلطان من الهزيمة ، أصيب بشلل فى وجهه ، فطلب ماء ، فأتوه به فى طاسة من ذهب ، وما أن شرب حتى هم بالسير بحصانه ، فمشى خطوتين وانقلب عن الفرس ، وانطفأت ــ كما يقول ابن اياس ــ فى قلبه جمرة نار ، ومات من شدة قهره ، وقيل فقئت مرارته ، وطلع من حلقه دم أحمر ·

وبموت الغورى ، انتهت دولة المماليك ، ووقعت مصر تحت أقدام الغزو ، بسبب المماليك الذين « لم يجذبوا سيفا ولم يهزوا رمحا » لأنهم « لم ينظروا أبدا فى مصالح الناس بعين العدل والانصاف » ·

اللعب بالسيف

كان كل الذين أتو لغزو مصر ، مجموعة من البرابرة ، قساة القلوب ، غلاظ الأكباد ، يفتقدون دائما لأى حس انسانى مهما كان بسيطا ·

وفى سنوات الغزو ، كان الشعب المصرى يعانى الأمرين من فظاعة أساليب المحتلين وحقارة نفوسهم · فعندما دخل العثمانيون مصر ، أحالوا حياة المصريين الى جحيم ، ويصف « **ابن اياس** » ما فعله الغزاة ، فيقول أن « العثمانية طفشت فى جميع الحارات والأماكن ، وحطوا غيظهم فى المعبيد والغلمان والعوام ، وغيرهم من الزعر ، ولعبوا فيهم بالسيف ، وراح الصالح بالطالح ، وصارت جثثهم مرمية فى الطرقات من باب زويلة الى الرميلة ، ومن الرملية الى الصليبة الى قناطر السباع (السيدة زينب الآن) » ·

ويقدر ابن اياس من قتل فى هذه الواقعة فوق العشرة آلاف انسان ، فى الأيام الأربعة الأولى من وصول قوات الغزو الى القاهرة ·

ليس هذا فقط بل ان طوائف العسكر العثمانى ، هجمت على الناس فى بيوتهم وأخرجوهم منها ، وسكنوا بها ، حتى أصبحوا كالجراد المنتشر من كثرتهم ، وكانوا يقتحمون أبواب البيوت ونوافذها بخيولهم ، فضيقت الناس هذه الأبواب ، حتى أصبحت كالطاقات الصغيرة ، وبرغم هذا استمر الهجوم العثمانى ، وهدم الجنود ما ضيقه الأهالى ·

وطاف السلطان **سليم العثمانى** بالسيف فى رقاب أمراء المماليك ، فضاع مجدهم ، وأصبحت جثثهم ملقاة فى الطرقات تنهشها الكلاب بالنهار والضباع والذئاب بالليل ، وكانت زوجاتهم تدفعن أموالا للحراس لكى تستردن جثثهم ، حتى تتمكن من دفنهم ·

وكانت تلك نهاية طبيعية لدولة المماليك ، التى لم تهتم أبدا سوى بأن تعيش متطفلة على عرق المصريين وجهدهم حتى وقعت مصر تحت أقدام الغزاة بسبب اهمالهم وترددهم وخيانة بعضهم ·

الشيخ أبو السعود

جاء شهر رمضان من عام ٩٢٢ هـ ·· والناس فى مصر على غير ما يرام ·

فى منتصف رجب ، مات « **قانصوة الغورى** » آخر سلاطين المماليك تحت سنابك الخيل ، أصابه شلل فجائى ، وذهبت به سكتة قلبية ، وهو يرى

بعيني رأسه ، كيف أضاعت الخيانة سلطنته ، كما ذهب بها جبن الأمراء وترددهم ، وخوفهم على ما يملكون من متع ونساء وثروات ٠

وكان ما حدث له ، أول الفواجع من هذا النوع ، ذلك أن سلطاننا لم ينكسر انكساره ، ولم يهزم هزيمته ، ولم يمت تلك الميتة الغريبة ، التى تجمع بين المأساة والملهاة ٠٠ وبين الدمعة والضحكة ٠

وكانت جيوش السلطان العثمانى **سليم شاه** قد اجتاحت خلال شهر شعبان حلب وبقية البلاد الشامية الى نهر الفرات ، وسقطت ثلاث عشرة من القلاع التابعة للسلطنة المصرية ، وتلقت القاهرة أنباء الهزيمة بخليط من الذهول والبكاء وقليل من التشفى ٠

وفى الأيام الأولى من رمضان ، عادت الى القاهرة فلول الأمراء المهزومين ، وملك بعض الخونة الجبناء منهم الشجاعة لكى يعودوا فى الوقت الذى لم يملكوها ليحاربوا أو يموتوا ٠ وكان منهم « **قانصوة الأشرفى** » نائب قلعة حلب : واحدة من أقوى القلاع المصرية سلاحا ورجالا وعتادا ، ومع ذلك سلمها الأشرفى ببساطة ، وعاد الى القاهرة ليبحث عن منصب أو ليطمئن على بيت أو مال أو حريم ٠

وكان القائم بالأمر فى القاهرة أيامها هو الأمير « **طومان باى الثانى** » نائب السلطان ، وقد أمر بحبس الخونة والجبناء ، وطالبه الباقون بتولى السلطنة ، فرفض ذلك ، وألحوا عليه ، فأصر على الرفض ، فذهبوا معه الى العارف بالله « الشيخ أبى السعود » وعرضوا عليه المشكلة ، وقالوا : ان السلطان الغورى قد مات ، ونصف السلطنة قد وقع فى أيدى الغزاة ، ولا يمكن أن تظل البلاد بلا سلطان ، وطومان باى يرفض السلطنة ٠٠ فدعاهم الشيخ الى القسم على المصحف ، بأنهم اذا سلطنوه ، لا يخونونه ولا يغدرونه ولا يخامرون عليه ، فحلفوا على ذلك ٠

وكان الشيخ قاسيا ، فاشترط على الأمراء ألا يعودوا الى ما كانوا عليه من ظلم الرعايا وأن يبطلوا جميع ما أحدثه الغورى من مظالم ، وان يلغوا عددا من الضرائب غير الضرورية ٠ وختم حديثه لهم بقوله :

ـ ان الله تعالى ما كسركم وذلكم ، وسلط عليكم ابن عثمان ، الا بدعاء الخلق عليكم فى البر والبحر ٠

وصاح الأمراء :

ـ تبنا الى الله تعالى من اليوم عن الظلم ٠

وانفض المجلس ٠٠ ولكن الظلم لم ينفض ٠

الجسد فى المشنقة

على باب زويلة شنق السلطان « **طومان باى** » آخر سلاطين المماليك ، وبموته انتهت ـ الى حين ـ آخر حلقات المقاومة الرسمية ضد الغزو العثمانى وتحمل الشعب المصرى مهمة القتال دفاعا عن استقلاله وحرية أرضه ٠

وعندما وقع « **طومان باى** » فى أيدى السـفاحين الأتراك ، أعجب السلطان **سليم العثمانى** بشجاعته ، ولم يكن فى نيته قتله ، وعندما وردت الأخبار الى القاهرة بوقوع السلطان أسيرا فى يد الغزاة لم يصدق الشعب ذلك ، وسرت الاشاعات بأنه ما زال هاربا ويستعد للمقاومة ، واسـتفزت الاشاعة السلطان العثمانى الذى سارع باعلان سقوط « **طومان باى** » فى الآسر ليمنع المصريين من التكتل والتجمع للحرب ضد الغزو ، وأمر بأن يمر السلطان الأسير فى شوارع القاهرة راكبا حمارا صـغيرا وبنفس الملابس التى كان يرتديها عندما وقع فى الأسر ، وأشيع أن « **سليم الأول** » ينوى نفى « **طومان باى** » الى مكة وليس فى نيته قتله ٠

فيما بعد عدل الغازى العثمانى عن فكرته ، وكان وراء عدوله عن ذلك ، أنه أحس بأن بقاء « **طومان باى** » حيـا يستفز الرغبـة فى المقـاومة لدى المصريين ، ويدفعهم للتجمع والتربص بالغـزاة ، كان يريد أن تستسلم كل رموز المقاومة لكى يفقد الشعب القدرة عليها نهائيا ، وهكذا تقرر أن يعدم « **طومان باى** » ، ومر موكب السلطان الشاب فى شوارع القاهرة ، وعلى طول الطريق كان يسلم على الناس ، وعندما وصل الى « **باب زويلة** » أنزلوه عن فرسه وأرخوا له الحبـال ، ووقف حوله الجنـود العثمانيون بالسيوف المسلولة ، ولما تحقق أنه سوف يشنق ، وقف على أقدامه على باب زويلة وقال للناس الذين حوله :

ـ اقرأوا لى الفاتحة ثلاث مرات ٠

ثم بسط يديه وقرأ الفاتحة ثلاث مرات ، وقرأت الناس معه ، وبهدوء قال للسياف :

ـ اعمل شغلك ٠

ووضعوا الخية فى رقبته ، ولكن الحبل انقطع به ثلاث مرات ، فسقط على باب زويلة ، فلما شنق وطلعت روحه ، صرخت عليه الناس صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف ٠ فقد كان شابا حسن الشكل كريم الأخلاق ، لم يتجاوز الرابعة والأربعين من عمره ، يقول ابن اياس عنه انه كان « **بطلا شجاعا تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب بنفسه ، وفتك فى عسكر ابن عثمان وقتل منهم ما لا يحصى وكسرهم ثلاث مرات وهو فى نفر قليل من**

عسكره ، **رفض أن يظلم أو يفرض مظالم** » ، وعندما أغراه مستشاروه بذلك قال :

– ما أجعل هذا مسطرا في صحيفتي ٠

وكان جسد « **طومان باى** » معلقا يتأرجح فوق « **باب زويلة** » لكن روح مصر المقاومة لم تتأرجح أبدا ٠

الباشــا والشــيخ

لم تعرف مصر نظام مشيخة الجامع الأزهر قبل الفتح العثمانى ، وكان العثمانيون يهتمون اهتماما خاصا بالوظائف الدينية ، ولما كان الجامع الأزهر يحتل مركز الصدارة بين المساجد والمعاهد الاسلامية ، ويضم جمهرة كبيرة من علماء الاسلام من كافة البلاد الاسلامية ، فقد كان طبيعيا أن يكون لشيخه مكانة خاصة ٠

ومن الشخصيات التى يرجح انها تولت هذا المنصب فى بواكير نشأته الشيخ « **شهاب الدين احمد بن عبد الحق السنباطى** » وكان واعظا بالأزهر ، ارتفع صيته ، ونبه ذكره ، ولم يقبل الناس على واعظ قبله كما أقبلوا عليه ، ويقول عنه معاصره الامام الشعرانى « انه كان اذا نزل من فوق الكرسى يقتتل الناس عليه » ، ويذكر أنه كان متفننا فى العلوم الشرعية ، وله باع طويل فى معرفة مذاهب المجتهدين ، وان شهرته تعدت حدود مصر ، لتصل الى الشام والحجاز واليمن ، وحتى أستانبول ٠

وكان **الشيخ السنباطى** شجاعا فى الحق ، لا يخشى سطوة حاكم ولا جبروت متسلط ، وقد حدث أن عين السلطان العثمانى « داود باشا » واليا على مصر ، فتصدى الشيخ لموكب الوالى وقال له أمام الناس :

– انك رقيق ولا يجوز لك أن تتولى الأحكام ، وأحكامك باطلة ما لم تعتق ٠

وغضب الوالى غضبا شديدا ، وهم بضرب عنق الشيخ بالسيف ، لولا أن تدخل الجنود ورفضوا تنفيذ أمره باعدام الشيخ ، بل وأخذوا جانبه ،

وكادت تكون فتنة ، واتسعت رقعتها فأرسل الباشا نبأها الى السلطان الذى اقتنع باعتراض الشيخ ، فأنعم على الوالى بالعتق وأرسل يشكر الشيخ .

وسعى الباشا الى **الامام السنباطى** ، فقبل أقدامه ، وحاول أن يسترضيه بمال أو هبة ، فلم يقبل منه شيئا ، ومن يومها أصبح لا يرد للشيخ رأيا ولا شفاعة .

وقد مات الشيخ بعدها بقليل ، وقال الامام الشعرانى فى ذلك « ولما مات اظلمت مصر لموته وانهدم ركن عظيم من الدين » .

الأمــير « خاين بك »

فى معركة مرج دابق خان الأمير المملوكى « **خاير بك** » الجيش المصرى ، وانسحب بفرقته ــ بناء على اتفاق سابق مع الغزاة ــ تاركا قلب الجيش مكشوفا أمام فرسانهم ، وهو ما أدى الى هزيمة الجيش المصرى فسقطت مصر تحت أقدام العثمانيين .

ومكافأة له على خيانته عينه السلطان العثمانى **سليم الأول** حاكما على مصر المحتلة ، فسار فى الناس سيرة سيئة ، وسماه العوام « **خاين بك** » وعانى حصارا نفسيا رهيبا نتيجة لمعاملة الناس له ، الذين لم يغفروا له تواطؤه مع الغزاة ، وخيانته للوطن ، فتحول الى سفاك شرس حتى وصفه معاصروه بأنه كان جبارا عنيدا ، سفاكا للدماء ، قتل فى مدة ولايته ما لا يحصى من الخلائق ، وشنق رجلا لأنه سرق ثمرة فاكهة من حديقة له ، وشنق فى مدة حكمه ــ وهى خمس سنوات ــ ما يزيد عن عشرة آلاف انسان ، وأغلبهم راح ظلما .

وكان من المعتاد ، عندما يصاب الأمير المملوكى بمرض الوفاة ، أن يبر بالناس ، حدث هذا فى عصر الأشرف قايتباى ، وفعله أيضا قانصوة الغورى الذى أصيب بعارض فى عينيه ، وخشى الاصابة بالعمى ، فجاد على الناس ، وأفرج عمن بالسجون .

وعندما دخل « **خاين بك** » فى النزع الأخير ، أعتق جميع جواريه وعبيده ، ومماليكه ، وأمر بتوزيع عشرة آلاف اردب قمح على الفقراء

والمجاورين ، وأفرج عن المحابيس رجالا ونساء ، ولم ير الناس فى أيامه أحسن من تلك الأيام • وتحول الخائن الذى باع بلده ، والذئب الذى ابتكر وسائل للتعذيب جعلت قلب العصر – على قسوته – يرتجف خوفا ، تحول الى انسان ضعيف ، جاد مع الناس ، وبر بالفقراء والمساكين ، وقال « ابن اياس » ان ذلك لم يفده بشيء ويأبى الله ما أراد •

بعد موته نزل حريمه من القلعة ، على وجوههن غبرة ، وهن فى غاية الذل ، وعلق أحد مؤرخى العصر على ما فعله فى أواخر أيامه ، فقال « وغالب هؤلاء المماليك لا يعرفون الله الا وهم تحت الحمل اذا جرت عليهم مصيبة ، يجودون فى حق الناس ويفعلون الخير » •

المجنا كارتا المصرية

برغم كل مظالم الحكم المملوكى استمر الشعب المصرى يقاوم سلطتهم ، ويفرض عليهم مطالبه ويجبرهم أحيانا على الخوف منه ، ووضعه فى الاعتبار •

ففى عام ١٧٩٥ م رفع فلاحو احدى قرى بلبيس شكوى الى الشيخ « **عبد الله الشرقاوى** » شيخ الجامع الأزهر من « **مراد بك** » و « **ابراهيم بك** » وكانا يتقاسمان السلطة فى مصر أيامها فأحال الشيخ الشكوى اليهما وطلب منهما أن يعملا على منع « **الألفى** » من التعرض للفلاحين والحاق الأذى بهم ، وضاعت الشكوى كالعادة فى ردهات القصور المملوكية •

واستفز استمرار الاضطهاد وتجاهل الشكوى شيوخ الأزهر • فعقد « **الشيخ الشرقاوى** » اجتماعا فى الأزهر حضره العلماء وتبادلوا الرأى فى المسألة • ثم قرروا المقاومة بالقوة والاعتصام بالأزهر واغلاق أبوابه عليهم ، ودعوة الناس لاغلاق الأسواق والحوانيت استعدادا للقتال • وفى الليلة التالية بدأ الاعتصام وقضى العلماء ليلتهم بالأزهر • وتجمع الناس أمامه يعلنون باحتشادهم تأييدهم للعلماء فى مطالبهم •

ونتيجة للمناقشات الموسعة التى جرت بين الشيوخ وممثلى الشعب ، تجاوزت الحركة أهدافها ، لتصبح لها أهدافا أشمل وأوسع ، فطالب المجتمعون

بتنفيذ ثلاثة مطالب أولها أن يكف الأمراء عن فرض الضرائب جزافا ، فلا تفرض الضرائب الا اذا أقرها ممثلون عن الشعب هم المشايخ ، وأن تنفذ أحكام المحاكم التى يصدرها القضاة ، أما المطلب الثالث فكان أن يكفل الأمراء حرية الناس ، بحيث لا تمتد يد ذى سلطان الى فرد من الأمة الا بالحق والشرع ٠

وعندما شعر الأمراء بقوة الحركة حاولوا التنصل من مسئولية كل هذه المظالم ، فبعث « **مراد بك** » للمعتصمين يخطرهم بأنه برىء مما حدث ، وأن المسئولية كلها تقع على عاتق شريكه فى الحكم « **ابراهيم بك** » ٠ ونزل الوالى العثمانى من مقره بالقلعة الى المدينة فاجتمع بالأمراء ٠ وقرروا ضرورة ايجاد حل حاسم لهذه المشكلة قبل أن يفلت الزمام من أيديهم وتشتعل نار الثورة ، ودعوا المشايخ : الشرقاوى والبكرى والأمير وعمر مكرم للاجتماع بهم ٠ واصر المجتمعون على مطاليهم ٠٠ وأضافوا الى هذه الشروط شرطا هاما ، هو أن يحرر قاضى الشرع حجة شرعية تتضمن هذه المطالب ويوقع عليها الأمراء والوالى ، لتكون وثيقة لحقوق المصريين يتم التحكيم بينهم وبين السلطة على أساسها ٠

ووقع الأمراء الوثيقة ٠ وكانت كما وصفها الاستاذ « العقاد » ماجنا كارتا مصرية ، تشبه وثيقة اعلان الحقوق التى فرضها الشعب الانجليزى على ملوكه فى القرن السادس عشر ٠

« العيال » على العرش

خلال العصر المملوكى ، حكم « العيال » مصر ما يزيد عن نصف قرن ٠٠ حدث ذلك عندما كان السلطان يستخلف ابنه الطفل على عرشه ، ويموت تاركا له العرش ، فيحكم عاما أو عامين ، يذيق فيها الشعب العذاب بتصرفاته الطائشة وسياسته الصبيانية ٠ وعلى امتداد الحكم المملوكى ، تولى سبعة عشر طفلا حكم مصر ، منهم ستة تقل أعمارهم عن العاشرة ، والباقى « تحت ١٦ سنة » ٠

وكان بعضهم صغيرا الى درجة الضحك ، ومنهم **الملك المظفر احمد** ، الذى تولى الحكم وعمره عشرون شهرا ، فاعترضت البلاد على جلوس طفل رضيع

على عرش السلطنة ، ولكن « **الأمير ططر** » ـ الذى كان يحكم من خلف الستار ـ استمر في اتمام مراسيم تنصيب السلطان الطفل ، وأجلسه على سرير الملك ، وحين بدأ الأمراء يقدمون له فروض الولاء بكى « الملك » لأن مرضعته لم تكن بجواره ، فاستدعوها ، وأخذته فى حجرها ، والأمراء ينحنون بين يديها يبايعون الملك الطفل بالسلطنة ومولانا نائم كالملائكة فى أحضان المرضعة ٠

على أن بعض هؤلاء السلاطين الأطفـال كان ولدا شـقيا ٠ ومنهـم « **الناصر فرج** » الذى تسلطن وهو فى الثانية عشرة من عمره ، ومع ذلك كان يشرب الخمر الى نصف الليل ، ثم يخرج الى الحوش السلطانى بالقلعة وهو سكران ، فيستعرض المماليك الذين فى السجن ، ويطلب سكاكين حامية يذبحهم بها ، ويدوس على وجوه بعضهم بأقدامه ، ثم يبول عليهم أو يصب النبيذ على أجسادهم ٠ ويروى ابن اياس فى تاريخه : أن الناصر فرج ذبح من أولئك المساكين نحوا من ألفي مملوك ، بمتوسط عشرين فى الليلة الواحدة ٠

وتسلطن « **الناصر محمد بن قايتباى** » وهو فى الرابعة عشرة ، وكان مراهقا شريرا ، منع الناس من الخروج ليلا فى الشوارع ، وعاقب النساء ، بقطع أجزاء معينة من أجسادهن ، ينظمها فى خيط كالمسبحة لتكون دليلا على فتوته الجنسية ، ووصل به الأمر أن هجم يوما على جارية ، فقيدها ثم شرع يسلخ جلدها عنها كالجزارين ، وهى حية تصرخ وتستغيث ٠ وجاءت أمه على الضجة ومعها رجال القصر ، وأخذوا يستشفعونه ليترك الجارية ، فلم يستجب لأحد ، وظل مستمرا بانهماك فى عمله ، وعندما أتم سلخ الجارية حشا جلدها بثياب كثيرة ، وخرج لمن كانوا بانتظاره فعرض عليهم فنه وفاخر أمامهم بأن الجزارين يعجزون عن اتقان عملية السلخ كما اتقنها ٠

وكم قاست مصر من الجلادين : صغارا وكبارا ٠

يحكمون بالأكذوبة

كان النظام المملوكى نظاما كاذبا ، وقحا فى أكاذيبه ، منح سلاطينه أنفسهم ألقابا تدعو للضحك الى حد البكاء ، لتناقضها مع واقع حكمهم ، فما أكثر الذين منحوا أنفسهم لقب « **الملك العادل** » فلم تر مصر ظلما كما رأته فى

أيامهم ، وسمى بعضهم نفسه « **الملك المظفر** » وهو الذى لم ينتصر فى معركة ، أما لقب « **الناصر لدين الله** » فقد تسمى به كثيرون ليس لهم بالله من سبب ، طبقت شهرتهم فى الفجور واللصوصية الآفاق ، وزكمت فضائحهم الأنوف ٠

عندما تولى « **اسماعيل بن الناصر قلاوون** » الحكم ، منح نفسه لقب « **الملك الصالح** » وكان من آيات صلاحه ، أن تفرغ لشئون القصف واللهو ، وأمضى حكمه بين حفلات الغناء والطرب ، لا يفيق من الخمر ، ولا يغادر أحضان النساء ، وفى معظم أيام الاسبوع كان يخـرج فى نزهـات خلوية طويلة ، الى سرياقوس أو الجيزة ، ومعه ما لا يقل عن مائتى امرأة غير الخدم والحشم والمطربين ولوازم الأنس والسرور ٠

ومن فرط « صلاحه » تقررت الرشوة فى عهـده ، وأصبحت تقليـدا رسميا ، فأنشأ لها ديوانا خاصا ، يعرف بديوان البذل « أو البرطيل » ، ومهمة هذا الديوان أن يأخذ من الناس الرشاوى ثمنا للوظائف أو لقضاء الحاجات ٠ وأصبح من العادى فى عهده أن يتوجه الناس الى « ديوان البرطيل » ليدفعوا « المعلوم » ، فتقضى حاجاتهم ، أو تصدر أوامر بتعيينهم فى الوظائف الكبيرة ، وفيما بعد انتشرت الرشوة حتى أن الأمير « **بلباى الاينالى** » اشترى حكـم ولاية صفد بعشرين ألف دينار ، ثم طمع لتولى العديد من الوظائف ، فدفع برطيلا جديدا ، وأصبح بذلك قائدا للجيش وناظرا للوقف ، ونائبا للسلطان بدمشق ٠

ودخل رجال الدين هذا المزاد الغريب لشراء مناصب القضاء ، فكانوا يزايدون على كل منصب يخلو ٠ ووصل الأمر الى أن القاضى « **رضى الدين الغزى** » اتفق على دفع تسعمائة دينار ذهبى ليتولى قضاء دمشق ، فدفـع مقدم الثمن ، وكتب على نفسه سندا بالباقى ، وهكذا قننت الرشوة ، فأصبحت شرعية يقرها رجال الدين ، ويتقاضونها ، ويسجلون ذلك على أنفسهم كتابة ٠

كما كان الشعب يدفع ثمن « عدل » العادلين ، وهزيمة المظفرين ، فان « تقنين الرشوة » جعل الشعب يدفعها من قوته وبالربح المركب ، فالموظفون يشترون المناصب بالمال ، ويجمعونه ــ مع أرباحه ــ من الناس بعد أن تسند اليهم الوظائف ٠

ولكن هذا كله قد قوض النظام المملوكى ٠٠ اذ ظل بعض الناس يشترون الوظائف الصغرى ، ثم المتوسطة ، الى أن نجح بعضهم فى شراء منصب نائب السلطان ، وأصبحوا فى المكان الذى أتاح لهم أن يطردوا السلطان عن العرش ، ليحلوا محلـه ٠٠ فالذين يحكمون بالأكذوبة ٠٠ يفقدون السلطة بنفس الأكذوبة ٠

مرة واحدة فى العمر

لم يعرف أحد من سلاطين المماليك الله الا فى المآزق والخطوب · فعندما يكون السلطان قويا ، فانه لا يهتم بصـلاة أو بصوم ، ولا يعنى بالفقـراء ولا بالشعب !

فعندما كان « **السلطان قلاوون** » قويا ، اسـتخدم نفوذه ليضغط على أحد أمرائه ، وهو الأمير « **كتبغا المنصورى** » ، لكى يطلق زوجته ، ذلك أن « **على** » ابن السلطان كان قد رآها فى احدى الحفلات فأعجبه جمالها ، وكاد يهلك من الغم عندما اكتشف أنها متزوجة ، وعرف والده بالأمر فسعى لتطليقها من زوجها ، وتم له ما أراد ·

وبعدها بسنوات فاجأ المرض « **على** » بعد أكلة دسمة ، واشتد عليه الاسهال وانتشرت الشائعات بأن « **خليل** » الابن الآخر للسلطان ، هو الذى دس السـم لشقيقه ، وكان هذا من الأمور الطبيعية فى العصر ، واهتـز « **قلاوون** » لما أصاب ابنه ، فدعا بعض الصوفيين المعروفين بالصلاح والتقوى ليلتمسوا له الشفاء من الله ، ورفض الشيخ « **محمد المرجانى** » دعوته فبعث اليه بمبلغ من المال لكى يقيم حضرة ذكر ، يطلب فيها الفقراء والصوفيون ولد السلطان من الله ، فقال الشيخ المرجانى للرسول :

ــ سلم على السلطان وقل له أن أحدا لا يستطيع أن يطلب من الله انسانا اختاره لجواره ·

ورد اليه ماله ·

وكان الشيخ « **عمر أبو السعود** » أكثر صراحة مع السلطان ، فعندما وجه اليه نفس الطلب قال الشيخ :

ــ أنت رجل بخيل ·· ما يهون عليك شىء ولو خرجت للفقراء والمتصوفة عن بعض مالك لعملوا وقتا وتوسلوا الى الله أن يهبهم ولدك ، وبذلك يتعافى ·

وبالفعل أعطاه السلطان مبلغا كبيرا من المال وزعه على الصوفية ، ثم عاد للسلطان فقال :

ــ طيب خاطرك ، الفقراء كلهم سألوا الله ولدك وقد وهبه لهم ·

وبرغم ذلك مات على بعد اسبوعين ، ورأى السلطان الشيخ بعد الوفاة فقال له :

ــ يا شيخ عمر ·· أنت قلت ان الفقراء طلبوا ولدى من الله وانه وهبه لهم ·

فأجاب على الفور :

- نعم الفقراء طلبوه ، ووهبهم اياه الا يدخل جهنم ويدخل الجنة ٠

ولعل الشيخ كان يقول فى نفسه أن السلطان ينصب علينا كل يوم فلماذا لا نستغله مرة واحدة فى العمر ؟!

« صادومة الدجال »

كان « **عبد الرحمن الجبرتى** » مؤرخا مسلما سنيا بالغ التشدد فيما يتعلق بالسنة ، وكان كذلك صوفيا معتدلا أزعجه ما شاهده فى عصره من انتشار الخرافة والجهل وتدهور التصوف من فلسفة راقية الى دروشة مهترئة ، لذلك تصدى لأدعياء التصوف بشراسة فائقة وعرى خرافاتهم وادعائهم الولاية فى تاريخه الكبير ٠

وتمثل الصورة التى سجلها الجبرتى عن « **الشيخ صادومة** » نموذجا لهذه الفئة المتأخرة من أدعياء التصوف ومفاسدهم ، فقد كان قادرا على مخاطبة العوام واثارة غرائزهم الفطرية ، وهو ما مكنه من السيطرة على عقولهم وتوجيه سلوكهم ٠ والشيخ صادومة فى الأصل من سمنود حقق شهرة عظيمة وباعا طويلا فى الروحانيات ، وأشيع بين الناس أنه قادر على تحريك الجمادات والسميات ، وأدعى أنه يستطيع مخاطبة الجن والظهور لهم بالعيان ، وتحالف مع عدد من المشايخ الذين قبلوا خرافاته ، كان على رأسهم الشيخ « **حسن المقراوى** » الذى تولى منصب افتاء الشافعية ٠

وكان ممكنا أن يظل « **الشيخ صادومة** » سادرا فى غيه ، يدعى أنه يكشف الحجب وتظهر الخوارق على يديه ، وأنه قادر على تحويل الأجسام النوعية من صورة الى أخرى عن طريق القوة النفسية لا الصناعة العملية لولا حادث بسيط ٠

فى ذلك الوقت كان بمصر أمير مملوكى هو الأمير « **يوسف بك الكبير** » ، وكان على عكس أقرانه من الأمراء ، مفكرا يتأمل فى المسائل ولا يحب الخرافات ، وبالاضافة الى ذلك كان عصبيا شديد الغضب ، وخاصة مع الدراويش

والمشعوذين ومدعى الكرامات والمتاجرين بالدين · وبرغم ذلك فان « الأمير يوسف بك الكبير » لم يمس « صادومة » لأن الأقدار لم تلق به بين يديه ·

وجاء قضاء الشيخ صادومة فى اثره ، فقد كان للامير جارية أراد يوما أن يختلى بها ، وفوجىء بكتابة طويلة على مكان حساس من جسدها فاستوضحها الأمر ، فرفضت باصرار شديد ، وثار الأمير كعادته وهددها بالقتل ، فرضخت واعترفت بأن امرأة عينتها ذهبت بها الى الشيخ صادومة ، طلبا لوصفة أو حجاب يحببها الى سيدها الأمير ، وأن الشيخ رأى أن يكتب على ذلك الجزء من جسدها ما قرأه الأمير ·

وثار الأمير للاهانة التى لحقت بعض نسائه ، فنزل فى الحال وأرسل فقبض على الشيخ صادومة ، وأمر بتفتيش منزله ، وأخرج منه تماثيل مخزية تدل على عهره وابتذاله ، فأمر الأمير بعرضها على الناس وهو يقول لهم :

ـ انظروا أفاعيل الشيخ ·

وعزل الأمير مفتى الحنفية وأمر بقتل الشيخ صادومة ، ولم ينجده علم السيما ولا ادعائه الخوارق وهو تحت حد السيف !!

السـؤال الغـريب

تدهورت حالة مصر فى العصر المملوكى ، وخاصة فى المرحلة الثانية منه ، فقد انقرض الجيل الأول من المماليك الذين جلبوا فى حداثة سنهم كى يعدوا خصيصا للقتال ·· وآلت السلطنة المصرية الشامية بعدهم الى مرتزقة ، كان معظمهم يعمل اما وقادا فى فرن ، أو بستانيا حتى أصبح حكم مصر ـ كما قال المؤرخون ـ يؤول لأرذل الناس وأدناهم ·

وعرفت مصر استخدام المدفع بعد قرن وربع من استخدامها فى أوربا ، وكان أول من سبك المدفع فى مصر « ابراهيم الحلبى » ، وقد جرب المدفع الذى سبكه لأول مرة فى آخر رمضان من عام ٨٩٨ هـ (١٤٩٢ م) · وسحب بعد تجربته الأولى الى خارج القاهرة ، حيث نصب فى سفح الجبل الأحمر ، ووجه الى منطقة الخانكة ، وتم اطلاقه مرتين بحضور أعيان الدولة وكبار

موظفيها ، وقيست مسافة سقوط رميته فجاءت ٤٦٢ ذراعا ٠ وفى التجربة الثانية وصل مداه الى ٤٦٨ ذراعا ٠

حدث هذا فى عصر « **السلطان قايتباى** » ٠

ولم يكد يمر قرنان من الزمان ، حتى تدهورت حالة مصر ، ولم يعد لسلاطينها هم سوى تثبيت سلطانهم ، وانشغلوا بحرب الشوارع والحارات والأزقة ، ولم يعد للفريق المنتصر منهم هم سوى فتح أبواب مصر للأجلاف الوافدين من بنى جنسه ليثروا على حساب جوع الشعب وعريه واستقلال مصر وحريتها ٠

وفى عام ١٧٩٨ م وفد الغزاة الفرنسيون الى مصر ، وعندما علم « **مراد بك** » و « **ابراهيم بك** » حاكما مصر آنذاك ، بقرب ورود الاسطول الفرنسى ، أمرا بصنع سلسلة ضخمة لسد بوغاز الاسكندرية متصورين أنها قادرة على منع الاسطول الفرنسى من الاستيلاء على الميناء ٠ وقد سخر الجبرتى من جهلهم وغبائهم وتصورهم الساذج بأنهم يستطيعون هزيمة الاسطول الفرنسى بسلسلة سميكة ٠

وسقطت الاسكندرية ، وهزم المماليك فى معركة امبابة وفروا هاربين ليبحثوا عن أموالهم وجواريهم ، واجتمع « **نابليون** » بأركان حربه ، وسألهم عن المقاومة المتوقعة بعد هزيمة المماليك ، فقالوا له ان هناك عددا من شيوخ الأزهر يقرأون البخارى فى الأزهر الشريف ، وظن نابليون أن البخارى هذا اسم لأحد المدافع ، فسأل عن وزنه وعدد أرطاله ومدى قذيفته ، واهتم بذلك اهتماما بالغا ٠ وأرسل أركان الحرب جواسيسهم ليبحثوا عن اجابة لسؤال نابليون الغريب (!!)

الجنرال فرط الرمان

اسمه الأصلى « **برتلمى سيرا** » وجنسيته يونانى ، وكعادة المصريين فى السخرية من جلاديهم سموه : فرط الرمان ٠

أيامها ـ فى أواخر العهد المملوكى ـ كانت مصر ميدانا خاليا لسفلة الأجانب ، ولأنه كان يحترف العسكرية فقد التحق بخدمة الأمير المملوكى

محمد بك الألفى فى فرقة الطوبجية ـ أى سلاح المدفعية ـ وكان طوبجيا بالليل ، وبائع زجاج فى أيام البطالة • وعندما جاءت الحملة الفرنسية الى مصر وعين وكيلا لمحافظة القاهرة فأشبع بذلك نهمه للقتل والتعذيب ، اذ كانت هوايته المفضلة هى القتل الجماعى للمماليك والمصريين على السواء ، كان يطوف فى شوارع القاهرة والسيف مسلول فى يده ، وحوله وأمامه قوة تبلغ المائة من اليونانيين غلاظ القلوب على شاكلته ، وكان يطوف أحيانا فى صحبة زوجته وهى ترتدى الملابس اليونانية الوطنية وكانت مثله سادية تتلذذ برؤية مشاهد القتل ، فى الليل كان يدهم البيوت بحجة البحث عن الأسلحة أو الفارين من المماليك أو البدو المتمردين ، فاذا لم يجد أحدا من هؤلاء وأولئك ، كان يقتل الفلاحين الذين يصادفهم فى طريق عودته الى القاهرة ، ويجمع رؤوسهم ويحملها رجاله معهم ، وكان يحرص على أن يعود من جولاته بنتائج ايجابية تتمثل فى رؤوس قتلاه ، وكان يرى أن أكبر سعادة تلحق به من طوافه ألا يعود الى القلعة بدون « ايراد آدمى » ، سواء كان هذا الايراد رؤوس قتلى موضوعة فى زكائب أو أجساد أحياء قبض عليهم •

وبسبب اسرافه فى القسوة وامعانه فى الظلم ورغبته فى التشفى من الشعب المصرى ، ذهب مباشرة ـ بعد واحدة من جولاته ـ الى الجنرال ديبوى الحاكم العسكرى الفرنسى لمدينة القاهرة ، وكان يتناول الغذاء مع بعض ضيوفه ، فقدم اليه زكيبة ، ظن الجنرال أول الأمر أنها تحوى هدية بطيخ أو شمام ، فأمر بفض الزكيبة فاذا بها تحتوى على اثنى عشر رأسا من رؤوس المصريين الذين قتلهم « **برتلمى سيرا** » جاء يعرضهم على رئيسه الجنرال فخورا ومختالا • وامتعض الحاضرون من هذا المشهد الدامى وأمر الجنرال باخراجه مع زكيبته من قاعة الطعام •

لحظتها لم يدرك « ديبوى » ـ الذى نغص عليه المشهد الطعام الشهى ـ انه هو المسئول عن دموية فرط الزمان ، فعندما يدخل المستعمر الأجنبى من النافذة يدخل القتل من أوسع الأبواب •

قلب الطاغية الحنون

يخفى الطاغية عادة جرائمه القاسية ، بالتظاهر برحمة كاذبة ، وغالبا ما يجد كثيرا من المغفلين أو المأجورين الذين يروجون لرحمته المزيفة ، وينظمون القصائد فى عطفه وشفقته •

في أثناء ثورة القاهرة الأولى ، أمر « **نابليون** » بضرب المدينة بالمدافع فهدم مئات البيوت ، وقتل ثلاثة آلاف من الثوار المصريين ، واقتحم جنوده الأزهر — وكان معقل الثورة — بخيولهم ، وتفرقوا — كما يقول الجبرتي — بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة ، ودشتوا الكتب والمصاحف ·

وفي اليوم التالي اجتمع لديه كبار المشايخ ، وكان يعتمد عليهم في تدعيم سلطته ، فرأى من الحكمة ألا يخسرهم ، وعاتبهم لأنهم لم يوقفوا الثورة ، ثم أمرهم بأن يعلنوا عفوه الكريم على الملأ على أساس أن الدم الذي أريق فيه الكفاية ·

وتحدث كثيرون عن « **قلب نابليون** » العطوف ، وأصبح صفح نابليون عن ثوار القاهرة موضوعا أثيرا لدى الرسامين والمثالين الفرنسيين ، لكنه في نفس اليوم الذي أعلن فيه العفو ، أصدر أمرا سريا ، بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين اعتقلوا وبيدهم سلاح ، وأعدم ثمانين من أعضاء ديوان الدفاع ، وهو المنظمة الشعبية التي قادت الثورة ·

واعتقل ستة من الشيوخ الذين تزعموا الثورة ثم نقلوا الى القلعة ·· وحوكموا أمام مجلس عسكري وحكم عليهم بالاعدام ·

وأذيع أثناء ذلك بيان يعلن تسامح « **نابليون** » وعطفه الكريم ، وكتب الشعراء قصائد مدح ، ونحت المثالون روائع الفن ·

كـم قهـرت جبابرة

قبل أن تغرب شمس الحكم التركي المملوكي بقليل ، ساد الغباء وانتشر ، وتصدى لأمور مصر عدد من الحمقى والجهلاء ·· وكان « **علي باشا الطرابلسي** » واحدا من آخر الولاة العثمانيين على مصر : جاءها بعد أن تضعضعت صورة الولاة والسلاطين ، ولم يعد لأحد هيبة · صدر الفرمان بتعيينه واليا على مصر في وقت اشتد فيه ساعد الشعب ، بعد أن تحمل وحده عبء مقاومة الحملة الفرنسية ، حتى أجبرها على الرحيل ، وعندما عاد الأتراك — بعد رحيل الحملة — تصرفوا كأن شيئا لم يكن ، وتقدموا ليستولوا على الحكم ويتمتعوا بخيراته ويمارسوا سلطتهم بنفس الطريقة القديمة ·

ولما جاء « **على باشا الطرابلسى** » ليتولى مهام منصبه حاول أن يلعب على كل الأطراف : على المماليك ، وعلى حاميات الجنود المرتزقة التى كانت منتشرة فى مصر ، وكان أسلوبه هو أن يغرى الجميع بالشعب ·· اجتمع بأمراء المماليك فقدم لهم الهدايا ·· وقال لهم :

ــ أنا عندما قلدونى ولاية مصر ، قلت للدولة أن أول حوائجى العفو والرضا على أمراء المماليك ، لأن لهم فى عنقى جميلا عندما حضرت اليهم هاربا من طرابلس ، فآوونى وأكرمونى وأقمت معهم مدة طويلة فى غاية الحظ والاكرام ·

وأقام الطرابلسى فى معسكر المماليك ، وبدأ يناور فيرسل رسائل الى زعماء الأرناؤوط والعربان ليعرض عليهم التحالف معهم ضد المماليك ، وضبط المماليك رسائل منه لأعدائهم ·· فلم يخجل وقال لهم :

ــ هذا شىء قد كان ونحن أولاد اليوم ·

وفوجئوا به يكرر اللعبة ، فقد ضبطوا خطابا آخر أرسله الى الوجه القبلى ، يعرض على بعض أجنحة المماليك التحالف معه ضد الجناح الآخر ، فقالوا له :

ــ لا أمان لك معنا ·

وعزلوه عن الولاية ، وقررت الدولة نفيه الى غزة ·

وبرغم ذلك لم يكف عن التآمر ·· اذ حاول الهجوم على جنود المماليك الذين كلفوا بمصاحبته الى منفاه فى غزة فقتلوه ·· وطوال كل هذه الألاعيب ، كان الطرابلسي يغرى جنوده بالشعب ، قال يوما لعساكره :

ــ ان بلغت مرادى من أمراء المماليك وظفرت بهم وبالأرناؤوط ، أبحت لكم القاهرة والرعية ثلاثة أيام تفعلون ما شئتم ·

ولم يستطع تنفيذ وعده ·

الأمير والبقرة

كان الأمير المملوكى **محمد بك الألفى** ، آخر أمراء المماليك الكبار ·

بموته ـ كما يقول الجبرتى المؤرخ ـ انتهت دولتهم ٠٠ ولم تقم لهم قائمة ٠

كان كغيره من الأمراء أصله رقيق جلبه نخاس الى مصر وباعه الى الأمير « احمد جاويش » المعروف بالمجنون ، فلم يعجب المملوك الصغير بسيده فطلب بيع نفسه ٠٠ فاستقر عند الأمير مراد بك الذى اشتراه بألف اردب من الغلال فسمى لذلك بالألفى ٠

وبعد رحلة طويلة تقلد خلالها مناصب متعددة ، أصبح الألفى من كبار الأمراء ، خاصة بعد أن مات سيده « مراد بك » فى أواخر الحملة الفرنسية على مصر ، وعندما عاد العثمانيون بعد جلاء الفرنسيين ، لم يثق فيهم وقرر الاستعانة بالانجليز عليهم ٠

وتعقدت الأوضـــاع فى مصــر ، وقامت ثورتى عامى ١٨٠٤ و ١٨٠٥ فأنهتا الحكم التركى المملوكى لمصر ، وتولى « محمد على » حكم مصر بارادة أهلها ، وقاد « محمد الألفى » تمردا عنيفا فى أنحاء القطر ، وســافر الى انجلترا فجأة فأقام فيها ـ كما يقول الجبرتى ـ سنة وشهورا وعاد منها ، وقد تهذبت أخلاقه بما اطلع عليه من عمارة بلادهم ، وحسن سياسة أحكامهم وكثرة أموالهم ورفاهيتهم وصناعتهم وعدلهم فى رعيتهم ، مع كفرهم بحيث لا يوجد فيهم فقير ولا مستجدى ولا ذو فاقة ولا محتاج ٠

ويروى « الجبرتى » عن بعض الذين التقوا به بعد عودته من انجلترا ٠٠ أنه اجتمع ببعض أمرائه الذين نسب اليهم أنهم ارتكبوا المظالم فى صعيد مصر خلال سفره ، فكان سمره معهم فى تلك الليلة فى ذكر العدالة الموجبة لعمار البلاد ، وقال الألفى لأمرائه :

ـ الانسان الذى يكون له ماشية يقتات هو وعياله من لبنها وسمنها وجبنها ، يلزمه أن يرفق بها فى العلف حتى تدر وتسمن وتنتج له النتاج ، بخلاف ما اذا أجاعها وأتعبها وأشقاها وأضعفها ، حتى اذا ذبحها لا يجد بها لحما ولا دهنا !

واحتج أمراؤه بأن هذا ما تربوا عليه وتعودوه ٠٠ ولكن الألفى رفض ذلك وقال :

ـ ان أعطانى الله سيادة مصر والامارة فى هذا القطر لأمنعن هــذه الوقائع وأجرى فيه العدل ليكثر خيره وتعمر بلاده ، وترتاح أهله ، ويكون أحسن بلاد الله ٠

وكان الألفى قد عــاد من انجلترا بمفهوم جديد للاســتغلال ٠٠ فلــم يعد اقطاعيا غبيا يستنزف ـ الى درجة الموت ـ الدجاجة التى تبيض ذهبا ،

ولكنه اكتسب عقلية المستغل الرأسمالى الذى يريح البقرة ويغذيها لكى تدر له لبنا أوفر وسمنا أكثر ٠٠ وكان ذلك مفهوم العدل لديه ٠٠ لكن الظروف لم تسمح له بتطبيقه اذ هوجم بعد كلامه هذا بساعات ثم فر ، ومات بعدها بفترة قليلة ، وأراح الله البقرة منه ٠

الشعر قبل الموت

وهم على مشارف الموت يصبح الطغاة شعراء :

واحد منهم كان الأمير المملوكى الشهير « **محمد بك الألفى** » ٠٠ الزعيم المملوكى الذى مات « فانهدم بموته ركن دولة المماليك ، وتفرقت جمعيتهم ، وانكسرت شوكتهم وزادت نفرتهم ، وما زالوا فى نقص وادبار وذلة وهوان وصغار ٠ ولم تظلهم بعده راية وانقرضوا وطردوا الى أقصى البلاد فى النهاية » ٠

وأيامها كان « الألفى » قد عاد من رحلته الى انجلترا ، حاملا معه اتفاقا مع الانجليز بأن يرسموا له حملة تفتح مصر وتمكنه من حكمها ٠٠ وقبل أن تأتى الحملة شن عليه « **محمد على** » ـ الذى كان قد تولى حكم مصر بارادة أهلها ـ حملة عسكرية مضادة ، وأخذ ينتقل من بلد الى بلد ، انفض عنه مماليكه وتركوه يحارب وحده فى جمع قليل ، واجتمع عليه فى دمنهور بعض الأصدقاء وبدأ يشكو لهم ، قال :

ـ يا فلان ٠٠ والله يخيل لى أن أقتل نفسى ، ولكن لا تهون على وقد صرت الآن واحدا بين ألوف من الأعداء ٠ وهؤلاء قومى وعشيرتى تجنبونى وعادونى من غير جرم ولا ذنب سبق منى فى حقهم ٠ وأشـقونى وأشـقوا أنفسهم ، وملكوا البلاد لأعدائى وأعدائهم ، وسعيت واجتهدت فى مرضاتهم ومصالحتهم والنصح لهم فلم يزدهم ذلك الا نفورا وتباعدا عنى ٠ انهم جندى لكن كل منهم يطلب منى رئاسة وامارة ، ويظنون لغفلتهم أن البلاد تحت حكمى ، ويظنون أنى مقصر فى حقهـم ٠ فتارة أعاملهـم باللطف ، وتارة أزجرهم بالعنف ٠ فأنا بين الكل مثل الفريسة والجميع حولى مثل الكلاب الجياع يريدون نهشى وأكلى ٠

ولا تفيده الشكوى بشىء ، بل يدفعه جنوده ومماليكه الى التعدى على عباد الله وأخذ أموالهم وأكل مزارعهم وسرقة مواشيهم ٠ ويكرهه الناس ٠٠

ينفض من حوله الجميع · وتتأخر حملة « فريزر » الانجليزية عن المجيء لشد أزره ، وتبدو الدنيا سوداء كالجحيم ·· وتمضى عليه شهور ثلاثة ينتظر فيها المدد الانجليزى ، كان أوان القيظ وليس ثمة زرع ولا نبات · وتضيق به البحيرة حيث كان يقيم وسط ما بقى حوله من أنصار ، وتشكى العربان المجتمعون وتشكى غيرهم وهددوه بأن يرحلوا الى الصعيد ويتركوه فاضطر الى التحرك معهم مقهورا ، شعر أنه ضعيف · وعندما وصل الى قناطر شبرامنت نزل وجلس على مرتفع هناك ·· مقهورا ووحيدا ، تذكر وقتها أن الدنيا دارت ، قال شعرا أو ما يشبهه :

ـ يا مصـر ·· أنظـرى الى أولادك وهم حولك مشـتتين متبـاعدين مشردين ، واستوطنك أجلاف الأتراك وأراذل الأرناؤوط ، وصاروا يقبضون خراجك ويحاربون أولادك ، ويقاتلون ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ويسكنون قصورك ، ويطعمون خيرك ويتمتعون ببهجتك ونورك ·

واستمر الطاغية الشاعر ·· يتفوه بكلام كهذا ·· متوهما أنه هو مصر وأنه هو ابنها الذى ظلم وحورب ، نسى كل ما ارتكب من مظالم ، الى أن تقيأ دما ·· ومات ·

يقرض الطغاة الشعر ·· لكن قبل الموت ·

تهمة الالحاد القديمة

الاتهام بالكفر والالحاد والخروج عن دين الله ، هى التهمة التقليدية التى دأب الطغاة والخونة والعملاء على توجيهها لكل صاحب رأى ، ولكل من يدافع عن مصلحة الشعب ·

فى مايو ١٨٠٥ م أصر الشعب على عزل الوالى العثمانى **أحمد باشا** ، وعلى تولية « **محمد على الكبير** » مكانه ، وتعصب الوالى وأصر على عدم النزول عن الحكم ، واجتمع حوله فى القلعة بعض المرتزقة والأفاقين · وتجمع التجار والعلماء وطلبة الأزهر والفقراء وأقاموا المتاريس فى الشوارع ، وأفتى القاضى بأن الوالى الذى يرفضه الشعب يجوز قتله ، وتولى زعيم الشعب **عمر مكرم** الدعوة الى العصيان العام ، وتوجه الى بيت طاهر باشا حيث

جرت مناظرة حادة بينه وبين بعض المنافقين الذين يساندون الطاغية المرفوض قالوا له :

ـ كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم ، وقد قال تعالى : أطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ٠

ورد عمر مكرم :

ـ أولوا الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل وهذا رجل ظالم ٠٠ وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة ، وهذا شيء قديم ٠٠ حتى الخليفة والسلطان اذ سار فيهم بالجور فانهم يعزلونه عن ذلك ٠

ولما أفحم عمر مكرم منافسه في المناقشة ، قال هذا الأخير :

ـ أنتم تحاربوننا بفتوى من القاضي والعلماء ، وهذه فتوى لا تصدر الا عن كافر ٠

ورفض عمر مكرم الاستمرار في المناقشة بهذا الشكل ، وترك المجلس منصرفا ٠٠ احتقارا لشأن محدثه ، ولم يكن يعلم أن هذا الداء السياسى سيستمر كالمرض العضال فى القرن التاسع عشر وفى القرن العشرين ٠





٢ قبل الفجر الثانى

زمن المحظيات - الباشا والسيد - أغراض نفسانية - اقرضها وخلصنى - الصعايدة فى ميدان العتبة - اللومان والقلعة - الباشا والوقائع - تفانين الصهبجى - النعمة والنقمة - الحصان العطشان - شروط العبودية - الحذر والقدر - سكلاريدس فى بركة السبع - أرض شبرد - صراع الجبناء - السكاكينى باشا - كفر الزيات كومبلكس - الطاعون لا يسمع - الحديث فى البولتيقا - العرق والخواجات - الضرتان والكلى - الأصفار والحضارة - التمثيل على الناس - ملك لا يموت - المهر دار فى الساقية - ولا دمنهورى - ظاهرة خليل أغا - على الله العوض - مصر المحبوسة - أفندينا والملاليم - أفراح الأنجال ، البطريرك والمبشر - يد الله على قلب الملك - الشاعر والأمير - احمد أفندى يفصل من الوظيفة - الصحافة والثورة - الصحفى المقاتل - ذكاء الثوار - مولانا أبو العلا - الادميرال سيمور وش القملة - البرابرة الحقيقيون - الأحرار والمحافظون - شماتة الخونة - وقاحة الخونة - وغدا لنا - الخونة والسارقين - النديم والمرآة ٠



زمــن المحظيات

حكمت أسرة « محمد علي » مصر ١٤٨ عاما ، بدأت فى ١٧ مايـو ١٨٠٥ ، وانتهت فى ١٨ يونيو ١٩٥٣ ، وخلال هذه المدة تولى الحكـم من أفرادها عشرة ، لقب ثلاثة منهم بلقب الوالي (محمد علي وعباس وسعيد) وثلاثة بلقب الخديو (اسماعيل وتوفيق وعباس حلمى) واثنان بلقب سلطان (حسين كامل وفؤاد الأول) ، وفى عام ١٩٢٣ أعلن الاستقلال ولقب فؤاد بلقب الملك وحمله بعده ابنه فاروق وحفيده فؤاد الثانى ٠

وبالاضافة للطغيان والحكـم الفردى ، فان ملوك الأسـرة العلوية قد اكثروا من الزوجات ومن اقتناء الجوارى والمحظيات ٠ فكان لكل منهم عدد من الزوجات الشرعيات بخلاف الجوارى المستولدات ، أى اللواتى ينجب منهن ولى الأمر ، والجوارى المحظيات ، وهن جوار لا يلدن ، ولكن يخففن عن ولى الأمر عناء ما كان يبذله فى سبيل نشر العدل بين رعاياه ٠

كان لمحمد علي زوجتـان شرعيتان و ٢٧ جارية أنجب منهـن ٣٠ من الأبنـاء ، أما ابراهيم فقد احتفظ لنا التاريخ بأسـماء ٦ فقط من زوجاته ومستولداته وترك ٦ من الأبناء ٠ وأنجب عباس الأول ٣ أبناء وكان نصيبه من النساء كعدد أبنائه ٠ ولم يتزوج سعيد سوى زوجتين وترك ولدين ، وتزوج اسماعيل واستولد من ١٤ امرأة أنجب منهن عدد مساو لهن من الأبناء والبنات وكان الخديو توفيق هو الوحيد من أسرته الذى تزوج من زوجة واحدة هى الأميرة « أمينة الهامى » المعروفة بأم المحسنين ، وقد أنجب منها خمسة أبناء وبنـات ٠ وتزوج عباس الثانى زوجتين كانت ثانيتهما مجرية الأصـل هى الكونتيسة « مارى توروك » وقد أسلمت وتسمت باسم « جويدان هانم » وأنجب ست أبناء ٠ وتزوج « حسين كامل » من زوجتين وأنجب سبعة ، أما الملك فؤاد

فقد تزوج اثنتين هما « شويكار » و « نازلى » وأنجب منهما سبعة أولاد وبنات ٠

وتزوج الملك السابق فاروق من زوجتين ، وأنجب أربعة أبناء ، وآخر ملوك أسرة محمد على هو احمد فؤاد الثانى ، وقد عزل وهو فى الثانية من عمره ٠

الباشــا والســيد

كان الصدام بين « **محمد على** » والسيد « **عمر مكرم** » ، نقطة تحول فى تاريخ مصر الحديث ، فقد انتهى هذا الصدام بانفراد محمد على بحكم مصر ، وخرجت القيادة الشعبية التى حملته الى السلطة من حلبة الحياة السياسية فى مصر ، وأصبحت مصر ضيعة يحكمها « **محمد على** » حكما مباشرا بلا رقيب ولا حسيب ٠

ويتهم الجبرتى ــ وهو من أعداء محمد على والطاعنين على سياسته ــ زملاء عمر مكرم من مشايخ الأزهر بخيانة كبيرهم ، ومساعدة **محمد على** على العصف به ، فقد بدأت المشكلة عندما أراد **محمد على** فرض ضرائب جديدة ، فاجتمع المشايخ فى دار السيد **عمر مكرم** ، وكتبوا عرض حال الى **محمد على** يطلبون فيه الغاء هذه الضرائب ، وتعاهدوا جميعا على الاتحاد وترك المنافسة ومواجهة الوالى بصلابة ، وأرسل اليهم « **محمد على** » أحد رجاله يطلب منهم أن يذهبوا اليه لمناقشته ، فرفضوا جميعا ــ حسب اتفاقهم ــ وأصروا على عدم لقائه الا اذا كف عن المظالم ٠

وخلال الأسابيع التالية استطاع مندوب **محمد على** أن يؤثر على اثنين من المشايخ هما **المهدى والدواخلى** ، وكانا يكرهان السيد **عمر مكرم** ، اذ أقنعهما أن الباشا لم يفرض أى ضرائب وأن ما راج عن ذلك هو مجرد اشاعات لا أصل لها ، وطلب الصعود الى القلعة للقاء الباشا ، وحمل الشيخان كلام المندوب الى **عمر مكرم** الذى ثار ثورة عارمة ، وأخبرهما أن هناك أوراقا رسمية أرسلت الى الأقاليم بطلب الضرائب ، ورفض بشدة أن يذهب لمقابلته الا اذا أعلن رسميا الغاء الضرائب ، وعدم فرض أى ضريبة مستقبلا دون موافقة المشايخ باعتبارهم ممثلين للشعب ٠

ولم يقبل « الدواخلى » و « المهدى » منطق **عمر مكرم** ، وصعدا الى الباشا الذى عاملهما بلطف وضمهما الى جانبه ، وقال لهما :

ـ أنا لا أرد شفاعتكم ، ولا أقطع رجاءكم ، والواجب عليكم اذا رأيتم منى انحرافا أن تنصحونى وترشدونى · أما السيد عمر مكرم فهو كل وقت يعاندنى ويبطل أحكامى ويخوفنى بقيام الجمهور ·

وقال الشيخ المهدى :

ـ هو ليس الا بنا ·· واذا خلا عنا فلا يساوى شىء ·· ان هو الا صاحب حرفة !

وتزايد النفور بين المشايخ وعمر مكرم ، حتى انتهى الأمر بنفيه الى دمياط ومنح الشيخ المهدى مخصصاته ووظائفه ، وبعد سفره الى المنفى نمق مشايخ الوقت عرض حال فى حق السيد عمر مكرم يطلب من محمد على نفيه الى تركيا وعددوا له مصائب وجنحا وذنوبا ، وحاولوا جمع توقيعات على عريضة اتهامهم له فرفض بعض مشايخ الأزهر التوقيع وطالبوا بتخفيف لهجة العرضحال ، ومع ذلك أصر السيد احمد الطحاوى على عدم التوقيع فاضطهدوه حتى أن الشيخ الأمير قد سلط عليه ابنه فشتمه ووبخه ، وظلوا يوقعون بالطحاوى الى أن عزلوه عن منصب مفتى الحنفية جزاء له لأنه رفض أن يشهد زورا ·

أغراض نفسانية

شهد شهر رمضان من عام (١٢٢٠ هـ) أول خلاف بين القيادة الشعبية التى صنعت زعامة **محمد على** ، وانتهى الخلاف بنفى هذه القيادة برمتها ·· ثم تسلط **محمد على** وحكم مصر منفردا بلا شريك ·

كانت هذه القيادة هى النتيجة الايجابية البارزة لمقاومة الشعب المصرى الباسلة للغزو الفرنسى ، بنيت بتضحيات الشهداء ، وانتفاضات صعاليك المدن والحرافيش · فدفعت الى الصدارة مشايخ الأزهر ليكونوا رموز هذه المقاومة التى لم يشتركوا فيها بنصيب يستحق الذكر أو التنويه ، وفيما بعد

استطاعت هذه القيادة أن تسقط الحكم التركى المملوكى وأن تدفع **محمد على** الى كرسى الحكم باسم الرعية ، وبناء على طلبها ٠

وبدأ **محمد على** يضيق بالزعامة التى منحته عرشه ويشعر أنها لا تقل عن السلطان العثمانى فيما تقيد به سلطته المطلقة ، وفيما تفرضه عليه من رقابة ٠٠ وبينما هو يفكر فى وسيلة يقضى بها عليها ، منحه المشايخ بأنفسهم الورقة التى يستطيع أن يلعب بها : وقع بينهم خلاف شخصى على مكاسب دنيوية ٠

يقول الجبرتى « وفى هذه الأيام وقع بين أهل الأزهر منافسات بسبب أمور وأغراض نفسانية يطول شرحها »، وأما تلك الأغراض التى يطول شرحها فكانت المنافسة حول وظيفة ناظر الجامع الأزهر ، وهى وظيفة ادارية كان يتولاها أحد أمراء المماليك قبل الغزو الفرنسى ، فتتيح له أن يشرف على الجوانب المالية المتعلقة بالأزهر الشريف ٠ وجاءت الحملة الفرنسية وهرب أمراء المماليك منهزمين الى الشام تاركين البلد فى يد الغزاة ، وخلت بذلك وظيفة ناظر الجامع ، وألحقت اختصاصاتها بمهام شيخ الجامع التى كان يتولاها وقتها الشيخ **عبد الله الشرقاوى** ٠

ولعبت المناورات التحتية دورها ، وطمع الشيخ **محمد الأمير** فى الوظيفة الخالية التى تبحث عمن يشغلها ، وبدأت الاجتماعات والمناوشات وانتهت الى كتابة عريضة لقاضى القضاة ختم عليها مشايخ الأزهر والشيخ **السادات** والسيد **عمر افندى مكرم** نقيب الأشراف تعلن خلو المنصب وترشح الشيخ محمد الأمير لتوليه ، وانتهت بتولى **الشيخ الأمير** لوظيفة ناظر الجامع ٠ واجتهد الناظر الجديد فى أداء مهامه ، أحضر خدما كسوا الجامع وغسلوا صحنه ومسحوه وفرشوا المقصورة بالحصر الجدد ، وعلقوا قناديل عليه ٠ وأشرف الشيخ الأمير بنفسه عليهم ، وأصبح يقف كل يوم على الخدم يأمرهم بالتنظيف وغسل الميضأة والمراحيض ٠ وعين بوابا للباب الكبير ، وأمر باغلاق الأبواب الأخرى من بعد صلاة العشاء ، وطرد من كان يبيت فى الجامع من الأغراب فيلوثون الحصر ٠

كان شيئا عظيما ما فعله الشيخ الأمير ، لكنه لم يكن يساوى ثمنه ، اذ فتت بعمله هذا بين قوى الثورة لمجرد أغراض نفسانية ٠٠ ما أكثر البلاء الذى يصيب بلدا يتحرك فيه الثوار لمجرد أغراض نفسانية ٠

اقرضها وخلصنى

كان « **مصطفى كاشف** » أغرب محتسب عرفته القاهرة على طول ما عرفت من قسوة المحتسبين · وكان من مقتضى وظيفته أن يفتش على أسواق القاهرة ، فيمر بها راكبا ، يسبقه موظف آخر يحمل ميزانا كبيرا ، ويتبعه الجلادون والخدم ، فيفتش على الموازين والمقاييس والمكاييل ويختبرها ، ويتأكد من مطابقة الأسعار للعدل ، ثم يصدر أمره بالعقوبة المناسبة ويطبقها فى الحال · وفى بعض الأحيان كان يستوقف المشترين فى الشوارع ويسألهم عن الأسعار التى اشتروا بها ·

وبسبب قسوته الشديدة اختفت كل مظاهر الغش والسرقة من أسواق القاهرة ، ذلك أنه كان من النوع الذى يقول فيفعل ، وكان الجلد عقوبته التقليدية الفورية · بيد أنه كان يجدد أحيانا فى أساليبه : حدث مرة أن ضبط بائع خبز يبيعه ناقصا فى الوزن ، فأمر بثقب أنفه ثم علق فى الثقب قرصا من الخبز ، عرضه شبر وسمكه أصبع ، بخيط من الدوبارة ، ثم جرد الرجل من ملابسه ، الا ما يستر عورته ، وأوثق يديه من خلفه ، وشد وثاقه الى قضبان نافذة جامع الأشرفية لمدة يوم كامل ، وعندما ضبط جزارا يبيع مقدارا من اللحم ينقص أوقيتين عن وزنه الأصلى ، عاقبه بقطع أوقيتين من لحم ظهره ·· أما بائع الكنافة الذى باعها بسعر أزيد فقد أمر بتجريده من ملابسه واجلاسه على الصينية النحاسية المستديرة التى يصنع عليها الكنافة وأشعل تحته فرن ·· وفى مرة أخرى ضبط بائعا يبيع القلل السمنودى على أنها قلل قناوى فأمر أتباعه بأن يكسروا القلل جميعا ، واحدة بعد الأخرى على رأس البائع وضلوعه ·

واستقر مصطفى أغا على أسلوب ثابت فى معاقبة التجار الجشعين ، وهو قرض آذانهم ، لكنه وبسبب أن القسوة كانت طبيعة فيه ، أصبح يقرض آذان الجميع ·· الوحيد الذى نجا من مقراضه كان بائع بطيخ عجوز خفيف الظل ، استوقفه المحتسب فى الطريق وأمسك شحمة أذنه وأشار على بطيخة كبيرة وسأله عن ثمنها ، فقال الرجل :

ـ اقرضها يا سيدى ·

فكرر المحتسب سؤاله مرة بعد أخرى ، وتلقى نفس الرد ، وأخيرا قال للبائع :

ـ هل أنت مجنون أم أصم ؟

ورد الرجل :

ـ لا هذا ولا ذاك ، ولكنى لو قلت أنها بعشرة فضة فستأمر بقرض أذنى ، ولو قلت بنصف فضة فستفعل نفس الشىء ·· فاقرضها وخلصنى ·

وضحك المحتسب وأطلق الرجل ·

الصعايدة فى ميدان العتبة

سمع القاهريون باسم « **العتبة الخضراء** » لأول مرة فى عام ١٨٤٥ : ففى ذلك العام انتهى « **احمد باشا طاهر** » من بناء قصر « **العتبة الخضراء** » بعد ثلاث سنوات من العمل المستمر ، وكان القصر يقع على الأرض التى يشغلها الآن ميدان العتبة وقسم الموسكى ومركز المطافى وهيئة البريد والشارع الذى يمتد من جانب هيئة البريد الى تمثال ابراهيم باشا ٠٠ وكان قصر العتبة الخضراء يتكون من قسمين : « سراى الحرملك » — أى دار الحريم — و « سراى السلاملك » — أى دار استقبال الضيوف ، وكانت عتبة كل منهما من الحجر الأخضر ، ولهذا سمى القصر بالعتبة الخضراء ٠

وفى أواخر حياته وقف « **أحمد طاهر** » أملاكه وعين زوجته « **خديجة خاتون** » مشرفة على الوقف ، وصاحبة حق فى ريعه مدى حياتها ، ولذريتها من بعدها ٠ وقد حدث فى عام ١٨٥٢ أن باعت الأرملة « سراى الحرملك » للسيدة « **بمبا قادن** » والدة الخديو عباس الأول ، وأجرت لها السراى الثانية لستين عاما ، بايجار قيمته ١٥ مليونا من الجنيهات ٠

وفى عام ١٨٦٣ باعت « بمبا قادن » حق الايجار للخديو اسماعيل ، فلما أفلس وتحملت الحكومة ديونه حلت محله فى ايجار القصر ٠

وعلى امتداد خمسين عاما شهدت المحاكم قضية بين ورثة « طاهر باشا » والحكومة المصرية حول ملكية القصر ، ثم الأرض التى كان عليها بعد أن هدم ، ولم تسقط القضية الا بالغاء الوقف ، بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ٠

واحتفظ الميدان باسم القصر فيما خلا فترات قليلة سمى باسم الملكة « فريدة » الزوجة الأولى للملك السابق فاروق ، ثم باسم محمد على الكبير ، ثم عاد الى اسمه الأول مرة أخرى ، وكان « **طاهر باشا** » حاكما للصعيد لمدة ٢٢ عاما متتالية جمع خلالها ثروة ضخمة من عرق الصعايدة مكنته من صرف مليون جنيه على قصر العتبة الخضراء ، الذى تحول الآن الى ميدان يدوسه الصعايدة — أحيانا — بأقدامهم ٠

« اللومان والقلعة »

كان « **محمد على الكبير** » شخصية غريبة ٠ ولا جدال فى أن دراسة شخصيته وسياسته تكبد أى باحث مشاق لا حصر لها ، فهذا الحاكم القوى

المشكيمة قد لعب دورا هاما فى بناء مصر الحديثة • وفى الانتقال بها من أسوار التخلف الاقطاعى الى آفاق العصر الصناعى ، برغم كل ما ارتكبه من أخطاء •

وسوف يذهل كثيرون عندما يعلمون أن « **محمد على** » كان شبه أمى ، ومع ذلك فقد كان شديد الذكاء ، كما انه أيضا شديد الوعى بما يتخذ من قرارات أو يخطط من سياسات • من ذلك مثلا انه كان أسبق الذين شرعوا لجريمة خيانة الأمانة التى لم يعرفها القانون المصرى الا بعد زمنه بسنوات طويلة ، عندما نص قانون العقوبات على خمس حالات لخيانة الأمانة هى : تبديد شىء سلم فى البدء على سبيل الوديعة أو الوكالة أو الايجار أو الرهن أو عارية الاستعمال •• وهى مادة قصد منها حماية الملكية الفردية وضبط المعاملات التجارية •

لكن « **محمد على** » شرع لمواد خيانة الأمانة تشريعا غريبا ، فعندما شبت الصناعة والزراعة فى مصر بين يديه ذهب الى أقصى حد من حمايتها فلجأ الى التشريع القاسى ، واستولد جريمة لا تعرفها قوانين العقوبات الحديثة ، تلك هى جريمة شراء مصنوعات غير وطنية لا ينتجها مصريون ، وأسمى مقترفها : خائن الأمانة ، وحدد عقوبة تتدرج مع قيمة الأمانة التى خانها صاحبها ، فاذا بلغت قيمة المصنوعات أو المحاصيل خمسة آلاف قرش يصير ارساله الى اللومان من سنتين الى خمس سنوات مربوطا بالزنجير ، فاذا أثبت حسن نيته ــ أى أنه كان يجهل وجود محصول أو صناعة وطنية من الصنف الذى اشتراه ــ يعامل بالرفق ويربط بالقلعة سنتين •

وفى دراسة له علق الاستاذ **عبده حسن الزيات** على هذا النص الغريب محاولا استكشاف فلسفته فى ضوء مواد خيانة الأمانة فى القوانين الحديثة فقال : ان المواد الحديثة تكاد تنطبق بشىء من التجاوز على تلك الجريمة القديمة ، فليست أموالنا التى نمتلكها الا جزءا من الثروة الوطنية العامة ، سلمت الينا من مورثينا أو من كسبنا الذى حصلناه بفضل التربة المصرية ، على سبيل الوديعة أو بمعنى أدق على سبيل عارية الاستعمال ، نستعملها ونستغلها ونتمتع بثمارها طالما نحن أحياء ثم نموت فينقطع حقنا فيها وينتقل حق استعمالها الى مصريين غيرنا •• فاذا نحن بددنا هذه العارية ، أى السلفة ، بلا استعمال ، فقط بأن أخرجنا حق الرقبة ذاته الى يد أجنبية ، أو أخرجنا بعض فوائد تلك العارية التى حصلناها منها الى يد غير مصرية ، فقد خنا الأمانة ، بالمعنى الأدبى على الأقل ، ان لم يكن بالمعنى القانونى الدقيق •

الغريب أن رجلا شبه أمى يتنبه فى وقت مبكر الى مادة قانونية تجعل نقل ثروة مصر الى غيرها جناية لا جنحة • فجرم بذلك هذا الفعل الدنىء ••

وأعلن قبل أكثر من قرن ونصف قرن أن من يفعل ذلك يستحق اللومان اذ فعله بعلم ٠٠ والقلعة اذ فعله بجهل ٠

الباشـا والوقائـع

كانت « **الوقائع المصرية** » هى أول صحيفة مصرية ٠ قبلها التقت العين المصرية بالصحيفة لأول مرة فى زمن الحملة الفرنسية التى أصدرت جريدة سياسية واخرى علمية ، ورتبت بالفعل لاصدار صحيفة عربية سياسية باسم « التنبيه » ولكنها لم تصدر اذ رحلت الحملة قبل أن تنبه الشعب المصرى لشىء ٠

بعد ذلك التاريخ بأكثر من ربع قرن صدرت « **الوقائع المصرية** » وأولاها « **محمد على** » عنايته التى تحولت الى سيادة كاملة واشراف على كل صغيرة وكبيرة ، وكان على الصحافة المصرية بعد ذلك أن تناضل لكى تستقل بنفسها ، وتعبر عن رأيها بعيدة عن رقابة ولى الأمر وتحكمه ٠

حدث أن نشرت « **الوقائع** » خبرا عن رجل يدعى « **محمد المغربى** » من سكان الباطنية ، كان يعمل فى معمل للبنادق ، فطرد منه لسوء سلوكه ، وفساد اخلاقه فأخذ فى التشرد والتعرض لبعض الأولاد الضعفاء فينصب عليهم ٠٠ واستفز نشر الخبر الوالى فكتب الى ناظر الوقائع معترضا ٠

بعدها بأسابيع قليلة كرر محرر الوقائع الخطأ ، ونشر خبرا بدا تافها ولكنه تضمن مطالب للشعب ، فقال : « أن الأولاد الذين يعملون جنانية فى حديقة شبرا يعملون دون أحذية » ٠ وفى هذه المرة ثار الباشا وأمر بأن تعرض عليه المجلة كاملة قبل نشرها ٠

وحدث أن أرسل ديوان الباشا خبـرا عن منـح رتبـة اللواء الى **على ابراهيم بك** ، فرده محرر « **الوقائع** » الى الديوان لأنه خبر موجز وليس به تفصيلات ، وغضب **محمد على** لملاحظة المحرر ، رغم طابعها المهنى الخالص ورد عليه بخطاب حاد قال فيه : « انك يا هذا الرجل مبتلى بالثرثرة ولكن ليس الزاما علينا أن نكثر من الكلام كما تكثره أنت ، فانشر ما أرسلناه لك من قبل كما هو » ٠

تفـانين الصهبجى

تحتفظ لغة الدواوين الى عصرنا بملامح غريبة ، تعكس سطحية العقل البيروقراطى وضيق أفقه ٠٠ لكنها مع بداية نشوء الدولة الحديثة فى مصر على عهد « محمد على » كانت خليطا من لغات متعددة ، تتفاوت بحسب ثقافة الكاتب ، وحسن تقديره للمسائل وفهمه لها ٠

وتضم محفوظات الحكومة المصرية نماذج مضحكة ومبكية من خطابات المصالح والوزارات ٠

ولأن « **محمد على** » لم يكن يتقن العربية ، فقد كان يملى أوامره على كتاب يبدوا أن بعضهم لم يكن يحسن العربية ، فمعظم أوامر الوالى عامية الأسلوب ٠ ويرتبط اثنـان من أوامر « **محمد على** » كل الارتباط : أولهما يتعلق **بمحمد الصهبجى** ٠ فقد كان « **محمد على** » مولعا بالمكيفات وفى مقدمتها القهوة ، وكان يضاف اليها العنبر وزيت الحبهان وبعض المواد المخدرة ، وكان ساقيه يقف دائما الى جانبه ليقدم اليه القهوة كلما طلبها ، وبجوار الساقى موظف آخر يحمل حق العنبر وغيره ، وكان الاثنان يختاران من بين أشد الناس اخلاصا للوالى خوفا من دس السم له ٠ ورأى الوالى أن يضيف اليهما ثالث هو « المعجونجى » الذى كلف بخلط المعاجين التى تضاف الى قهوة **محمد على** ، وجاء نص المرسوم « الملكى » بتعيين هذا الموظف الكبير كما يأتى :

« نظرا لما عرف به محمد الصهبجى من توليف المزاج وتوضيب القهوة ، فقد اخترناه ليكون « معجون أغاسى » مهمته تقديم المعجون لنا فى أى وقت ، وقد رأينا أن المذكور يستحق أن يعين بكيس كامل ــ أى ٥٠٠ قرش ــ لما ثبت من حسن اخلاصه وأنه ذو مفهومية وله تفانين » ٠

ويبدو أن رئيس الشرطة لم تكن له « تفانين » كالمعجونجى ، فقد عين بنصف كيس فقط شهريا ، وفى وظيفة تتطلب نفقات للمظهر ، ودفعه هـذا للاقتراض من أقاربه ، وعجز عن السداد ، فكتب شاكيا للوالى الذى استفزته الشكوى ، فأصدر أمرا بخصم مرتبه لمدة ثلاثة أشهر ، كان نصه :

« حيث أن الأفندى الموصى اليه لم يختشى على عرضه فترك أعماله وتخصص فى الشكوى من غير وجه وحق وشغل وقتنا الثمين ، فاننا نحب أن نقول له أن الشغل فى الميرى اذا كان لم يعجبه فليتركه ونحن نعين غيره ٠٠ ان النصف كيس الذى يقبضه يكفى جدا لكسوته وكسوة عياله والميرى مش ملزوم باكثر من كده ٠٠ ان ولى النعم كان عاوز

يجازى المومى اليه بالعـزل من خدمة الميرى ليكون عبرة لغيره من الموظفين الذين يشتكون ولا يعملون • ولكن اقتضت مراحم ولى النعم وصاحب المهن أن يؤدبه ، فحرم عليه قبض النصف كيس الذى يقبضه أول كل شهر لمدة ثلاثة شهور ، واذا عاد المومى اليه الى الشكوى وتعطيل شغل الميرى فاننا سنجازيه بأشد العقاب لأن رعاية شغل الميرى افضل بكثير من رعاية مصالحه الشخصية والواجب على كل أفندى له عقل ومفهومية ألا يعمل مثل هذا الذى يعمله المومى اليه حتى لا يتعرض للفصل والتغريم ولا يلوم الأفندى الا نفسه » •

وسار رئيس الشرطة يضرب كفا بكف ، ويتساءل عن مبرر التفرقة بينه وبين الصهبجى المعجونجى •• فاذا كان صاحب تفانين ، فهو أيضا صاحب تفانين •

النعمــة والنقمــة

كان المهندس الفرنسى « **لويس جوميل** » هو أول من أدخل زراعة القطن الى مصر •• وكان قد هجر وطنه فرنسا وجاء ليعمل فى مصر عقب خلافات حادة مع زوجته دفعته للهرب منها والاستقرار فى أحد مصانع النسيج التى أنشأها « **محمد على** » • وفى عام ١٨١٨ كان يزور صديقا له من أمــراء المماليك فلاحظ فى حديقته بضع شجيرات محملة بزهر أبيض اكتشف أنها قطن • وقال الأمير المملوكى انه قطن للزينة حصل على بذوره من صديق هندى ، وسمح للمهندس الفرنسى ــ بناء على طلبه ــ بأخذ كمية من البذور ، وقام **جوميل** بزراعتها فى حديقته ، وعندما اكتمل نضجها أخذ يقيس أليافها ويختبر متانتها ، فاكتشف أنها توازى أفضل أنواع القطن المعروفة فى العالم وقتها •

كان القطن معروفا فى مصر أيامها •• اذ كان يزرع بها نوع من القطن البلدى قليل المحصول قصير التيلة ، بينما كان القطن الأمريكى أفضل الأنواع المعروفة وقتها ، ولذلك فان « **جوميل** » ما كاد يقدم نتيجة تجربته **لمحمد على** حتى أمر هذا بتجربة الصنف الجديد فى عدد محدود من الأفدنة ، وفى عام ١٨٢١ انتهت التجارب ، وأنتجت مزارع القطن محصولا كافيا للتصدير ،

فكلف أحد بيوت التصدير الأجنبية بأخذ عينات منه وعرضها فى أسواق انجلترا ، فلم يكد الغزالون فى لانكشير يرون القطن الجديد حتى تهافتوا عليه وقدروا للقنطار منه ١٦ ريالا بنقود تلك الأيام ، وانهالت الطلبات على مصر ، فتوسع « **محمد على** » فى زراعة القطن وبعث « **جوميل** » الى الهند ليأتيه ببذور أصلية ، وليدرس ــ أيضا ــ طريقة زراعته هناك ، فعاد الرجل وأطلع الباشا على نتيجة أبحاثه ، فسر « **محمد على** » سرورا عظيما وأمر بتوزيع كميات كبيرة من البذور على كبار المزارعين ، وبدأ القطن الجديد يغزو مصر ٠

منذ ذلك الوقت ارتبط تاريخ مصر بالقطن ٠٠ دخل فى حياة الناس فغيرها ، وحول عمليات انتاجه وتسويقه نشأت طبقات اجتماعية جديدة وتغير نمط حياة الفلاح وارتفعت أثمان الأرض ، وأصبح محصول القطن المصرى أساسا من أسس الصناعة الانجليزية ، وأقيمت له مصانع خاصة فى لانكشير ، وظهرت فى الأسواق منسوجات جديدة تقوم على قطن مصر مثل البوبلين ٠

وقامت **الحرب الأهلية الامريكية** فى عام ١٨٥٨ وتعطل انتاج القطن الأمريكى ، وارتفع ثمن قنطار القطن المصرى ، واقترض **اسماعيل** ملايين الجنيهات اعتمادا على المحصول ، ثم توقفت الحرب فجأة فهبط ثمن القنطار الى خمسة جنيهات وبدأت مشاكل مصر المالية ٠٠وتحولت النعمة الى نقمة ٠

الحصان العطشان

كان « **ابراهيم باشا** » قائدا حربيا لا يشق له غبار ، لم تخطىء حساباته العسكرية الا نادرا ، واستطاع بجيش من أبناء الفلاحين المصريين أن يرهب العالم كله ، ويجعله يتردد ألف مرة قبل أن يفكر فى التصدى لمصر ٠

وهو واحد من قواد عسكريين قلائل لم ينهزم فى معركة واحدة من المعارك التى خاض غمارها : فى السودان وفى جزيرة العرب وفى المورة وفى فلسطين وفى سوريا وفى الأناضول ، وقد وقع أسيرا بين يديه أكثر من ٢٠ من القواد العسكريين والحكام ، وهزم ١٦ باشا من باشوات سلطنة آل عثمان منهم ٨ باشوات ــ أى حكام ــ هزمهم فى ٨ يوليو عام ١٨٣٢ ٠

كان واثقا بنفسه ، ثقة القائد الذى يعرف جنوده ، والذى اختبرهم فى كل المعارك : فلاحين أقوياء لا يعرفون نعومة فى العيش ولا ضعفا فى النفس • حدث فى غروب يوم ٢٣ يوليو ١٨٣٩ أن كان الجيش المصرى بقيادته يستعد للحرب مع الجيش العثمانى بقيادة **حافظ باشا** ، ودعا « **ابراهيم باشا** » رئيس أركان حرب الجيش المصرى وكبار ضباط الجيش الى خيمته ، وعقد معهم اجتماعا طويلا •• وعندما انتهى الاجتماع وقف « **ابراهيم** » وقال لهم :

ـ الى اللقاء فى الغد الساعة الثالثة بعد الظهر فى خيمة **حافظ باشا** •• أدعوكم من الآن لتناول القهوة معا فى الخيمة •

وفى الصباح جرت موقعة « **نزيب** » الشهيرة ، وفى الموعد المحدد تماما اجتمع رئيس الأركان وكبار الضباط فى خيمة القائد العثمانى المهزوم حافظ باشا ، وكانت كما تركها •• كاملة المعدات والأدوات والمفروشات •

فى أوربا سماه ساستها « **السيف الحى** » • وكتب عنه قنصل انجلترا فى مصر الى اللورد « **بالمرستون** » رئيس وزراء انجلترا يقول :

ـ ان اسمه يفعل فى النفوس فعل السحر •

وعندما زار باريس فى عام ١٨٤٦ قال عنه كاتب فرنسى : « لم تر أوربا جنديا أشجع منه ، ولا أكرم منه ، خلق للنصر والنصر خلق له ، اذ فتحت أمامه بلاد الدنيا غزاها من أولها الى آخرها » •

كان **ابراهيم** قائدا عسكريا يعرف كيف يؤدب الذين يتوقحون على مصر أو يظنونها لقمة سهلة ، واحد من الذين أدبهم كان **حسين باشا** ، وهو قائد عثمانى كلفه السلطان فى عام ١٨٣١ بالسفر الى مصر ومحاربة **محمد على** وعزله عن الولاية والجلوس مكانه واليا على مصر وجزيرة كريت والحبشة ، وكان رجلا قاسى القلب غليظه ، فتاكا شريرا •• وفوق هذا كان شديد الغرور والوقاحة ، وكان يظن أن مصر بلدا مفتوح الأبواب ، ونسى تماما أن هناك جيشا من الفلاحين يقوده **ابراهيم باشا** •• كان حسين باشا فى طريق زحفه على مصر •• وجاءه أحد معاونيه يخطره بأن حصانه انقطع عن شرب الماء ، فأجاب بكل وقاحة :

ـ لقد آل حصانى على نفسه ألا يشرب الا مياه النيل •

ووصلت الكلمة الى **ابراهيم باشا** •

وبعد أسابيع كان **حسين باشا** أسيرا ، ومات حصانه ظمآنا دون أن يشرب من ماء **النيل** •

شــروط العبودية

في العهد التركي العثماني المملوكي كان المصريون يسمون في الوثائق الرسمية **بالعبيد**، وظل هذا الاسم يلصق بهم في عهد « **محمد على** » وخلفائه الأوائل، فعندما أصدر « **محمد على** » قانون « السياسة نامة »، وهو أول قانون نظامي يصدر في مصر، خاطب فيه المصريين ووصفهم بأنهم « **عبيد** » ٠ ولما شكل مجلس الشورى نص في أمر تشكيله على أنه يتألف من (ذوات مقدار الكافي يصير انتخابهم من « العبيد » الذين مجربين الأطوار وأصحاب قابلية ولياقة ومفهومية لدى ولى الأمر) ٠

وكانت القوانين في عهد **محمد على** تعكس استبداده، فالاستبداد يمكن أن يقنن هو الآخر، ولذلك كانت قوانين **محمد على** تعاقب الفلاح الذى يكذب على الحكام، وشيخ البلد الذى يهرب من بلده عند قدوم الحاكم اليها، والمزارع الذى يهمل حرث أرضه وزرعها أو الذى لا يدفع المال بمجرد طلبه، أو لا يجيب طلب رسول الحكام بالشخوص معه اليهم، وكانت العقوبة هي الضرب بالكرباج من عشرة الى خمسمائة جلدة والنفي الى « فازوغلى » بالسودان أو الى الليمان أو الاعدام ٠

وفي الفصل الثالث من قانون « **السياسة نامة** »، أورد القانون شروط أهلية المستخدمين والموظفين في الحكومة، فنص على أن من خالف شروط العبودية فيلزم أن يجـازوا بالجزاء اللائق بهم لأجـل أن يكون تأديبا لهم وعبرة لغيرهم ٠

ومن أجل الحفاظ على حق « العبيد »، قاوم الوالى **عباس باشا الأول** بشدة رغبة السلطان العثماني في أن تطبق على مصر التنظيمات العثمانية، ومن بينها أن يكون « **حق القصاص** » مقصورا على السلطان وحده، فقد رفض عباس وجادل وادعى أن له حق القصاص وأن حقه غير مقيد باذن السلطان، وهدده السلطان فلم يذعن، فأرسل اليه في سنة ١٨٥٢ **فؤاد افندى** ـ أحد رجال السياسة في الآستانة ـ ليقنعه بأن الحكم بالاعدام يجب أن يصدر من مجلس ينعقد بحضور قاضي مصر ـ وكان تركيا ـ ولا ينفذ الا بعد أن يصدق عليه السلطان ٠ وانتهت المفاوضات باطلاق يد **عباس** في القصاص لمدة سبع سنوات على أن يعرض على مجلس عال قبل التنفيذ لاقراره ٠

الى هذا الحد قاوم **عباس** أى محاولة من شأنها أن تراجع ارادته في التصرف مع من يخرجون عن شروط العبودية من أهالي مصر، لذلك كان طبيعيا أن تصدر أعجب الأحكام في تاريخ القضاء في تلك المرحلة من حكم **محمد على** وخلفائه ٠ فقد حدث في عهد **عباس باشا** أن دخنت احدى السيدات

سيجارة فى داخل الحريم ، فاعتبر **عباس** التدخين فى داخل حريمه جريمة وأمر بأن تخاط شفتا هذه السيدة عقابا لها ·

وقد كان ·

الحـــذر والقـــدر

كانت السنوات الخمس التى حكم فيها **عباس الأول** مصــر سنوات سـود ·

فى عهــده أغلقت المدارس ، ونفى المفكـــرون ، وتدمرت المصــانع والفابريكات ، وحكم الوشاة والجواسيس مصر · كان فيما يبدو مختلا عصبيا ، شديد التطير والتوجس ، كثير الوساوس ، يشك فى كل الناس ، وقد جعله هذا كله فريسة **لأهل** الوشاية ، فأخذ بقولهم ، وتزايدت رغبته فى معرفة أحوال الناس ، وبنى قصورا فى الخلاء ، بعيدة عن الزحام لكى يكون فى مأمن من المتآمرين الوهميين ، ومنها قصره الشهير الذى بناه بسفح الجبل الأحمر خارج باب الحسينية وسماه « **العباسية** » نسبة الى اسمه الذى يطلق الى اليوم على الحى المعروف بهذا الاسم ·

ومن الحوادث الشهيرة فى قصره ، ذلك الحوار الذى جرى بينه وبين « **الشيخ الباجورى** » شيخ الأزهر آنذاك ، وكانت شدة تطير الخديو قد دفعته للظن بأن الأقباط يعادونه فقرر نفيهم الى أقاصى السودان ، وأرسل يستفتى شيخ الاسلام فى ذلك ،وقال الشيخ على الفور :

ــ أى النصارى تعنى يا أفندينا ؟ اذا كنت تعنى الأقباط منهم ، فهم بعض أهل البلاد والحمد لله ، انه لم يطرأ على ذمة الاسلام طارىء ولم يصبها خلل حتى تبيح الغدر بمن فى ذمته الى يوم القيامة ، أما اذا كنت تعنى الاوربيين ، فلك أن تدرس الأمر بما توجبه حسن السياسة لأننى أخشى أن تضريهم فيصيب بلادنا ما أصاب الجزائر من احتلال الفرنسيين ·

وكان « **عباس الأول** » طاغية غشوما ، وبرغم ذلك فان الشيخ لم يكتم كلمة الحق وقالها دون خوف ، وغضب منه الوالى ووقف بحدة معلنا انتهاء المقابلة ·

ولأن الحذر لا يمنع قدرا ، فان تطير « **الخديو عباس** » لم يمنعه من أن يموت قتيلا - وهو الوحيد من حكام أسرة محمد على الذى مات كذلك - اذ تآمر عليه بعض غلمانه الذين كانوا فى حراسته فى قصره المهجور بالقرب من بنها ، وقتله ستة منهم ، ذلك أن الذين يعيشون على ارهاب الآخرين يموتون بما يعيشون عليه ٠

سكلاريدس فى بركة السبع

تردد اسم « **سكلاريدس** » كثيرا فى موسم القطن ، باعتباره اسما لواحد من أجود أنواع القطن المصرى ، وهو ما يعود لمتانة فتلته ونعومتها وطولها ٠

ومبتدع هذا النوع الجديد من القطن هو « **المسيو سكلاريدس** » ، وهو يونانى الأصل ، ولد عام ١٨٤٥ وجاء الى مصر وهو فى الحادية عشر فانضم الى خال له يقيم فى « **بركة السبع** » معه اثنان من أبناء أخته كان ثالثهما سكلاريدس ، وقد اشتغلوا جميعا بتجارة القطن ، وأسسوا بيتا تجاريا باسم العائلة ٠

وكانت الأسرة السكلاريديسية تزرع القطن وتتاجر فيه أيضا ، وفى عام ١٩٠٤ كان سكلاريدس يمر فى حقل له فرأى ثلاثة لوزات غريبة عن غيرها ، وبفحصها وجد قطنها أكثر نعومة وأكثر متانة ، كما أن ليفته أكثر طولا فاحتفظ ببذور اللوزات الثلاث ، وعددها ١٦ بذرة ، وزرعها فى حديقة منزله ، وعنى بها ، واستمر عدة سنوات يكاثر فى البذرة حتى زرع منها ١٢ فدانا فى عام ١٩٠٨ ، فأعطته غلة وفيرة - ١٢ قنطارا للفدان - ومنذ ذلك الحين عرف القطن باسمه ٠

وكان **سكلاريدس** هو المورد الوحيد لبذرة قطنه ، وقد اشترط على من يشترى منه أن يبيع له القطن الناتج بأسعار حددها ، وكان هدفه أن يحتكر اكتشافه ، ولكن الزراع خالفوا العقد وباعوا قطنهم لغيره ، فانتشرت زراعة النوع الجديد فبيع من بذرته فى عام ١٩١٠ ما يصل الى ٦٠٠٠ أردب ، وبذلك ضاعت على « **سكلاريدس** » ملايين الجنيهات ولم يكسب من قطنه - على حد قوله - سوى عشرة آلاف جنيه فقط ٠

وسكلاريدس هو مكتشف دودة القطن ، التى ظهرت لأول مرة فى بركة السبع عام ١٨٧٨ ، وهو الذى نبه الى ضرورة قطع الورقة المصابة بأكملها قبل الفقس ٠٠ وقد منح وسام الاستحقاق الزراعى عام ١٩٢٠ ٠

أرض شبرد

فى حريق القاهرة ، اختفى أقدم فندق فى مصر ٠٠ **فندق شبرد** ٠

كانت الأرض التى أقيم عليها فى الأصل ، جزءا من حديقة الأزبكية ، وبالتحديد فان هذا الجزء من الحديقة ، هو الذى شهد حادثة مقتل القائد الفرنسى **الجنرال كليبر** ، خليفة **نابليون** فى مصر ، والسفاح الذى أخمد ثورة القاهرة الثانية بوحشية نادرة المثال ، اذ أمر بأن تطلق المدافع نيرانها على المدينة من فوق تلال القلعة ، وردا على ذلك اختفى **سليمان الحلبى** فى أحد منحنيات حديقة الأزبكية وبيده خنجر غرسه فى جسد السفاح فقضى عليه ٠

وفى عصر « **محمد على** » اقتطع هذا الجزء وبنى عليه قصرا لابنته **الأميرة زينب** ، ثم انتقلت منه ، فخصص القصر ليكون مقرا لمدرسة الألسن التى أدارها العلامة **رفاعة رافع الطهطاوى** ، وخرجت أجيالا من المثقفين المصريين المتأثرين بالثقافة الأوربية ٠

وعندما نقلت منه المدرسة تقدم تاجر انجليزى كان يقيم فى مصر آنذاك واشتراه ،وكان التاجر يحمل اسم « **صموئيل شبرد** » ، وقد حوله الى فندق ، واختاره لأنه يقع فى وسط حى القنصليات وحوله تجمعات الأجانب ، فكان بمثابة استراحة لهم يمضون فيه أوقاتهم ، ويستضيفون فيه أقاربهم القادمين من أوربا ٠

ومنذ سنة ١٨٤١ ، والفندق يستقبل زبائن من أشهر شخصيات التاريخ ، أقامت فيه « **أوجينى** » امبراطورة فرنسا عندما جاءت لتحضر الاحتفال بافتتاح قناة السويس ، ومن الملوك الذين زاروا القاهرة وأقاموا فيه « **ادوارد السابع** » ملك انجلترا الأسبق ، « **روزفلت** » الرئيس الأمريكى الأسبق ، وأقام فيه ثوار وصعاليك ومغامرون وجواسيس وغانيات ٠

وذهب المبنى القديم للفندق فى حريق القاهرة ، لتصبح أرضه خرابا يلعب فيه الأطفال الكرة :

ـ دنيـــا ٠

صـراع الجبنـاء

ترك الحكم المملوكى آثارا بالغة فى نفسية بعض الشرائح المصرية التى كانت قريبة منه ومحتكة به ، والتى مارست معه لعبة الحكم بكل ما يحيط بها من مزالق ٠٠ وكانت أبرز تأثيراته وأخطرها أنه جعل هذه الشرائح تخاف الى حد الجبن ، وأحيانا التلاشى ٠

وبينما كان أثرياء الريف يمثلون دور الجلادين بالنسبة للفلاحين الفقراء ، كانوا أمام أى « عثمانلى » ـ مهما تفه شأنه ـ جبناء تتخلخل أوصالهم رعبا ٠ وفى أثناء حكـم الوالى محمد سعيد باشا ، أحدث تغيرا هاما فى الادارة المصرية ، اذ بدأ يختار مديرى المديريات من أثرياء الريف فى محاولة لتمصير سلطة الحكم فى الأقاليم ، واقصاء السيطرة التركية عنها ٠ وكانت التجربة فى بدايتها شاقة ، خاصة لأن المديرين الجدد كانوا يخافون مرؤوسيهم من الأتراك مما أخل بهيبة الادارة وجعلها مضغة فى الأفواه ٠

وحدث فى احدى مديريات الصعيد أن وجيها شهيرا من وجهائه ، عين مديرا للمديرية التى تتبعها قريته ، وسرعان ما أصبحت غرفته فى المديرية مقهى ، يتردد عليه أقاربه وأصهاره للسمر والحديث والراحة من مشـقة التجوال بين المحلات التجارية ، وزاد من اعجاب أقارب المدير بالغرفة ، أن حاجبها كان تركيا ألبانى الأصل ، ضخم الجثة ، ذو شارب يقف عليه الصقر ، وهو شىء كان يذهل أقارب المدير الذين عاشوا حتى شهدوا تركيا ـ بجلالة قدره ـ يقف بباب قريبهم ، ويستأذن لهم قبل الدخول عليه ، ويقف احتراما وهم يخرجون أو يدخلون ٠

وانزعج المدير من كثرة تردد الأقارب والمحاسيب عليـه ، فقـد كانوا يعطلونه عن عمله ، ويتعاملون معه فى مكتبه بطريقة أسرية لا تراعى هيبة المنصب ولا كرامة الوظيفة ، وأخذ يفكر فى وسيلة لمنعهم من ذلك ، وقـاده تفكيره الى خطة بسيطة ، أوعز الى حاجبه التركى أن يدخـل يوما بشـكل

مفاجيء على أولئك الأهـــل والمعـــارف وهم جلوس فى غرفته ، ويزجرهم ويطردهم ، فيتخلص منهم المدير ، ويتجنب حرج طردهم بنفسه ٠

وفى اليوم التالى وبينما الغرفة ممتلئة بأقارب المدير ، فتح الباب بعنف مفاجيء ، ودخل الحاجب التركى ، وقد فتل شاربيه الكثيفين حتى مس طرفهما أذنيه ، وحملق بعينيه حملقة مروعة ، وهجم على الأقارب صارخا بصوت عثمانلى مخيف :

ــ يللا ٠٠ اسكتر ٠٠ كرتنا فلاح ادبسيز ٠

وهى كلمات تركية كانت تعنى للجلوس ، أن هناك خطرا عثمانليا ماحقا ، فذعروا جميعا وارتعدت فرائصهم ، وفى لحظة واحدة أخلوا المكان مهرولين يتسابقون ويتدافعون الى الباب ٠

الطريف فى الأمر أن المدير كان أولهم هربا ٠٠ فقد بلغ من شدة خوفه انه نسى أن المسألة تمثيلية هو الذى ألفها ٠

السكاكينى باشــا

فى يونيو ١٩٢٣ توفى الكونت « **حبيب باشا السكاكينى** » ٠٠ تاركا وراءه ثروة طائلة ، وميدانا من ميادين القاهرة ما زال يحمل اسمه الى الآن ٠

وكان « **حبيب سكاكينى باشا** » قد ترك موطنه الأصلى فى لبنــان فى عام ١٨٧٥ ، ونزل من الباخرة فى بور سعيد ، وبعد بحث طويل عثر على وظيفــة صغيرة فى شركة قنال السويس بمرتب لا يتجاوز أربعــة جنيهات شهريا ٠ وكان وحيدا بلا أهل ولا أصحاب ، وبعد أربع سنوات نصحه الأطباء بالاقامة فى مكان جاف لأن الرطوبة تضر بصحته ٠

وفى القاهرة بحث عن مكان جاف ، ولم تكن منطقة الفجالة والعباسية قد اختطت بعد ، فانتقل الى تلك الجهات وليس فى جيبه سوى خمسين جنيها وفرها من مرتبه الضئيل ، واختار مكانا فى تلك الأنحاء وبنى غرفة صغيرة من الخشب لنفسه ، وسكن هناك وحيدا الى أن سئم وحدته فبنى غرفة أخرى بجانب غرفته وأجرها ٠ واقتصد من الايجار ما مكنه من بناء غرفة ثالثة ٠

وفى سنوات قليلة كان المنزل قد تحول الى عمارة ، وثانية وثالثة ، وكان الامتداد العمرانى فى الفجالة والمعباسية قد انتشر ٠٠ والخواجا حبيب يشترى العقارات والأراضى ، وينشىء الحدائق ويبيع ثمارها ٠٠ الى أن أصبح يملك المنطقة التى تحمل اسمه الى الآن ٠

وبرغم ثراء **الكونت سكاكينى** ــ وهو لقب حصــل عليه من الحكومة الفرنسية ــ فقد كان شديد البخل ، وقد عرف عنه أنه لم يدفع قرشا لبناء مدرسة أو مستشفى ، ولم يشيد كنيسة من ماله الخاص ، وكان فى حياته الخاصة هادئا وبسيطا شأن أى رجل عادى لا يملك شيئا ، والمرة الوحيدة التى ضبط فيها متلبسا بالكرم ، عندما تبرع بجنيهات قليلــة لبنــاء كنيسة للطائفة المارونية فى مصر ٠

وكان يقيم فى قصر فخم يقع على مفتــرق الطــريق بالحى الذى يملك معظمه ويحمل اسمه ، وكان شديد الاعجاب بما فعله من هندسة للبيت وخاصة حدائقه الواسعة ٠٠ وقد ترك كل هذا لنجله الأكبرى « **هنرى سكاكينى** » الذى واصل تاريخ الوالد المحترم فى نهب المصريين ٠

كفر الزيات كومبلكس

عقدة كفر الزيات واحدة من أشهر العقد النفسية فى سبعينات وثمانينات القرن الماضى ، كان يكفى أن يذكرها واحد لآخر حتى يعتبرها تهديدا يستعيذ بالله منه أو يجابهه بمثله أو يفر هاربا ٠

فى شهر مايو ١٨٥٨ ، كان الوالى « **محمد سعيد باشا** » ــ رابع ملوك أسرة محمد على ــ فى الاسكندرية ، وجاء عيد الأضحى ، فسافر الأمــراء والموظفون والأعيان الى هناك لحضور التشريفات وتهنئة الوالى بالعيد ، وبعد أن انتهت استقلوا القطار عائدين الى القاهرة ٠

وحتى ذلك التاريخ لم يكن كوبرى كفر الزيات قد تم بناؤه بعد ، فكان على قطار الاسكندرية أن يتوقف فى قرية اسمها « كفر العيص » حيث تنتقل عرباته بما فيها من ركاب على كوبرى متحرك عبارة عن سفينة بخارية تسير بالعربة الى الضفة الأخرى من النيل ، حيث تدفع الى الخط الحديدى الموصل من كفر الزيات الى القاهرة ٠

ونقلت بعض عربات القطار ، وعندما جاء الدور على العربة التى كانت تقل الأميرين « عبد الحليم » ـ ابن محمد على الكبير ـ و « أحمد » ـ ابن ابراهيم باشا ـ حدث شىء غريب ، فبينما العمال يدفعونها الى الخط الحديدى اذ بها تهوى فى النيل وتمتلىء بسرعة بالمياه ، وتغرق بمن فيها ، وكان الأمير « عبد الحليم » خفيف الوزن فتمكن من التسلل من نافذة العربة وسبح الى الشاطىء ، أما الأمير « احمد » فكان سمينا فعاقه وزنه الثقيل فمات ٠

وتعددت الاتهامات حول هذا الحادث الغريب ، ولفت نظر الذين لغطوا حوله أن الأمير اسماعيل ـ الخديو فيما بعد ـ الذى كان مفروضا أن يركب نفس العربة التى سقطت قد تخلف فى آخر لحظة عن السفر وتخلف معه شقيقه مصطفى فاضل ، ومما زاد من ريبة المرتابين فى الحادث أن الأمير اسماعيل كان وحده المستفيد المباشر من وفاة شقيقه الأكبر أحمد ، فبوفاته حل محله وأصبح وليا للعهد ٠٠ واتهم آخرون الوالى صراحة بتدبير الحادث وانه تعمد قتل شقيقه عبد الحليم وابن أخيه أحمد لأنه كان يكره الأول ولا يريد للثانى أن يرث عنه ٠

وفيما بعد أصبحت هذه الحادثة علما على نفسية أسرة محمد على ، بل انها كانت أحد أساليب « عرابى » فى تجنيد عناصر جديدة فى الجيش ، فبعد حادثة أول فبراير عام ١٨٨١ حين حرر ضباط الجيش الأميرالايات الثلاثة الذين قبض عليهم الخديو وأراد محاكمتهم عقابا على العريضة التى رفعوها له بمطالب ضباط الجيش أراد الخديو توفيق أن يشتت العناصر الثائرة فى الجيش فأصدر أمره بنقل احدى الفرق المتمردة من القاهرة الى الاسكندرية ، ورفض الجنود الأمر ، وحاول وزير الحربية وقتها مناقشتهم فرفضوا بشدة وقالوا أنهم علموا أن فى النية اغراقهم فى كوبرى كفر الزيات ٠

وفشلت محاولات « داود يكن » ـ وزير الحربية الذى أصدر الأمر ـ لاقناعهم أن الحكومة لا يمكن أن تفعل هذا ، وأن الخديو لا تتدنى أخلاقه الى تلك الدرجة ، وتفجرت الثورة بعد أسبوع واحد من القرار ، وكان منطق الجنود بسيطا وحقيقيا :

ـ يا عم دول بيقتلوا اخواتهم ٠٠ حنصعب احنا عليهم ٠

الطاعــون لا يســمع

كان مرتزقة الأجــانب هم طاعون مصـــر الحقيقى .. ومنذ أجبـرت الرأسماليات الأوربية « **محمد على** » على الغاء سياسة الباب المغلق تدفق المرتزقة والأفاقون الى مصر ، وما كاد عصر **اسماعيل** ينتصف حتى كانت مصر ضيعة يديرها حملة الأسهم من الأجانب ، يأكلون ويموتون تخمة ، والشعب المصرى يموت فاقة وجوعا .

فى سنة ١٨٧٨ انخفض منسوب النيل وترتب على ذلك عجز شديد فى المحصول ، ولم يقف الخطب عند هذا الحد ، بل ان الطاعون البقرى تفشى بدرجة مروعة مما ترتب عليه هبوط سوق القطن هبوطا فاحشا ، فكانت نتيجة هذه الرزايا مجتمعة أن ضربت المجاعة أطنابها فى الوجه القبلى بشكل لم يعرف مثله منذ أجيال عديدة .. اذ ذاك خرجت النساء بأطفالهن ، هائمات على وجوههن متنقلات من قرية الى اخرى فى طلب لقمة من العيش ، حتى أن اكثر من عشرة آلاف شخص ذهبوا ضحية المجاعة فى صيف ذلك العام عدا الذين فتكت بهم الأمراض الناشئة عن الفاقة كالدوسنطاريا وغيرها ، وبالرغم من ذلك كله فان الخديو **اسماعيل** ما كاد يطلب تأجيل قسط الديون التى اقترضها من مرتزقة الأجانب حتى رفض حملة الأسهم . أيامها كانت الادارة المصرية كلهـا فى يد حملة الأسهم ، وكتب القنصـل السويدى الى حكومته : « ان مصر الآن بمثابة ضيعة كبيرة يديرها حملة الأسهم ، ولكن مع الفرق العظيم بين حملة الأسهم الذين يدركون عادة أهمية تنمية موارد الضيعة للحصول على ديونهم ، تراهم فى هذه الأيام لا هم للواحد منهم الا الصرف والامتصاص كأنهم نسوا أن من المستحيل أن يحصد الانسان اذا لم يزرع من قبل » .

وأصر مرتزقة الأجانب على موقفهم ، ولم يجد الخديو **اسماعيل** بدا من الضغط على الفلاحين الجوعى الذين اضطروا الى بيـع حاصـلاتهم قبـل حصادها بنصف قيمتها بل بأقل من ذلك ، ثم شرائها ثانية لسد جوعهم ، وأقفرت مديريات بأكملها ورحل الأهالى عنها نهائيا ، وبعد أقل من ثلاثة أشهر جاء ميعاد الكوبون الثانى ، ومصر تجوع والمرتزقة يتخمون بالمال . وكتب القنصل الانجليزى لحكومته صارخا : « ان حملة الأسهم الأجانب يعملون على خراب مصر .. فاذا خربت فكيف تسدد ديونها ؟ » .. ووقع صراخه على أذن صماء .. ذلك أن المخربين كانوا طاعونا .. والطاعون لا يسمع .

الحديث فى البولتيقا

حتى أواخر عهد اسماعيل لم يكن مسموحا للصحف المصرية أن تتحدث فى البولتيقا ·

وبلغة العصر فان البولتيقا هى السياسة · وبرغم أن عصر اسماعيل شهد انشاء أول صحف أهلية غير رسمية فان هذه الصحف غير الأميرية قد ظهرت فى السنوات الأولى من حكمه مماثلة من حيث الشكل والوضع للصحافة الرسمية المعاصرة لها ، تعنى بتافه الأخبار ·· وتنشر الأدب القديم المحفوظ فى بطون الكتب ·

وعندما نشبت الحرب التركية الروسية عام ١٨٧٦ بدأت الصحف المصرية تهتم بها اهتماما شديدا · لأنها تتصل بأمر الدولة صاحبة السلطان الروحى عليهم ·· وكان السلطان يضغط على الخديو اسماعيل فى ذلك الوقت لكى تساعد مصر تركيا فى هذه الحرب بالمال والجنود ، ولأن الميزانية المصرية كانت وقتها مرتبكة تمام الارتباك بسبب الديون ، فقد رأى الخديو اسماعيل الفرصة سانحة لكى يتهرب من مساندة السلطان فى حربه ضد روسيا ، اذ أتاح الفرصة للصحف للكتابة فى الموضوع ونشر هزائم الجيش التركى ·

وببساطة أسرعت الصحف المصرية تنشر تفاصيل الحرب ·· وظهر من بين السطور ميلها الى ما كانت تأتى به العساكر الروسية من ضروب الشجاعة ·

وبسبب هذه الحرب استحدثت صحف لنشر أخبارها ، ونشطت هذه الصحف الجديدة فى رواية الأخبار والتعليق عليها ، ومعارضة الصحف القديمة فى الرأى والمذهب ، واشتدت المنافسة بينهما ، وكانت المجادلات الصحفية فى ذلك الوقت أول حدث فى تاريخ الصحافة المصرية ·

وسرعان ما جرت الحرب الصحف الى الحديث عن علاقات مصر الدولية ؛ ومن خلال نشرها لعلاقات السلطنة العثمانية بروسيا ذهب بعضها الى اعتماد صحة الموقف الذى كان الروس يتخذونه فى هذا الوقت · اذ كانوا يطالبون بحق تقرير المصير لشعوب أوربا الشرقية التى كانت خاضعة للسلطان العثمانى ، وتحمست الصحف المصرية لحق هذه الشعوب فى أن تحكم ديمقراطيا ، وأفاضت فى شرح المذاهب السياسية الجديدة التى تقف تركيا دون تحقيقها ·

وبسبب عزوف الخديو عن مساندة تركيا ، فقد غض الطرف عما نشر من آراء أو أذيع من أخبار عن الدولة العلية واخفاقها فى هذه الحرب · وتدريجا تحولت الصحافة المصرية الى صحافة رأى ومذهب ، وشبت عن الطوق · ورأت شئون مصر تسير فى اتجاه فيه غبن شديد على البلاد ·

هكذا انتهزت الصحف الحرية التى حصلت عليها وأخذت تتحدث فى أمور البولتيقا التى لم تكن تتحدث فيها من قبل ·

وكانت تلك بداية النهاية ·

العرق ·· والخواجات

لم يكتف كبار ملاك الأراضى والاقطاعيين بتعذيب الفلاحين واستغلالهم، لكنهم عذبوا مصر وأضاعوا استقلالها، وباعوا أراضيها للاجانب ·

والدور الذى لعبه كبار ملاك الأرض فى حياة مصر السياسية يتضمن حقائق مذهلة فالملكيات الكبيرة للاجانب تكونت بصفة أساسية من خلال شراء الأراضى وأعمال الرهونات، عن طريق رؤوس الأموال التى استطاعوا أن يكونوها من أعمال التجارة وغيرها، وبالاضافة الى هذا فقد أسرف كبار ملاك الأرض المصريين فى الديون لتغطية نفقات حياتهم الاستهلاكية، الأمر الذى انتهى بهم الى بيع أراضيهم للاجانب، وهى حقيقة تؤكدها حركة بيع الأراضى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر · فمن أطيان **عبد اللطيف باشا** البالغ مساحتها ٢٠٥٠ فدانا فى عهد **اسماعيل** والموزعة على مديريات الشرقية والجيزة وأسيوط وجرجا، اشترى الألمانى **كاريس بيرس** من رعايا بروسيا ٣٨٥ فدانا، واشترى يونانى اسمه **استرايو** وانجليزى يدعى **فتسترو** ٤٠٥ أفدنة، وحدث نفس الأمر بالنسبة لأطيان كثيرين من « الذوات » باعوها ليونانيين وأرمن ونمسويين وفرنسيين ·

وعرفت مصر فى ذلك الوقت عناصر « دولية » تولد فى بلد وتتمتع بجنسية بلد آخر، وتستغل الشعب المصرى، ومنهم **حبيب لطف الله باشا**، الذى ولد فى لبنان وحصل على الجنسية الروسية وعمل قنصلا لروسيا فى مصر، وفى مطلع القرن العشرين اشترى ٤٠٢٤ فدانا من مطاى بمديرية المنيا ·

كثيرون جاءوا مصر فقراء وأثروا من عرق أهلها ومن « خيبة » الاقطاعيين وسفههم الذين كانوا يكونون آلاف الأفدنة من عرق الفلاحين المصريين ثم يضيعونها فى الحانات أو القمار، وينتهى عرق المصريين الى الأجانب، ويضيع استقلال البلد ·

من الذين وصلوا مصر فقراء **سليم صيدناوى** الذى جاء عام ١٨٨٩ الى مصر — بعد أن سبقه أخوه سمعان اليها — واشتغل حائكا ثم فتح حانوتا صغيرا بالموسكى مع أخيه باسم **سليم وسمعان صيدناوى** ، وما لبثت تجارتهما أن اتسعت · وفى يوليو سنة ١٩٠٠ اشترى الأخوان **صيدناوى** مساحة ٤٠١١ فدانا من أطيان الدائرة السنية بمركز اطسا بمديرية الفيوم ، وبعد هذا التاريخ بثلاثة أعوام فقط اشتريا ١٣٢١ فدانا من أطيان الدائرة السنية بناحية شديرة بالفيوم ، كما اشتريا أيضا ٥٣٥ فدانا من تفتيش مغاغة فى العام التالى وبعد عام آخر اشترى الأخوان ١٠٥٢ فدانا من أطيان الدائرة السنية أيضا بالفيوم ، وذلك بعقد فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٠٦ ·

أيامها كانت مصر فى ظل الاحتلال تبيع بباخس الثمن أرضها للاجانب ·

فى الحقول : كان الفلاحون يعرقون ، يكونون بعرقهم آلاف الفدادين ·

على موائد القمار وفى الحانات وفى السياحة : كانت تضيع ·· وتذهب الى الخواجات ·

الضرتان والـكلى

كان « **يعقوب صنوع** » واحدا من أغرب الشخصيات التى شهدها التاريخ المصرى ·· عاش حياة غريبة بين حوارى القاهرة وقصورها ، وبيوت وشوارع باريس وملاهيها ، واشتغل بالسياسة والمسرح والصحافة ، وكتب مقالات وأزجالا وحواريات ، ودرس اليهودية والاسلام والنصرانية ، وأصدر عددا كبيرا من الصحف والمجلات فى مصر وباريس ، وكانت صحفه منشورات ثورية تهرب من خارج مصر الى داخلها ، فترتعد فرائص الحكام ، وتجند كل القوى للبحث عن أعداد مجلة ضئيلة الصفحات مطبوعة بالحجر ، تحمل جراثيم الثورة ·

ولد لأب يهودى رزىء بفقد الأبناء ، فنذر ان ولد له ولد آخر ، ليجعلنه مسلما ، حتى يعيش ، وهكذا جاء **يعقوب** وعاش فى حوارى القاهرة ، وهوى المسرح والصحافة ، وأصدر مجلته الشهيرة « **أبو نضارة** » فحمل اسمها وأصبح اسم أبو نضارة أشهر الأسماء فى القاهرة ، وعندما بدأ يمثل أطلق

عليه الخديو اسماعيل لقب « **موليير مصر** » فقرن اسمه باسم الكاتب المسرحى الفرنسى الكبير · وكان الخديو ذو الاتجاهات الاوربية سعيدا لأن مصر بها كاتب مسرحى موهوب كيعقوب صنوع ·

واستمر الخديو يحتفظ باعجابه وتقديره لموليير مصر ، حتى أخطأ يعقوب مرة فقدم مسرحية كانت الفاصلة ·

فعلى الرغم من أن الخديو اسماعيل كان قد تربى فى أوربا ، وعاش فترة فى فرنسا ، أكسبته اتجاهات متحررة بشكل عام ، الا أنه كان مليئا بالمتناقضات ، وبسبب خطأ فى التقدير وقع **يعقوب** فى انشوطة هذه المتناقضات ، فقد قدم فى احدى الليالى على مسرح قصر عابدين مسرحية اسمها (الضرتان) بناها على ابراز المتاعب التى يعانيها كل من يتزوج باثنتين من صداع فى الرأس وتشتت فى الذهن ·· ينتهى بخراب بيته وعقله ·· وما أن انتهت المسرحية حتى غضب الخديو غضبا شديدا ، وصاح فى يعقوب :

ـ يا موليير ·· اذا كانت كليتاك لا تحتملان سوى امرأة واحدة ·· فما ذنبى أنا وكليتاى تتحملان ·

وضحك يعقوب لهذا النقد المسرحى على الطريقة الخديوية ·

الاصفار ·· والحضارة

كانت عملية حفر قناة السويس دليلا واضحا على ما فعلته الحضارة الأوربية الرأسمالية فى بلادنا الفقيرة والمجهدة · بينما يفخر الأوربيون بأنهم نقلوا حضارتهم الى مناطق متخلفة وبدائية ، فانهم ينسون عادة الأساليب اللاأخلاقية والنهب والسلب الذى مكنهم من أن يبنوا حضارتهم على حساب عرق شعوب المستعمرات ، بينما يتمتعون بحياة مرفهة ، كان ثمنها دائما جوعنا وفقرنا وموتنا فى كل الأحوال ·

فى مذكراته « خليها على الله » روى الأديب الكبير يحيى حقى قصة واحد من ساسة مصر ، كان يتولى تحرير صحيفة الحزب الوطنى بعد أن تدهور حالها ، كانت ادارة المجلة قد أصبحت مجرد دكان صغير ، فيه عامل عجوز يصف الحروف ويدير مطبعة يد ، ويترحم على أيام « اللواء » · كان

يعمل فى المطبعة لا من أجل الأجر ، ولكن محبة فى مصطفى كامل · وكان التحرير فى صندرة نفس الدكان ، يجلس فيها محرر ما ويكتب ، ويمد يده بما يكتبه الى عامل الجمع ليجمعه ·

ذات يوم جال في خاطر رئيس التحرير ــ وقد زاد سخطه على الاحتلال البريطانى ــ أن يكتب مقالا عن خسائر مصر من جراء قناة السويس ، وصعد الى السحارة ، وكان الورق مجرد جزازات صغيرة لا تتسع الواحدة الا لجملة أو جملتين ، وامسك ورقة وكتب « ان مصر جندت لشق القناة ٦٠٠٠٠٠ عامل ، اشتغلوا ١٥٠٠ يوم ، فاذا قدرنا أن أجر الواحد منهم هو ٢٠٠ مليم فى اليوم الواحد » ، والى هنا انتهت الجزازة ، فمد يده بها الى عامل المطبعة ، وسأله أن يبدأ فى جمع الحروف ، وسحب هو ورقة أخرى وأكمل فيها « لبلغ ذلك ·· ر١٨٠ مليونا من المليمات أى ٠٠٠ر٠٠٠ر١٨٠ جنيه ، وانظر الى حماقة **اسماعيل** ، يقبل التحكيم بينه وبين ديلسبس الفرنسى فلا يجد فى أرجاء الأرض كلها الا فرنسيا آخر يحتكم اليه ، هو الامبراطور نابليون الثالث بدعوى انه صديقه ، ودفعت مصر بسبب هذه الحماقة ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠٠ فرنك » ، وفرغت الورقة الثانية فناولها رئيس التحرير للعامل ، واستمر يكتب « واذا حسبنا مساحة الأراضى الواقعة على ضفتى القناة والتى اغتصبتها الشركة ظلما وعدوانا لبلغت على الأقل ٠٠٠ر٦٠ فدان ، واذا قدرنا ثمن الفدان الواحد هو ١٠٠ جنيه لبلغت الخسارة ٠٠٠ر٠٠٠ر٦ جنيه » ·

وفرغت الورقة الثالثة فناولها للعامل ·· واستمر يكتب ، وكان يتكلم بصوت عال وهو يكتب ، فقال وكتب « أما حساب ترعة المياه الحلوة » ·· وعندها ارتفع صوت العامل العجوز من أسفل يقول له صارخا :

ــ يا سعادة البيه ·· اعمل معروف ·· خفف الخسائر شوية ، أحسن الاصفار خلصت من المطبعة ·

التمثيل على الناس

كانت طفولة المسرح المصرى حافلة بالمضحكات ومليئة بالمشاكل ·· أيامها كانت مصر تعيش فى ظل الخديو **اسماعيل** · وكانت هموم القلب المصرى عميقة ·· وجراحه بالغة ، كانت مصر توشك أن تصبح مستعمرة ،

وكان الناس قد ملوا ما يجرى فى الواقع من تمثيليات تجرى على ألسنة كتاب وصحفيين وشعراء منافقين وأرزقية وحكام بلا خلق ولا ضمير ٠

وجاء التمثيل ، ورأى الناس فيما يجرى على المسرح ما يختلف مع ما يرون فى الحياة ، ولأنهم كانوا يطمحون للقضاء على الذين يمثلون الشرف وهم بلا شرف ، وعلى الذين يدعون أنهم أنصار الحب والتسامح ، وهم بؤر الحقد والفساد والشر ، لذلك تدخلوا فيما يجرى على الخشبة وأصروا دائما على تعديله ٠

وكان من نصيب **يعقوب صنوع** الذى أنشأ أول مسرح مصرى أن يعانى كل هذا ، ألف مرة مسرحية من فصل واحد عن بنت اسمها صفصف : لعوبا كانت ، عبثت بكثيرين من الرجال حتى ساءت سمعتها فهجرها جميع الناس ، وأصبحت وحيدة لا يعنى أحد بها ٠ ولم يرض الجمهور عن هذه النهاية المؤلمة لصفصف ٠ كان الجمهور يعلم أن البغايا الحقيقيات يملأن الدنيا ، فلماذا يجور يعقوب على فتاة فقيرة ويتجنى عليها ؟ لماذا ينافق بالأخلاق ولا يغضب لعبث السادة والكبار ٠

ويوما وقف المتفرجون فى نهاية المسرحية يصفرون ويسخرون ٠٠ قال أحدهم مخاطبا يعقوب — الذى كانوا يسمونه موليير مصر — قال :

— أنت تعلم يا موليير أن صفصف فتاة شريفة ، وينبغى أن تجد لها زوجا جديرا بظرفها وجمالها ٠٠ عليك أن تخصص الفصل الأخير لزواجها ، اذا أردت أن نصفق لك والا فاننا لن نختلف الى مسرحك أبدا ٠

ويضطر المؤلف المخرج الى تغيير مسرحيته ، ويتصدى الناس لكل التمثيليات ينقدون ويرفضون ، ويصل الأمر الى أن الممثلين انفسهم أخذوا يكتشفون زيف ما يقولون من كلمات ، فيزدرون أنفسهم ، ويتمرد بعضهم على المؤلف ، وما يضعه على ألسنتهم من عبارات لا تعبر عنهم ، ولا عن مشاعرهم ، فيختنقون بالعواطف المزيفة ، ويشعرون بآدميتهم ٠٠ فى الصالة شعب يفهمها وهى طائرة ، لا تفوته شاردة ولا واردة ٠٠ لا يمكن أن يقنعه الحقودون بأنهم أنصار الحب والتسامح ٠٠ الذين يغتالون كرامات الموتى ٠٠ وينشرون الضغينة والبغضاء ، ويوما وقف ممثل وممثلة يقومان بدور عاطفى ساخن ٠٠ كانت الممثلة تزدرى زميلها وتكرهه لأنه حاول أن يجبرها على حبه فرفضته ، لكن دورها فى المسرحية كان يقتضى أن تقول :

— يا نور عينى الذى يعشقك قلبى وتعبدك روحى ٠

ويظن الممثل أنها تقول له صدقا فيهمس فى أذنها مباركا المسرح الذى يجعلها تتنازل عن كبريائها وتغازله ، وتضيق الممثلة ، وتنفجر قائلة لجمهور المسرح بصوت عال :

ـ ان كلمات الحب التى وجهتها لهذا الفتى المغرور الغبى لا تعبر عن احساسى ، فانى أوثر العمى على حبه ، ان مؤلف الرواية هو الذى وضع هذه الكلمات على لسانى ٠

وتنفجر الصالة بالتصفيق الحاد ٠٠ ان الممثلين ينكشفون ٠٠ يمثلون الحب وهم حاقدون ٠٠ والشرف وهم بلا شرف ٠٠ والوطنية وهم موصومون بالخيانة ٠٠ لكن المتفرجين يعلمون كل شىء ٠

ملك لا يمــوت

كان البابا « كيرلس الخامس » واحدا من ألمع بطاركة الكنيسة المصرية فى العصر الحديث ، اذ كان يملك قوة ديناميكية مكنته من أن يثير كل عدة سنوات حيوية عامة فى حياة الكنيسة الارثوذكسية ٠

وفى عهد « الخديو اسماعيل » بدأت الارساليات البروتستانتية الامريكية نشاطها وخاصة فى الصعيد ومدينة أسيوط بالذات ، فقد افتتحوا أقساما داخلية ، وسهلوا للتلاميذ من أقباط مصر الالتحاق بها ، وفى مستوى معيشة طيب ، ومن خلال الاقامة الطويلة أمكن المبشرين الأمريكيين تحويلهم من الارثوذكسية ، وكانوا فى هذه الأقسام يجبرون التلاميذ الأقباط على حضور الصلوات ، وتتبع العظات ، حتى يتحولوا تدريجيا الى المذهب البروتستانتى ٠ وأثار ما يحدث فى الصعيد عموما ، وفى أسيوط بالذات ، كثيرا من القلق فى نفس البطريرك فاستأذن « الخديو اسماعيل » فى القيام برحلة الى أسيوط بغرض الحد من ذلك النشاط ، وتحمس الخديو للفكرة وأمر بتخصيص باخرة نيلية لنقل البابا كيرلس الخامس ، الى حيث يريد ٠

ودخل البطريرك أسيوط فى موكب حافل على نمط دخول المسيح الى أورشليم ، اذ ركب على حمار وتقدم القسس وحاملوا الصلبان والاعلام وفروع النخيل والشموع ، وضاربوا الدفوف والمرنمون بالقبطية ، وسار ببطء من النهر الى المدينة والناس يزداد عددهم ، وازدحامهم كل دقيقة ٠٠ وكان محاطا بالجنود أمامه وخلفه بأمر الحكومة ٠

وعندما استقر فى المدينة بدأ حملة المقاومة ، وكانت المدارس القبطية تعتمد شهاداتها من ناظر المدرسة ومن مدير الاقليم ، وعندما حاولت مدارس

الارساليات اعتماد شهاداتها من المدير ـ وكان مسلما ـ رفض ذلك مساندة لجهد الأقباط المصريين فى الاحتفاظ باستقلال كنيستهم ، وهو ما جعل الطلاب من الأقبـاط ينفضون عن المدارس التى لا يعتمـد شهاداتها مدير المديرية ، ويفضلون المدارس الارثوذكسية ٠

وانتقل البطريرك بباخرته في النيل فذهب الى « أبى تيج » و « اخميم » حيث أقفلت المدرسة البروتستانتية هناك عقب زيارته ، وعندما وصل الى قنا أخبره وكيل القنصل الأمريكى أن قنصله العام فى القاهرة قد أخطره تلغرافيا أن يوافيه بكل ما يحدث فى أثناء زيارة قداسته ٠

وأكد البطريرك أنه لا يعير أية أهمية لما يعتقده القنصل الأمريكى أو أى قنصل عام آخر فى تصرفاته ٠

ومضى البطريرك يقاوم ٠٠ وعندما طلبوا منه أن تكون الكنيسة المصرية تحت رعاية ملك بريطانيا سألهم :

ـ هل يموت ملككم ؟

فقالوا : نعـم ٠

قال : اننا تحت رعاية ملك لا يموت ٠

المهر دار فى الساقية

احتفظت العامية المصرية بالعديد من الألفاظ ذات الأصـول الاجنبـة الشتى ٠٠ وكانت بهذا مؤشرا حيا لتاريخ مصر ، ولعذابها الطويل والمرير مع الغزاة ، عندما كانت معبرا للأفاقين الأجانب ، يأكلون خيرها ويزعمون أنهـم ملأوها رفاهية ، بينمـا كانوا يعيشون ويموتون تخمة ، وتموت هى جوعا وفاقة ٠

وأكثر من أى لغة أخرى فان التركية قد أثرت فى العامية المصرية بحكم الاحتلال التركى الطويل الذى استمر الى ما يقرب من خمسة قرون ٠ وهناك كلمات تركية متداولة بنفس معناها ومنها « **كرباج** » : من قرباج وهى كلمة تركية بمعنى السوط المصنوع من الجلد ، ومنها « **أودة** » : بمعنى غرفة ،

و « **بوية** » : أى لون أو صبغة ، « **أويما** » : أى حفر ، « **جزمة** » : أى الحذاء الطويل الساق ، « **شنطة** » : من جانطة أى حقيبة ، « **تنبل** » : أى كسلان ، « **أورمان** » : وهى فى التركية الغابة ، وتطلق على الحديقة المعروفة بهذا الاسم أمام جامعة القاهرة ٠

ومن الألفاظ الايطالية : « **جمرك** » : ومعناها الأصلى ـ مع تحريف فى النطق ـ « **تجارة** » ، « **ترمبيتة** » : أى بوق أو نفير ، « **كومبانية** » : وهى فى الايطالية شركة ، « **انتيكة** » بمعنى : قديم ، « **لوكاندة** » : أى فندق ، « **وابور** » : وتنطق بالايطالية فابور ، بمعنى بخارى ، ومن الكلمات الايطالية أيضا : « **تياترو** » و « **طاولة** » ٠

ومن فكاهات عصر **الخديو عباس حلمى الثانى** أنه كان يحتفظ فى قصره بثلاثة من الندماء يضحكونه وكان بينهم وبين « مهردار » القصر ثارات وخصومات ، والمهردار كلمة تركية تعنى « حامل الختم » ، وكانت له سلطة واسعة فى القصر الخديوى ، ويوما كان المهردار يضع لافتات على كل غرفة من حجرات الحاشية تدل على وظيفة من بها ، فلما وصل الى غرفة الندماء الثلاثة كتب عليها « انما نطعمكم لوجه الله » ، فغاظهم ذلك ، وأرادوا الانتقام منه ، فألفوا زجلا يعتمد على اختلاف المعانى بين الكلمات التركية والمصرية ، وفى احدى السهرات دخل الندماء ، فألقى كل منهم شطرة من زجل يقول :

كان عندى فى وسط البلد ساقية بتسقى الجلنار

دورت فيها التور عصى ٠٠ دورت فيها « المهر » دار

٠٠ ولا دمنهورى

بسبب قربها من الاسكندرية كانت « بدمنهور » منذ أواسط القرن الماضى نموذجا لمجتمع التجار ، وبالذات تجارة القطن التى رفعت كثيرين من أهلها الى قمة الثروة ، وهوت بهم مرة أخرى الى حضيض الحاجة وأحيانا التسول ٠ وفى مجتمع التجار لا تسود القيمة الخلقية المطلقة ولكن تسود بدرجة أو بأخرى المنفعة كقيمة ٠٠ وهو ما جعل الدمنهوريين شديدى الحرص والذكاء وجعل سكان المحافظات الأخرى ينصحون دائما من يلتقى بدمنهورى أن يأخذ باله وينتبه ، ويعد أصابعه بعد السلام عليه ٠

وبسبب الذكاء الدمنهورى فان أهل دمنهور كانوا من أشد أعداء تجار الأقطان الأجانب ، وما لبثوا بعد تجارب مريرة معهم أن أجلوهم جلاء نهائيا عن المدينة حتى قبل أن يجلوا عن مصر كلها ، وفى بداية الخمسينات لم يعد فى دمنهور منهم سوى تاجر واحد أكد أهالى دمنهور أنه بقى كمجرد رمز فقط على أن الأجانب كانوا يوما أصحاب كل شىء فى مصر ٠

وربما بسبب مهارتهم فى التجارة فان بقية المحافظات قد شنت حملات دعائية مضادة ضد أهلها وأطلقت عليهم المثل الشعبى المشهور « ألف نورى ٠٠ ولا دمنهورى » ٠ وقد نافس الأسيوطيون الدمنهوريين فى هذه النصاحة ، وتصوروا أنهم قادرون على هزيمتهم فى مجال الذكاء والقدرة على المكسب ، وسرعان ما كشفت التجربة عن هزيمة مريرة للاسايطة ٠٠ وأطلق الدمنهوريون نادرة تبلور نتيجة هذا الصراع ، تقول أن أسيوطيا قابل شخصا فى قطار الصعيد فسأله عن وجهته فقال المسافر أنه فى طريقه الى أسيوط فبادر الأسيوطى يحذره من أهلها وينبهه الى أنهم أذكياء ومهرة ، وأن عليه أن يعد أصابعه بعد أن يسلم عليهم ٠٠ واندفع يروى عشرات الحكايات عن التجار الذين نزلوا أسيوط وخرجوا منها بملابسهم الداخلية ٠

وكان المسافر صامتا طول الوقت الى أن سأله الأسيوطى عن بلده فرد بهدوء وثقة :

ــ أنا من دمنهور ٠

على الفور انهار الأسيوطى باكيا وقال له :

ــ طب والنبى خلى بالك من الأسايطة ٠

ظاهرة خليل أغا

حفر « **خليل أغا** » اسمه فى تاريخ مصر ، فالمدرسة التى تحمل هذا الاسم واحدة من أشهر المدارس الثانوية فى مصر ، خرجت أعلاما من زعماء الوطنية والسياسة وقادة الفن والفكر ٠

كان « **خليل أغا** » فى الأصل رقيقا ، جاء به من افريقيا ضابط نمسوى كان حاكما عاما على السودان أعلن اسلامه وتسمى باسم « **محمد امين** »

وأهداه الى والدة « **الخديو اسماعيل** » ·· ولم يمض وقت طويل حتى فاز خليل بثقة واعجاب والدة الخديو ، فأطلقت يده فى كل شئون الحاشية ، وبالذات فيما يتعلق بتربية الأمراء ، وتعهد مختلف شئونهم التعليمية والأخلاقية ·

وبسبب اخلاصه الشديد وحرصه على سمعة العائلة ، فقد غضب **خليل اغا** يوما على احدى الأميرات لأنها تأخرت فى الخارج مدة تزيد على ما حدده لها ، وتطاول فصفعها على وجهها وانفجرت أزمة كبرى فى قصر أم الخديو لهذا الحادث ، وثار له الأمراء وغضبت الأميرات ، وخرج منافسوا خليل من الخدم والأغوات الذين كانوا ينقمون عليه لمكانته من أم الخديو ·· وتوقع الجميع أن ينتهى نفوذ الأغا المزعج ، وبعكس ما توقع الجميع أيدت الملكة الوالدة موقف خادمها المخلص وثبتت مكانته ·

وظل **خليل اغا** يرتفع ويثرى ويشترى البيوت والعقارات والدكاكين والأراضى الزراعية حتى بلغت أرضه وحدها ١٨٠٠ فدان · لكن الزمن قلب بلا قلب ·· وهكذا خلف توفيق اسماعيل ·· وتدهورت مكانة الأغا المخلص ، وانتهزت الأميرة التى صفعها الفرصة فأوغرت عليه صدر الخديو الجديد ، وسرعان ما صدر قرار يتلاءم مع زمن الأغوات ان أمر الخديو بنفى خليل اغا الى الحجاز ، وما كاد يصل الى السويس حتى وجد أمرا آخر أبلغه اليه محافظ المدينة الذى ذكر له أن ولى النعم يترك له الخيار فى أن يموت بقطع عنقه بالسيف أو يتجرع كوبا من السم المركز ·· واختار خليل اغا أن يتجرع كأس السم فى قصره بحلوان ، حيث انتقل منه الى قرافة الامام منهيا حياته الغريبة التى كانت رمزا لزمن الأغوات ·

وترك زعيم الأغوات كل ثروته وقفا على طائفته وعلى العتقاء من الرقيق ، لكن الصراع بين خلفائه والخديو توفيق حول ادارة الوقف ظل دائرا حتى يوليو ١٩٥٢ ، فقد عزل الخديو عباس الثانى « **بلال اغا** » عن نظارة الوقف لأنه رفض ان يمنحه جزءا من أراضيه ، ورأى **الملك فؤاد** أن يضم هذا الوقف الضخم الى الأوقاف الملكية ليستولى على ايراده ، وفعلها تاركا المستحقين وكانوا ١٠٥ من الأغوات يتضورون جوعا ، وفعل الملك فاروق نفس الشىء ·

ومع تقدم الزمن كان الأغوات ينقرضون ، وظلت ظاهرة **خليل اغا** تحفر نفسها فى الوجدان المصرى دلالة على زمن يكبر فيه قوم بلا سبب الا أنهم عبيد وينخفضون بلا سبب الا لأن الذين يرفعونهم عبيد أيضا ·

على الله العوض

فى « برنبال الجديدة » ـ بمركز دكرنس ـ ولد ، كان من أسرة تشتتت فى البلاد أيام كان المماليك يحطون بكلكلهم على كل شىء ، فهاجرت الى عديد من القرى واستقر فرع منها فى برنبال ، من هذا الفرع ولد ، وفى حارة من القرية أقام مئتا شخص من أسرته ، يعيشون على دخل تافه ، كان الدخل كما قال « على مبارك » نفسه « رزقة بلا مال » ولم يكن عليهم شىء مما على الفلاحين ولا لهم علائق عند حكام الجهات ، وحتى ذلك الدخل لم يستمر ، فهجرت الأسرة برنبال وكان « على » وقتها فى السادسة ، فقدر له أن يسكن فى خيمة وسط خيام الاعراب بعد مسكن مستور ، يذهب الى الكتاب ـ فى قرية مجاورة ـ يوما وينقطع لقلة المال أياما ٠٠ وتتجمع المصائب فى الأفق فيدخل السجن بمؤامرة دبرت له بزعم أنه هارب من التجنيد ، رغم ان عمره لم يتعد الثامنة عشر ، وفى البيت كان قد قرأ القرآن على أبيه ، أما فى مركز دكرنس فقد علم من فراش المأمور أن سيده بلغ هذه المكانة لأنه تعلم ودخل مدرسة فى القاهرة المحروسة يتعلمون فيها الخط والحساب واللغة التركية وغير ذلك ، يدخلها الناس تلاميذا فيخرجون حكاما ، ويستهويه الحلم فيهرب الى « منية العز » ليدخل فيها كتابا ، ويسترده أباه فيهرب فى ليلة مقمرة حاملا دواته وأدواته ٠

وأخيرا يدخل المدرسة ، ويتخرج منها فيلتحق بمدرسة المهندسخانة ، ويختاره سليمان باشا الفرنساوى الى بعثة فى باريس ، فيتعلم ويتعلم ، لكن ذكريات « برنبال الجديدة » لم تكن قد فارقت العقل ، وعندما يعود ضابطا مهندسا ، تكون الدنيا قد تغيرت فى مصر ، مات ابراهيم وانتهى عصر محمد على ذى الميول المتحررة الذى كان يحب أوربا ويزيد أن يجدد مصر بالحضارة والفكر والعرفان ، وجاء عباس ذلك الذى يكره المدارس ويزدرى المصانع ويعتبر أن الفكر والعلم تصديع للرؤوس ٠٠ وهكذا تجمد على مبارك ٠

وجاء سعيد فيقضى على مبارك فترة حكمه أيضا بلا عمل تقريبا ، ومضت أربعة عشر عاما قبل أن يبدأ على مبارك عمله العظيم فى تطوير التعليم المصرى ، وبناء أسسه ٠

فى تلك السنوات القاسية كان فتى « برنبال » يعيش حزينا ٠٠ كان قد اكتشف قسوة لعبة الحكم فى مصر ولاأخلاقية الطغاة مهما كانوا مستنيرين ، فلا يكفى أن تكون عالما أو مفكرا أو صاحب رأى لكى يستفيد منك الوطن ، ولكن يجب أن يرضى عنك السلطان أو يستظرفك ٠

ويوما استدعاه عباس باشا الجهول وكلفه بمهمة ، وهدده بأنه اذا لم يقم بها فسوف يسلب نعمته ويلبسه لبس الفلاحين ، وفى عهد سعيد أبعد عن

العمل ، فاستأجر بيتا صغيرا وقاسى من شظف العيش ومرارة الضيق ، ساعتها اعتزم ـ كما يقول فى مذكراته ـ أن يعود الى أهله فى« برنبال » ويعيش معيشتهم « وعلى الله العوض فى نتائج الفكر وثمرات المعارف ، ولنفرض أننا ما فارقنا البلد ولا خرجنا منها » ٠

كان علي مبارك يعيش وقتها مأساة رجل يفكر فى بلد لا يحترم الا الجهلاء ٠

وعلى الله العوض ٠٠

مصـــر المحبوســـة

خلال حكم الخديو اسماعيل ، تسللت رؤوس الأموال الأجنبية الى مصر ، وأصبح اقتصادها كله اقتصادا تابعا ، لدرجة أن ميزانيتها أصبحت ميزانية تسديد ديون ٠٠ وتدهور الحال الى حد أن أصبح من بين وزراء مصر ، وزيران أوربيان ، أحدهما للاشغال حيث تصب كل ايرادات الدولة ٠٠ والآخر للمالية ليسيطر على كل المصروفات ٠

برغم كل هذا التدهور ٠٠ فقد كان اسماعيل يحكم مصر بالحديد وبالنار ، جمع حوله حاشية من الحمقى والعملاء وصفهم « عبد الله النديم » فى مقال له ، فقال : ان اسماعيل كان « لا يرفع الا الأراذل ولا يقرب الا الأسافل » ، وأنه أرسل الى الأنحاء « كل صخرى الفؤاد ، وحشى الأخلاق وفى الأصل ردىء المنبت ، سيىء التربية ، خبيث الطبع ، لا يرعى حرمة للانسانية ، ولا حقا للدين ولا ذمة للاخلاق » ٠

وكان هؤلاء هم الذين يحرسون شعب مصر السجين ٠٠ ذلك ان البلاد ، كما يقول النديم : « كانت على سعة أطرافها ، كليمان أعد للمذنبين ، ومجلس جزاء هيىء لأرباب الجرائم والخاطئين ، ولو أن سائحا جويا صعد فى درجات الهواء الى حد يرى ويسمع من تحته من أهالي الديار المصرية ، اذ ذاك لرأى أمة تتقلب على جمر العذاب ٠ على غاية من الاختلاط والاختباط ، تتحرك كالدود على غير نظام وتسمع ضجة عامة وصيحة صاخبة وتزعج السمع ، وتستفز الهاجع وتفتت قلب من أودع ذرة من الاحساس الانسانى » ٠

وبعد ذلك بسنوات طويلة كتب **سعد زغلول** الى وزير الخارجية البريطانية محتجا على منع الوفد من السفر فقال : « ان الأمة المصرية بأسرها من الوزير الى أصغر فلاح محبوسون داخل حدود بلادهم ، ولا يسمح لأحد منهم بالخروج من هذا الحصار الشديد » .

أيامها كانوا يطلقون عليها اسم مصر المحروسة .. وكان آخرون يسمونها مصر المحبوسة .

أفنديـنـا والملاليم

كان « **الخديو اسماعيل** » ـ برغم أفضاله الكثيرة ـ من أكثر حكـام مصر تبذيرا واسـرافا وسفها ، وفيمـا بعد ، ثبت أن أفندينا ولى النعم « يبقشش » من جيب غيره ، وأنه ينزح من جيوب الفقراء ملايين الملاليم التى يعيشون منها .

ومما تناقله عنه الرواه ، أنه سافر الى باريس فى عام ١٨٦٧ ليزور « معرض باريس العام » وهناك التقى بأحد النبلاء الفرنسيين شبه المفلسين ، كان النبيل يعيش فى قصر جميل فى احدى ضواحى باريس ، فاخر الأثاث ، ثرى الرياش ، وأعجب **اسماعيل** بالقصر ، وأعجب أيضا بهيفاء لا تتجاوز الخامسة عشر من عمرها ، كانت ابنة النبيل ، وعلى مائدة الغداء الذى تناوله **اسماعيل** بدعوة من النبيل ، أبدى لمضيفه استحسانه العظيم لقصره ، فشكره النبيل على تلطفه .

وهما فى قاعة التدخين فكر الخديو فى أن يساعد النبيل بشكل لا يجرح احساسه أو يشعره بأنه علم بضيقه المادى ، فسأله عما اذا كان يريد أن يبيع قصره ، وكان الرجل على شدة احتياجه الى نقود ، لا يرى فى استطاعته التنازل عن ملكية ذلك البناء الفخم ، ولكنه شأن كل نبيل جليل استنكر مقابلة لطف الخديو بخشونة الرفض ، فعن له أن يبالغ فى الثمـن ليحملـه على العدول عن رغبته فى الشراء ، فقال :

ـ انى قد أبيعه يا صاحب الجلالة مقابل خمسة ملايين من الفرنكات .

ولم يكن القصر يساوى أكثر من مليون ونصف مليون فرنك فقط . لكن أفندينا كان سفيها وكان يبقشش من جيب غيره ، فالتقط الكلمة وهى طائرة ، وقال :

ـ انى اشتريت منك بهذا المبلغ ٠

وفى الحال اخرج أفندينا دفتر شيكاته وكتب تحويلا بالمبلغ على احد بنوك باريس ، ونظر الى الغادة العذراء ، وقال بابتسامة مصرية آسرة يخاطب النبيل :

ـ على انى أظنك يا سيادة النبيل لا تمانع فى أن تحرر عقد البيع لابنتك اللطيفة هذه تخليدا لذكرى استحسان خديو مصر لظرفها وأدبها ، ولكيلا يقال انى زرتك لأجردك من ملكك ٠

وقام أفندينا مودعا بما يليق بكرمه ٠٠ اما اهل مصر فكانوا يعيشون فى مجاعة ضارية وكان الطاعون البقرى قد قضى على مواشى الفلاحين ، وكان قانون جديد قد صدر بنزع ملايين الملاليم الصدئة من جيوب الفلاحين ٠

أفـراح الأنجـال

فى منطقة « جاردن سيتى » بالقاهرة شارع يحمـل اسـم : أفراح الأنجال ٠

واللافتة التى تحمل هذا الاسم ، وضعت تذكارا لمهرجـان من اغرب المهرجانات التى شهدتها مصر خلال حكم **الخديو اسماعيل** ٠

حدث هـذا منذ مائة عام تقريبا وكان قد مضى على تولى الخديو اسماعيل للأريكة الخديوية حوالى عشر سنوات ٠٠ عندما قرر ولى النعم أن يحتفل فى ليلة واحدة بزواج ابنائه الأربع لأربعة اخرين من أقاربهم ٠

فى يوم ١٥ يناير ١٨٧٣ بدأ مهرجـان أفراح الأنجال : زف الأمير محمد توفيق ولى العهد (الخديو فيما بعد) الى الأميرة امينة الهامى (أم المحسنين) حفيدة عباس الأول ، وتزوج الأمير حسين (السلطان حسين كامل فيما بعد) من الأميرة عين الحياة هانم ، وفى نفس الليلة تم زواج الأمير حسن من الأميرة خديجة هانم ، وزفت الأميرة فاطمة ابنة الخديو اسماعيل الى الأمير طوسون ٠

واستمرت تلك الأفراح أربعين ليلة كاملة ، أضيئت خلالها القاهرة كلها بـ « وقدة » استمرت طوال الليالى الأربعين ، واقيمت الأفراح فى سراى القبة وقصر النزهة ، وفى قصرى الجيزة والجزيرة ٠٠ ومدت الموائد فى كل تلك القصور ، واستمر المطربون فى الغناء ، وأحيا الحفلات أشهر مطربى العصر ، فغنى عبده الحامولى وعثمان المنيلاوى ، ورقصت أم الشعور ، أشهر راقصات العصر ، وسال المال بدون حساب ، وصرفت مئات الألوف من الجنيهات ٠

أيامها كانت كارثة الديون تطل برأسها ، وكان مرتزقة الأجانب قد احتلوا مصر سلميا بالفعل ، وكان الحكم الدكتاتورى ينفى كل صاحب رأى أو عقيدة ، وكانت السلطة تحكم بالسجون وفناجين القهوة المسمومة ، التى كان الخديو يسقيها لشركائه فى الطغيان والسرقة اذا ما تمردوا عليه ، وهموا بافشاء الأسرار واظهار المسروق ، وكان هناك من يرتفعون الى أعلى مراكز السلطة بلا سبب ، ويذهبون أيضا بلا سبب ، والمجاعات والأوبئة تجتاح البلاد ، والفلاحون يعانون من السخرة ويعملون بالكرباج ، والغزاة قد وضعوا أقدامهم بالفعل على أرض مصر ٠

المضحك فى هذا كله ٠٠ أن اثنين من عرسان مهرجان « أفراح الأنجال » خانا مصر ، كان أولهما هو الخديو توفيق الذى سلم مصر للغزاة البريطانيين فى عام ١٨٨٢ ، وانضم اليهم وأصدر منشوره الشهير ، آمرا قائد الجيش احمد عرابى أن يكف عن المقاومة ، وأن يلقى بسيفه ، ويسكت مدافعه ، ويحتضن جنود بريطانيا العظمى الذين وصفهم توفيق بأنهم أصدقاء لجنابه الخديوى ، والثانى هو السلطان حسين كامل الذى قبل أن يحكم مصر بعد اعلان الحماية البريطانية عليها فى عام ١٩١٤ ، فوافق بذلك على شرعية التبعية المصرية لبريطانيا ٠

وهكذا تزوج الأنجال بأموال الشعب المصرى وحريته ٠٠ ثم باعوا استقلاله ، وتركوا لافتة أفراح الأنجال تؤكد أن شر البلية ما يضحك ٠

البطريرك والبشر

عرف الأقباط المصريون ، من تجربتهم مع الدولة البيزنطية ، أن استقلال كنيستهم واستقلال وطنهم ، هو الضمان الأساسى لتمتعهم بحرية العبادة ٠٠ فعلى الرغم من أن البيزنطيين كانوا مسيحيين ، فقد لاقى أقباط مصر على أيديهم العذاب والاضطهاد لأنهم كانوا مستعمرين أولا وقبل كل شىء ٠

والى الآن يذكر الأقباط فى صلاتهم الدورية ، سير الشهداء الذين سالت دماؤهم على يد سلطة تزعم لنفسها الايمان بالمسيحية ، ومع ذلك كان عدد الذين قتلتهم من المسيحيين المصريين يفوق بما لا يقاس من لقوا حتفهم منهم على يد الأباطرة الوثنيين .

ولهذا كله ، رفض أقباط مصر دعوة زعماء الحرب الصليبية للاشتراك فيها ، أو تقديم أى مساعدة لهم فى الاستيلاء على مصر ، وهو ما كان أحد الأسباب لفشل حملات الصليبيين لغزو مصر ، وغاظ ذلك المستعمرين الأوربيين الذين جاءوا وهم يرفعون رايات الصليب ، فأصدروا قانونا يمنع أقباط مصر من زيارة بيت المقدس — عندما احتلوها — بدعوى انهم ملحدون .

وعندما دخل الصليبيون دمياط ، أساءوا الى الأقباط وطردوا المطران المصرى لكنيستها وعينوا آخر من قبل كنيسة روما ، كما أنهم قتلوا كثيرين منهم .

وفى سنة ١٢٠٤ م وفى أيام **الملك العادل** ، عبر « الافرنج » حدود مصر من جهة رشيد وتقدموا الى « فوة » وتحصنوا فيها ، وكان فيها أقباط كثيرون ولها أسقف مخصوص ، فقتلوا كثيرين وطردوا غيرهم ، وعندما انهزم الصليبيون ، ابتهج الأقباط ، ولما رأى **الملك الكامل** منهم ذلك ركن اليهم وقربهم ورفع مقامهم .

وقاومت الكنيسة المصرية دائما المبشرين الغربيين ، وخشيت منهم على رعاياها ، وكان البابا « **كيرلس الخامس** » شديد الضيق بنشاط البعثة التبشيرية الامريكية ، واعتبرها تعمل فى خدمة بلادها وكنيستها ولا تعمل فى سبيل المسيح .

وفى حوار بينه وبين المبشر الأمريكى « **يوحنا هوج** » حضره القنصل الأمريكى ، حاول المبشر أن يثنى البابا عن مقاطعة الارساليات التبشيرية ، وقال له :

— ان المبشرين الأمريكان لا يعلمون الناس الا الانجيل الطاهر ، وكنا لذلك ننتظر أن تشكرهم غبطتك .. وأن تفسح لهم مجالا لتعليم الأنجيل ..

وثار **كيرلس الخامس** ثورة عنيفة ، وقال له :

— الانجيل الطاهر .. ؟! وهل الامريكان وحدهم الذين عندهم الانجيل ؟ لماذا لا يعلمونه للزنوج فى بلادهم اذا كان عندهم ؟!

ولم يحر المبشر الأمريكى جوابا ..

يـد الله على قلب الملك

كان السلطان « **عبد العزيز** » هو الخليفة العثمانى الوحيد الذى جاء مصر زائرا ، بعد السلطان سليم الذى دخلها فاتحا ، حدث هذا فى عام ١٨٦٣ ، عندما دعاه **الخديو اسماعيل** لزيارته ، وكان هدفه من ذلك الحصول على فرمان سلطانى بتغيير وراثة العرش لتكون فى ذريته ٠

وبوصول السلطان ، أخذ بعض رجال حاشيته يلقنون كبار المسئولين تقاليد المثول فى حضرته ، وشق على كثيرين أن ينحنوا ويقبلوا الأرض بين يدى السلطان ، وعارض رجال الدين فى ذلك ٠٠ ولما أصر رجال الحاشية على أن تلك هى تقاليد البروتوكول العثمانى تظاهر رجال الدين بالقبول ٠٠ وأخذوا يشاهدون ما يعرضه عليهم رجال البروتوكول العثمانى من حركات ينبغى عليهم القيام بها حين يمثلون بين يدى السلطان ٠

وكان الشيخ « **حسن العدوى** » أحد علماء الأزهر الشجعان ، وكان من رأيه أنه لا يجوز السجود لغير الله ، فلما مثل مع زملائه بين يدى السلطان ، رفع يده بالتحية الى رأسه قائلا :

ـ السلام عليكم ورحمة الله يا أمير المؤمنين ٠

وذهل السلطان لحظة ، وارتبك خبراء البروتوكول ، ثم أنقذ السلطان الموقف بأن رد على التحية بأحسن منها ٠

وعندما جاء دور « الانبا ديمتريوس » بطريرك الأقباط ، تقدم الى حيث يقف السلطان وقبل صدره من الجانب الأيسر فى موضع القلب ، وجفل السلطان لهذه التحية غير المألوفة ، ونظر اليه بدهشة ، فقال البطريرك :

ـ يا صاحب العظمة ، جاء فى الكتاب المقدس « ان يد الله على قلب الملك » وقد أردت أن أقبل يد الله ٠

وبعكس ما ظن رجال البروتوكول فقد أعجب السلطان بشجاعة الشيخ العدوى ، والأنبا ديمتريوس ، وظل يروى موقفهما بتقدير واحترام ٠

الشـاعر والأمـير

كتب **يعقوب صنوع** مرة يصف نفسه فقال :

ـ حين بلغت الثانية عشرة من عمرى كنت أقرأ التوراة بالعبرية والانجيل بالانجليزية ، والقرآن بالعربية ، وأفهمها تماما ٠

وبهذا لخص الصحفى المصرى المشاغب حياة عريضة بدأت فى حوارى القاهرة عام ١٨٣٩ وانتهت بعد رحلة شاقة وعريضة فى باريس سنة ١٩١٢ ٠

كان منذ طفولته مشاغبا شديد الاعتداد بذاته ، وهو فى الثالثة عشرة من عمره كتب قصيدة مدح بها ناظر مدرسته ، ولما قرأها على أبيه اقترح الأب عليه أن ينظم قصيدة فى مدح **الأمير أحمد** حفيد **محمد على** ، فكتب قصيدة طويلة قدمها والده للأمير الذى لم يصدق أن صبيا فى سن الثالثة عشرة يستطيع أن يكتب هذه الأشعار ٠

وطلب الأمير أن يرى هذا الطفل ذا الذكاء الخارق ، وذهب الصبى ليلقى الأمير ، وكان الأب قد أوصاه بما يفعل ٠

فى مذكراته يروى ما حدث فى المقابلة فيقول : « كانت قاعة الاستقبال غاصة بالزائرين عندما دخلت وقدمنى والدى الى الأمير وهو يقول :

ـ هذا هو الشاعر الصغير الذى يطلب شرف لثم يديكم ٠

أما أنا فقد حييته بتلك العبارة البسيطة :

ـ السلام عليكم ورحمة الله ٠

فنهرنى أبى بعنف ، وقال لى بصوت خفيض :

ـ قبل يده أيها المتعس ٠٠

فأجبته : لا ٠٠ لن أقبلها ٠٠

فما كان من والدى الا أن هددنى ولكننى تماديت فى الرفض ٠

ويذكر الصبى الصغير أن الأمير لاحظ هـذا اللغط الذى شـغل الابن وأباه ، فاستوضح الوالد اسبابه ، غير أن يعقوب سبق اباه الى جواب حازم فى كبرياء ملحوظ ، وتوجه الى الأمير قائلا :

ـ لا أدرى لماذا يريد والدى منى أن أقبل يدكم الملكية ٠٠ هل أنت امام او قسيس أو حاخام ٠٠ اننى انسان مثلك بل أنا أعرف قرض الشعر ، وأنت لا تعرفه ٠

وعلى عكس ما تصور الأب ، الذى نزلت عليه كلمات ابنه كالصاعقة ، لم يغضب الأمير من كلمات الصبى الواثق من نفسه ، بل سر سرورا عظيما ، وأمر بارسال الطفل المشاغب الى أوربا لتلقى العلم على حسابه ٠

فيما بعد تصدى **يعقوب صنوع** بالعداء لواحد من أقرب أقرباء الأمير ، هو **الخديو اسماعيل** ، ونفى يعقوب الى باريس فأصدر عشرات من الصحف يهاجم بها الخديو ، وكان يسميه الفرعون ..

ولم يرحمه حتى وهو فى أخريات أيامه عندما عين **شريف باشا** رئيسا للنظارة متصورا أن هذا الديمقراطى الرشيد سينقذ الوضع المتردى فى مصر وقتها ..

وهكذا عاش يعقوب طفلا متطاولا بالحق ، وصحفيا مشاغبا بالثورة .

احمد أفندى يفصل من الوظيفة

عندما ذهب الزعيم « **احمد عرابى** » وزميليه « **عبد العال حلمى** » و « **على فهمى** » الى ديوان وزارة الداخلية ليقدما لرياض باشا ـ رئيس الوزراء ـ عريضتهم الشهيرة التى طلبوا فيها عزل وزير الحربية الشركسى **عثمان رفقى** ، تأمل رئيس الوزراء فى العريضة ثم قال :

ـ ان أمر هذه العريضة مهلك وهو أشد خطرا من عريضة « احمد أفندى فنى » .

وعريضة « **أحمد أفندى فنى** » واحدة من مصطلحات العصر ، ذهبت مثلا لمن يتدخل فى شئون الحكم الديكتاتورى فينال جزاءه الرادع . وكان « **احمد أفندى** » رئيسا للمترجمين بوزارة المالية ، على صلة طيبة بجميع القيادات الثائرة فى الجيش ، وكان الضباط يجتمعون فى منزله ، يتذاكرون ما آلت اليه حال البلاد ويذكرون ـ على حد تعبير مؤرخ معاصر ـ ما هم فيه من الشدة والفاقة ، ويرددون حديث ما يعانيه أهل البلاد من جفاء رياض باشا واستصغاره بأمور الرعية .

وكان لأحمد أفندى مشكلة مالية تتعلق بمساواته بزملائه من موظفى وزارة المالية ، فكتب للوزير عريضة يطالب فيها بمرتباته المتأخرة وعلاواته الضائعة ، وغير ذلك مما يكتبه عادة موظف مظلوم ومنسى ، وما أن وصلت عريضته الى المسئولين حتى فكر رياض باشا فى وسيلة يهدد بها الثائرين ويفرق صفوفهم ، وهكذا كبس البوليس ذات ليلة على منزل أحمد أفندى

وقبض عليه ، وعلى من معه ، فاحتجزهم أياما ، وقدم أحمد افندى للمحاكمة ، وفضلت الحكومة ألا تحاكمه بتهمة الثورة على الأوضاع لكى لا تفضح ما ينبغى أن يظل مستورا ، ولهذا حاكمته بتهمة أنه كتب عريضة تتسم بقلة الأدب ولأنه تجاوز الاحترام الواجب للمقامات فيما كتبه لوزيره بشأن العلاوات الضائعة ، وعوقب على ذلك بنفيه الى السودان حيث مات هناك ٠

وهكذا كانت اشارة **رياض باشا** لعريضة « **أحمد فني** » اشارة ذكية ٠ لكن الزمن كان قد تغير ٠٠ وهكذا رد عليه « **عرابى** » ردا لم يكن يتوقعه ، قال :

ـ اننا لا نطلب الا حقا وعدلا ، وليس فى طلب الحق من خطر ٠٠ فما هذا التعريض والتخويف ؟!

وأمام هذا الرد المفحم لجأ رياض الى الملاينة فقال :

ـ أنتم تطلبون مجلس النواب ٠٠ وليس فى مصر من هو أهل لأن يكون عضوا فى مجلس النواب ٠

وجاء رد عرابى هادئا وقاسيا :

ـ أنت مصرى ٠٠ وباقى النظار مصريون والخديو أيضا مصرى ٠٠ أتظن أن مصر ولدتكم وعقمت ؟!

وبينما الحديث يجرى ٠٠ كان « احمد افندى فنى » الذى فصل من خدمة الحكومة ، وحكم عليه بالسجن اربعة أعوام نفيا الى السودان ، يعانى سكرات الموت ٠٠ لكن مصر كلها كانت تنتشى بالحياة ٠

الصحافة والثورة

كان « **ابراهيم اللقانى** » صحفيا وخطيبا وثائرا ، وواحدا من الذين وهبوا مصر الثورة كل جهدهم ، وساهموا بنضالهم فى تمهيد الأرض لأعظم أحداث مصر فى القرن الماضى وأكثرها أصالة : الثورة العرابية ٠ فعندما حط « **جمال الدين الأفغانى** » رحاله فى مصر أنشأ جامعة شعبية ، وفى هذه

الجامعة تخرج كثيرون ، قدر لهم ، فيما بعد ، أن يلعبوا أدوارا بارزة فى حياة مصر ، وكان منهم : عبد الله النديم ، ومحمد عبده ، والبارودى ، وعرابى ٠

وكان منهم أيضا **ابراهيم اللقانى** ٠٠

فى باكورة حياته اختار مهنة كان يعلم أنها التى ستمكنه أن يؤثر فى الناس ، وينقل اليهم أفكاره ، ويعلمهم ويتعلم منهم ، وهكذا اختار الصحافة ٠ وكان **الأفغانى** فى أواخر عهد **اسماعيل** ، قد أوصى تلاميذه باصدار الصحف لتكون منابر للدعوة للثورة ، وهكذا بدأت الصحف تترى ، فصدرت « مرآة الشرق » التى أصدرها **سليم عنجورى** ، ثم تنحى عنها فى ابريل سنة ١٨٧٩ ليتولاها « **ابراهيم أفندى اللقانى** » بايعاز من السيد « **جمال الدين الأفغانى** » وكان « اللقانى » قبلها يكتب فى جريدتى « مصر » و « التجارة » ٠

على صفحات تلك الصحف كان « ابراهيم اللقانى » يكتب عن الدستور ، وعن الحرية ، وعن ميزانية مصر التى تحولت الى ميزانية تسديد ديون ، ويفضح المستثمرين الأجانب من حثالات الرأسمالية الأوربية ، الذين حطوا بكلكلهم على مصر ، يزعمون أنهم يصنعون رخاءها ، بينما المجاعات تمرح فى أركان الوادى الخصيب ، وينتشر الطاعون فى الصعيد ، وتموت الأبقار ويموت الناس ، وأصحاب الأسهم من الأوربيين قد صدروا أموالهم وبدأوا بعدها يدخلون ، كما يقول المثل الشعبى « بحمارهم » ، فيطالبون بتعيين وزراء يمثلونهم فى السلطة ، وبدور لهم فى اصدار التشريعات والقوانين ، ويصدرون صحفا تعبر عن مصالحهم ٠

فى وسط هذا الجو كان « **اللقانى** » ومجموعة من الصحفيين المعادين للاستعمار ، والحريصين على استقلال مصر ، يدافعون بشراسة ، ويكشفون الأكذوبة التى تروجها الصحف الناطقة بلسان الاحتكارات الأجنبية ، وتغلق صحف كثيرة عمل فيها « **اللقانى** » فيدخل بقلمه الى صحف أخرى ، ويكتب كثيرا ، ويحلم بيوم يتفجر فيه الغضب المصرى على كل هذه المهانات ٠

وتنطلق شرارة الثورة من الجيش ، ويلقى « **اللقانى** » بثقله كله وراءها ، ويصبح نجما بارزا من نجوم محافلها ، ويتزايد دوره بعد أن ينتصر الثوار فى ٩ سبتمبر ١٨٨٣ ، ثم بعد أن ينجحوا فى ازاحة « **شريف باشا** » الذى كان يحاول « فرملة » الثورة ، وتحديد اطارها فى بعض الاصلاحات الجزئية ، واصدار دستور شكلى لا يجعل للمصريين دورا فى تقرير مالية بلادهم ٠

وعندما ينجح الثوار ، تقام الاحتفالات فى كل مكان ابتهاجا بوزارة **البارودى** ، ويصدر الدستور وتأتى الفرصة « **اللقانى** » لكى يقول كل ما لديه ، فعندما أقامت جمعية « المقاصد الخيرية » حفلتها ، وقف خطيبا أمام **البارودى** **وعرابى** وبقية الوزراء ، فتحدث عن الدستور وهاجم الحكم الاستبدادى ،

وطالب المصريين بأن يعضوا بالنواجذ على حريتهم لكى يمنعوا أى انسان من التصرف فى قضية بلادهم وهم صامتون ٠٠ وعقب النديم على خطابه ـ وكان يفعل ذلك دائما ـ ففى كل اجتماع عام كان « اللقانى » يقف ليتحدث مشيدا بالحرية ، ثم يقوم النديم ليعلق ٠٠ وظل الاثنان لزمن طويل ألمع النجوم فى سماء الصحافة المصرية ، يكتبان ويخطبان ويتصديان لكل محاولات الكذب أو الخديعة ، أو الضحك على الشعب ٠

وعندما أجهضت الثورة وتسلط الخونة والكلاب ٠٠ كان طبيعيا أن ينفى « اللقانى » ويطرد من مصر الى بيروت ٠٠ لكن خسائر الثورة كانت ما تزال فى أرض مصر ! ٠

الصحفى المقاتل

كان « عبد الله النديم » أول محرر عسكرى فى تاريخ الصحافة المصرية ، كان صعلوكا مصريا عظيما ، ولد فى أحد مخابز المنشية فى الاسكندرية ، وقضى طفولته فى شوارعها ، ونفذت رائحة حياة الصعاليك الى قلبه ، فهجر الجامع الأنور الذى كان يتعلم فيه بعد سنوات قليلة ، وبدأ سياحته الطويلة فى قلب مصر ، أصبح أحد عمال التلغراف فى السكة الحديد ، وظل يتنقل من محطة الى أخرى حتى استقر فى محطة بنها ، واختلط بسواقط المجتمع ، هؤلاء الذين تتركز فيهم كل تناقضات الحياة ، وكتب يصفهم ، فقال :

ـ عندى من الأوباش ٠٠ كل سكير وحشاش ٠٠ حزب يلعب الضمنة وفريق يقرأ كليلة ودمنة ، وقوم يلعبون النرد ، وشخص يقزح كالقرد ٠

ومن مخالطة هؤلاء ينتقل الى مكتب تلغراف « القصر العالى » مقر الأميرة خوشيار هانم أم الخديو اسماعيل ، فيرى الوجه الآخر لنفس العملة ، ويدرك أن مصر مليئة بالأوباش والأشرار ، لأن فيها أمثال هذه الهانم الخوشيار ٠

وبعد جولة طويلة فى قلب مصر يجد النديم مكانه الحقيقى ، ويلتحق بركب عرابى وينتمى نهائيا للثورة ، كان أيامها يصدر جريدة اسمها « التنكيت والتبكيت » ملأها بالهجوم الحاد على السيطرة الأجنبية ، وفكرت

حكومة رياض فى نفيه ، فسارع **على فهمى** - ثانى زعماء الثورة - لحمايته ، وقال لرياض :

- ان نديما منا معشر العسكرية ، وان لم يحمل سلاح العسكرية ، ولئن أخذتموه بغتة من البلاد ، حافظنا عليه بالأرواح والأجناد .

وبعد قيام الثورة طلب منه **عرابى** أن يغير اسم جريدته ، وكتب بنفسه الى ادارة المطبوعات يقول : **لدخولنا فى عصر جديد وفوات زمن التنكيت اقتضى تبديل جريدة « التنكيت والتبكيت » الأدبية والتهذيبية باسم « الطائف »** .

وبعد أول طلقة على الاسكندرية ، تحولت « الطائف » الى نشرة عسكرية سياسية ، وترك **النديم** مقرها فى القاهرة ، وذهب الى معسكر **عرابى** فى كنج عثمان ، بجوار الاسكندرية ، ليصدر صحيفته من معسكر الجيش : يسهر طول الليل ، يشرف على العامل الذى يصف الحروف ، ويصحح التجارب ويكتب التعليقات ، ويحصل على الأخبار مما كان يرد الى مقر الجيش ، فينشرها مع البلاغات العسكرية ، فاذا ما نشب القتال سارع الى ميدان المعركة ليصفها ويكتب عنها ، معرضا حياته للخطر ، حتى أنه كان فى احدى المعارك يسير على جواد بجوار اللواء **على فهمى باشا** قائد الجبهة ، فانطلقت رصاصة مرقت بين رأسيهما .

كان صحفيا ومقاتلا وشاعرا وابنا للشعب ، لذلك لم ينسه الشعب أبدا ..

ذكاء الثوار

كثيرون اتهموا « **عرابى** » - بعد أن أصبح بلا حول ولا قوة - بالغباء والبله . وبأنه كان غير مثقف قاد البلاد الى هاوية ، وتسبب فى هزيمتها ، وصحيح أن هؤلاء كانوا يلعقون حذاء « **عرابى** » وهو فى قوته متطوعين وغير مجبرين ، الا أن ذلك لم يكن الدليل الوحيد على انتهازيتهم ولاأخلاقيتهم ، اذ أنهم لم يكونوا منافقين فقط ولكن كذابين أيضا !

واحد من عشرات المواقف التى تؤكد أن « **عرابى** » كان ذكيا ذكاء نادرا ، كان حوار مع المندوب العثمانى المشير درويش باشا . وكان المشير قد جاء

فى مهمة كلفه بها السلطان العثمانى استهدف منها أن يجهض الثورة ، وأن يستدرج قيادتها الى الآستانة ، حيث يلحقون بحاشية السلطان فتخلص مصر للخديو ومن شايعوه · وينتهى كل شىء : دستور الثورة ، وأحلامها بالاستقلال واستخلاص ثروتها من أيدى المغامرين الأجانب ولصوص العرق ·

وفى ١٠ يونيو ١٨٨٢ قابل « درويش باشا » كل من « **عرابى** » و « **البارودى** » ، ورغم أن عرابى كان يجهل التركية ـ لهذا قام البارودى بالترجمة ـ فانه لم يكن يجهل الوطنية ، لهذا استخدم كل ذكائه لكى يجهض محاولة السلطان ·· بدأ المشير حديثه منافقا فأكد أنه رجل عسكرى كعرابى والبارودى ، وأضاف مخاطبا عرابى :

ـ أرسلنى مولانا السلطان لتقرير الاتفاق بين عائلته العزيزة ، وستسهلون على هذا العمل · أنا أعلم شكواكم وسأحلها · ان الاوربيين يطلبون ابعادك فاستعف من وظيفتك العسكرية بحجة حضورى ، حيث انى مرسل من قبل السلطان ، وكن نائبا عنى · ولتذهب مع اخوانك من كبار الضباط الى الآستانة حيث أن مولانا الخليفة العادل يرى الخير فى بقائكم معه ·

ولو أن الأمر أمر سلطة ومناصب ، لاختار « **عرابى** » أن يصبح نائبا للمشير ، ولو كان أمر مال فلم يكن هناك أوفر من مال السلطان · لكن عرابى كان يعلم أن ذهابه يعنى أن تنتهى الثورة الى لا شىء ، وأن الأوربيين لا يرفضونه كراهة فى شخصه أو استثقالا لظله · ولكن لأنهم يكرهون ما يمثله من أفكار ومبادىء ·· كانوا باختصار يكرهون الاستقلال الذى هو رمزه ·

لكنه لم يرد مع هذا أن يقطع حبال الود مع السلطان · بذكاء قال :

ـ مشروعكم هذا فى غاية الجمال وأنا مختاره مع الشكر · لست حريصا على السلطة التى لم أغتصبها ، ولكن الأمة فوضتها لى ، فالواجب الا أذهب الا وأنا مطمئن على مطالبها ·· أنا مستعد للانسحاب واتباع نصيحتك اذا تعهدت للقناصل بحفظ الأمن فى الديار المصرية وتحملت مسئولية ذلك بطريقة رسمية ·

وأردف عرابى موضحا ، فقال :

ـ ان ممثلى الدول الأوربية فى مصر سيحاولون أن يلصقوا بنا كل شىء ردىء يحدث ويخل بالأمن فى البلاد · ولن يعترفوا لنا بفضل اذا جرت الأمور على خير ما يرام لذلك أطالبك أن تبرىء ذمتنا مما جرى أو سيجرى ، وتتحمل المسئولية أنت فى وثيقة مكتوبة ·

أمام التهديد المخفى فى ثنايا الكلمات الذكية التى ساقها عرابى سكت « درويش باشا » ولم يطلب شيئا ، وبالطبع لم يكتب شيئا ·

ومع ذلك يقول الجهلة ان عرابى كان رجلا جاهلا !

مولانا أبو العلا

الشيخ « **أبو العلا الخلفاوى** » واحد من أكثر عباد الله حبا فى الله ، لأنه كان من أكثرهم حبا لوطنه ، ومن أشجعهم دفاعا عنه ، ومن أصلبهم تحملا لنتائج ما اتخذ من مواقف ، وما اعتنق من آراء ٠

ولد عام ١٨٢٠ بميت خلف بالمنوفية – واليها ينسب – ، ودرس فى الأزهر طالبا ، ودرس فيه أستاذا ، وظل يترقى الى أن أصبح مفتيا لمجلس الأحكام ، وهو من أكبر المناصب القضائية فى زمنه ٠

وبمجرد قيام الثورة العرابية تشيع لها الشيخ الموقور الذى كان قد جاوز الستين من عمره ، وكان من أبرز المؤيدين لها والمدافعين عنها ٠٠ وعندما تأزم الموقف بين الثــوار و « **الخديو توفيق** » بسبب قبول الأخير للانذار النهائى ، الذى قدمته انجلترا وفرنسا وطلبتا فيه نفى عرابى وزملائه ، كان الشيخ الخلفاوى من أعلى الأصوات التى اعترضت على موقف الخديو وواجهته بشجاعة ٠

وفى ٢٧ مايو ١٨٨٢ ، عقد الخديو فى سراى الاسماعيلية اجتماعــا حضره كبار ضباط الجيش والعلماء والسياسيون السابقون ، ليشرح لهــم مبررات قبوله الانذار وليحصل على تأييدهم للانذار ٠٠ وبعد أن شرح الموقف قال :

– ان الظروف اقتضت استقالة الوزارة وقبول انذار الدولتين ، وقد حفظت لنفسى رئاسة الجهادية وادارة المصالح لحين تشكيل وزارة جديدة ٠

واحتج الحاضرون على تصرف الخديو ، وأعلن « **اللواء طلبة عصمت** » أن الجهادية ترفض أى رئيس خلاف « **احمد عرابى** » ، وتكلم المشايخ : « **عليش** » و « **الخلفاوى** » فاقترحا رفض طلبــات الدولتين وخروج الأساطيل الحربية الأجنبية من المياه المصرية ٠ وطالبا بالمقاومة ، وفسر أحدهما قوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) ٠ ولما أتم كلامه انسحب « **طلبة عصمت** » احتجاجا على ما قاله الخديو ٠ وانسحب معه الحاضرون من ضباط ومشايخ ٠

فى ساحة القصر هتف « **الشيخ الخلفاوى** » بحياة « **عرابى** » ، وردد كل من كان معه فى الاجتماع الهتاف ، ووصلت أصواتهم الى الخديو ، فكانت تحديا صريحا لموقفه ورفضا علنيا له ، وأصبح « **الشيخ الخلفاوى** » بعد ذلك نجم كل مواكب الثورة ، فكان أحد الذين وقعوا الفتوى الشرعية بخلع الخديو ، وكان عضوا بالجمعية العمومية التى انعقدت فى ٢٣ يوليو ١٨٨٢ وخلعت « **الخديو توفيق** » وأصدرت لعرابى أمرا بالاستمرار فى القتال حتى هزيمة العدو ، واجلائه عن أرض الوطن ٠

وبعد أن هزمت الثورة بالخيانة ، قدم « الشيخ الخلفاوى » للمحاكمة ، وصدر الحكم بنفيه الى قريته ؛ وكان قد طعن فى السن وأصيب بالشلل ، فأرسل للخديو توفيق رسالة قال فيها :

ـ ان الأرض سوف تحملنا بغير ارادتك ، وان السماء سوف تظللنا بغير رعايتك ، وسأتعلق بأذيالك يوم القيامة وأقول : يا رب هذا ظلمنى فاقتص لى منه ٠

فى منفاه كتب كتابا ما زال مخطوطا الى الآن اسمه « نفع الخلائق على رمز الحقائق » ٠

الادميرال سيمور « وش القملة »

وصل الادميرال « **بوشان سيمور** » بأسطوله الى ميناء الاسكندرية فى مايو ١٨٨٢ ، وهو فى قمة عنجهيته الاستعمارية ، مليئا بالصلف والكبرياء ، يتعامل مع كل الناس باعتبارهم أشياء ٠٠ ولم لا ؟ أليس قائد أسطول أكبر قوة بحرية فى العالم ؟

ولسبب ما فان المصريين لم يستظرفوا الادميرال ، ولم يهتـزوا من صلفه ، وسخروا من وقاحته ، واستسخفوا الطلب الذى جاء لينفذه : نفى زعيمهم « **عرابى** » خارج البلاد ، وتغريب زميليه فى قيادة الثورة ـ **عبد العال حلمى وعلى فهمى** ـ الى ريف مصر ٠ ولأن الشعب المصرى خفيف الظل يكره الابتذال ، فان تصرفات « **سيمور** » الطفولية التى لا تناسب مقامه الادميرالى ، استفزته ٠٠ فمنذ أوائل يوليو ١٨٨٢ ، أخذ الادميرال يكاتب « **طلبة باشا عصمت** » قومندان الاسكندرية ، طالبا منه عدم تحصين طوابى الاسكندرية لأن هذا يمثل فى رأى الأدميرال المغرور اهانة للاسطول الانجليزى ، وهدد بأنه لن يسكت عن هذه الاهانة ، ما لم يسحب القومندان المدافع من الطوابى ، ويتركها مهددة كما هى ٠

وضرب المصريون كفا على كف ، وهم يرون أدميرالا طويلا عريضـا يقدم طلبا ـ بايخا ـ كهذا منتظرا من العساكر المصرية أن تنسحب من الطوابى المصرية معتبرا وجودها فى طوابيها لا محاصرته لها هو العمل الاستفزازى ، وعلى الفور أطلق عليه المصريون اللقب الذى يتناسب مع طلباته الغريبة

فسموه « سيمور وش القملة » وسارت مظاهراتهم فى الشوارع تهتف سائلة اياه :

ـ مين قال لك تعمل دى العملة ؟

وازدادت وقاحة الادميرال فضرب طوابى الاسكندرية بمدافع أسطوله ، فأصبح بذلك عدوا للشعب المصرى الذى هدته غريزته التقليدية الى أسلوب يحتفظ بواسطته بمعنوياته عالية ، هو السخرية من عنجهية المستعمرين وسفالتهم ٠٠ وانتشرت فى هذه المرحلة ظاهرة غريبة ، فقد سار عوام القاهرة يوما وبينهم حمار ، وعلى ظهره كلب أسود ، وعلى رأس الكلب قبعة بالية ، والكلب فى غاية الخمول والكسل كأنه أطعم شيئا من المخدرات ، ولسانه قد تدلى من شدة الظمأ والتعب ، وهم يزفونه منشدين نشيد الادميرال :

ـ يا سيمور يا وش القملة ٠٠ مين قال لك تعمل دى العملة ؟

واستمرت المظاهرة حتى الأصيل ، وتوقفت أمام سراى الخديو فى عابدين ، وكان قد هجرها وعاش فى حماية الاسطول فى الاسكندرية ، وأمام الباب ذبح المتظاهرون الكلب سيمور ٠

واستمرت المظاهرات تتكرر يوميا ، وخافت الكلاب ، وهجرت شوارع القاهرة ولجأت الى مواقد الحمامات ، وخرائب المدينة ، فاذا ظهر واحد منها ، نادى عليه الصبيان باسم سيمور ، ذعر واختفى عن الأبصار فرارا من الموت ٠

الطريف فى الأمر أن « سيمور » توفى عام ١٩٢٩ وكانت الدنيا قد تغيرت ، فى مصر وفى انجلترا ، لكن الوجدان المصرى لم يكن قد نسى ، وهكذا خرجت مجلة « الكشكول » وعلى صفحتها الثالثة خبرا عنوانه : وفاة « الادميرال سيمور وش القملة » ٠

البرابرة الحقيقيون

عندما سقطت الاسكندرية فى أيدى الغزاة البريطانيين فى يوليو ١٨٨٢ ، كشفت الحضارة الأوربية عن وجهها الحقيقى ، وأثبت حزب « الأحرار »

البريطانى أنه لا يختلف عن « المحافظين » فى شىء • وكان ما جرى فى مصر هو بداية النهاية التى قضت على مستقبل رئيسه « **جلادستون** » وانتقلت به من حزب فى الصف الأول الى حلقة ضيقة محدودة العدد وضعيفة التأثير •

كان « جلادستون » يتغنى بأنه ليس استعماريا ، يبرر عدوانه على مصر بأنه جاء لينقذها من العرابيين ، الذين وصفهم بأنهم مجموعة من البرابرة المتعصبين المعادين للحضارة الاوربية ، والساعين الى عودة مصر الى القرون الوسطى •

وبسقوط الاسكندرية كشف الغزاة عن جوهرهم الحقيقى ، وأكدت حضارتهم أنها حضارة متوحشة وثبت للعالم كله من هم البرابرة الحقيقيون • وفى الوقت الذى كان فيه « **الخديو توفيق** » والمتعاونين معه من الخونة المصريين ، يتكاتفون لاتهام « **عرابى** » وجيشه بارتكاب الفظائع •• كانت الحقيقة تتكشف على الجانب الآخر ، بأقسى وأفظع أشكالها•

لقد أجبر جنود الانجليز أهالى الاسكندرية على الرحيل منها • فخرجوا مهاجرين فى صفوف طويلة يطاردهم الرصاص وهم عزل من السلاح ، ونتيجة للارتباك الذى حدث بعد سقوط المدينة ، نفد ما كان بها من غذاء ، وجاع الذين فضلوا البقاء فى مدينتهم عن الرحيل عنها ، بينما كان الخديو يقيم فى قصر رأس التين تحت حماية الغزاة ، يأكل حتى التخمة ثمنا لخيانته •• وظل الناس جوعى ثلاثة أيام ، خرج فيها صغار الناس على اختلافهم الى رحبة سراى رأس التين وهم يضجون ويعجون ، وكادوا يقتحمون السراى •• فخشى الخديو عاقبة ذلك وأمر بتوزيع بعض الطعام عليهم •

وأصدرت قوات الاحتلال قرارا بحظر التجول فى المدينة خوفا من التحركات الشعبية ضدها ، وسمحوا فقط لبعض عملائهم بالخروج ليلا لبعض شئونهم وأمدوهم بكلمة سر الليل • أما الآخرون فكانت النار تطلق فورا على كل من يظهر منهم فى الطريق أيا كان السبب الذى خرج من أجله •

ولأن كلمات السر كانت باللغة الانجليزية ، فان بعض المواطنين الذين كانت ظروف عملهم تضطرهم للخروج ليلا كانوا لا يحسنون نطق الكلمات الانجليزية مثل : « فرند » أو « هالت » فيكون الرصاص نصيبهم •

كان فى مصر برابرة ، لكنهم لم يكونوا هم المصريين على كل حال !!

الأحـرار والمحافظون

لم يأت الغزاة يوما الى مصر ، الا وأثارت خططهـم غضب العناصر الشريفة في بلادهم ، تلك التي كان يؤلمها أن يذبح أبناءهم في حروب ضد شعوب لم تسيء اليهم ، وأن تتحمل تبعات حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل !

بعدما دبرت حكومة انجلترا لغزو مصر في عام ١٨٨٢ ، أثارت غضب كثيرين من أبناء الشعب الانجليزى ، وسارت المظاهرات في شوارع لندن تهتف بسقوط الغزاة ، وكان معظم الفقراء من أبناء الشعب الانجليزى يدركون أن العدوان قد تم لحساب المصارف المالية ، خدمة لحاملى سندات الدين ، ويدهشون لأن ذلك حدث في حكم حزب « **الأحرار** » الذى طالما ندد بسياسة الفتح التى اتبعها خصومهم السياسيين من المحافظين ٠

وبمجـرد أن انطلقت أول قذيفة من مدافع الأسـطول البريطانى على طوابى الاســكندرية ، اســتقال « **جون برايت** » من الوزارة احتجاجا ، وبعد الاحتلال بقليل ، تزايد سخط الأحرار الانجليز لسلوك الحكومة البريطانية لأنها عينت ضابطا سيىء السمعة هو « فالنتين بيكر » في منصب قائد الجيش المصرى ، ومنحه الخديو لقب فريق ، وأطلق يده في تطهير الجيش المصرى ٠

وأرسل « برايت » رسالة الى « تشمبرلين » ـ وكان زميله في الوزارة التى رأسها جلادستون ـ فذكـره بأن حزب الأحــرار يرتكب نفس جرائم المحافظين ، وقال له :

ـ لقد ضاعفتم من ديوننا وأضعتم ثروة شعبنا ودمائه ، لأنكم اتبعتم سياسة غير لائقة وعقيدة بغيضة ، ذلك أن ما حدث في مصر خطأ محزن ٠

ويعترف « تشمبرلين » في مذكراته بأن « برايت » كان يستطيع لو أراد أن يقضى على الحكومة ، اذا تزعم حركة ضدها ، لأن الشعور البريطانى العام كان قلقا وأقرب للمعارضة ، وكان ينظر لانتصار التل الكبير كانتصار تافه ، لأنه تم بالخديعة ٠٠ فضلا عن عدم التناسب بين الجيشين ٠

والغريب أن برايت لم يفعل ٠٠ لكن جريمة غزو مصـر كانت بداية النهاية لحزب الأحرار كله !

شـماتة الخونـة

عندما هـزم « **عرابى** » في معركة « **التل الكبير** » ، شـمت الكـلاب والمتملقون والمخدوعون وضعاف النفوس وأقاموا الأفـراح والليالى المـلاح

احتفالا بغزو مصر وفرحا بقتل أخلص أبنائها ونفى وتشريد الذين دافعوا عن كرامتها ووضعوا رؤوسهم على أكفهم لكى لا يذل أحد من أبنائها ٠

أيامها كان الخديو توفيق فى « **الاسكندرية** » يعيش فى حماية جيش الاحتلال ، ولما وصله النبأ ، وفد عليه الذوات والأجانب يهنئون بالفوز والنصر ، وصدحت الموسيقى بالأنغام ، ورفعت العساكر الانجليزية السلاح تعظيما واجلالا ٠٠ وهتف الاوربيون :

ـ فليحيا توفيق الأول ٠٠ ولتحيا ملكة الانجليز ٠٠ وليحيا الجنرال ولسلى ٠

وفى كل مكان يضم خونة وعملاء وجبناء ، انطلقت زغاريد الفرح ، ولم يفكر أحدهم لحظة فى أنه يشمت بمصر كلها حين يشمت فى « عرابى » ، وفرحت دوائر رجال المال فى كل انحاء أوربا ، وارتفعت قيمة الأسهم فى كل بورصاتها ٠ لقد هزم الرجل الذى هدد أثناء الغزو بالغاء ديون مصر على أوربا لأنها كانت غشا وتدليسا ونصبا دوليا ، والذى أعلن أنه سيصادر أراضى الخونة والهاربين ويوزعها على الذين يحاربون ٠ وكتب « عرابى » فى مذكراته عن معركة « التل الكبير » فنقل شهادة الجنرال بتلر أحد قواد الحملة الانجليزية فقال أن الهجوم كان بغتة فتشتت الجيش المصرى ، ومع ذلك فقد كان لا يجتمع ١٠ أو ٢٠ أو ٥٠ من جنود الجيش ، الا وثبتوا فى شجاعة ، وعلق عليها قائلا : فعلى العشرة آلاف الذين قتلوا من جنودنا فى المعركة السلام ٠

ـ ولا ينبغى لجندى مصرى أن ينبس بكلمة ضدهم فيكفيهم ما يقوله فيهم الماليون والمرابون وعبيد الاستعباد ٠

فى سجنه كان « عرابى » يتابع الشامتين ، الذين ملكوا نذالة الهجوم على سجين أعزل لا يملك حق الدفاع عن نفسه ولا تفسير مواقفه التى شوهوها عامدين ، ويعجب لأن مصر بكل نبلها وجلالها ، تسمح بأن تعيش فيها حشرات من هذا النوع وخبائث بكل هذه العفونة ، فى الوقت الذى سجن فيه وشرد ونفى كل الذين قالوا فيه كلمة حق ٠٠ وأصبحوا عاجزين عن الدفاع عنه ٠

ووصل الصغار الى الحد الذى جعل والدة « الخديو توفيق » تتوجه بعربتها الى ثكنات قصر النيل ، لتشاهد موكب الباشاوات ـ زعماء الثورة ـ وهم يجردون من رتبهم ويسمعون أمر النفى فيبتل بذلك قلبها العفن الحقود ٠

يقول عرابى فى مذكراته : ان الضباط المصريين الذين حضروا حفلة التجريد كانوا يذرفون الدمع من مآقيهم حزنا « على ما آل اليه أمرنا ٠٠ وأمر بلادنا ٠٠ أما الأهالى فكانوا فى الطريق يبكون وينتحبون » ٠

وقاحة الخونة

في عام ١٩٢٢ مات المحامى الانجليزى الشهير « برودلى » وبيعت مخلفاته بالمزاد العلنى ، واشترى طالب مصرى كان يقيم فى لندن جزءا من هذه المخلفات : كانت أوراقا بخط الزعيم أحمد عرابى ، ظلت على امتداد أربعين عاما فى حوزة محاميه برودلى .

وبرودلى واحد من أشهر الشخصيات البريطانية التى ارتبط اسمها بتاريخ مصر ، بدأ حياته محاميا فى لندن ، ثم ضاق بمادية الحياة اللندنية ، فهاجر الى الشرق وأقام فى تونس ، ومارس المحاماة هناك أمام المحاكم القنصلية والمختلطة .

وتابع « برودلى » وهو فى تونس حوادث الثورة العرابية المجيدة .. ورأى أهل « تونس » جميعا يملأون المساجد بالصلاة من أجل « عرابى » ويدعون الله أن ينقذ الشرق على يديه ، وسقطت الثورة بنفس الأساليب الاستعمارية المنحطة ، وقرأ فى الصحف الأوربية تحريضا صريحا على اعدام « عرابى » ، وبمجرد أن جاءته رسالة من المستشرق الايرلندى « الفرد بلنت » يكلفه فيها بالدفاع عن « عرابى » شد رحاله الى مصر .

وظل « برودلى » يناور ويداور فى ظروف صعبة لكى يضمن لعرابى محاكمة علنية عادلة ، وكانت الوزارة الانجليزية تأخذ موقفا مائعا وتنوى ترك « عرابى » والثوار للخديو لكى يشنقهم ، بينما أدرك « برودلى » ومساعديه أن الحصول على شهود لصالح « عرابى » فى هذا الجو الارهابى مسألة مستحيلة ، وطالب الكثير من مرة بتأمين الشهود على حياتهم ، فلم يلق استجابة .. وفقط عندما تمكن بارشاد « عرابى » ومعاونة خادمه محمد أحمد وزوجة عرابى من العثور على أوراق كان « عرابى » يحفظها فى خزانة سرية بمنزله ، تحسن موقفه ، كانت الأوراق تضم رسائل سرية من السلطان العثمانى ، وكان بعضها يدين الخديو توفيق ادانة صريحة لا لبس فيها .

وبذكاء قدر « برودلى » موقفه .. فقرر استغلال الأوراق التى عثر عليها فى تهديد الخديو ومساومته لانقاذ رأس « عرابى » ، وفى نفس الوقت انزعجت الحكومة الانجليزية من ظهور هذه الأوراق ، لأنها ستكشف أن الخديو الذى زعمت أمام العالم أنها جاءت لانقاذه من بربرية « عرابى » ، ليس الا انسانا بلا ضمير ، ولا شرف ..

وقبل الخديو أخيرا أن يتنازل عن مطلب اعدام « عرابى » وزملائه ، مقابل محاكمة صورية يعترف فيها « عرابى » بالعصيان .

ونجح « برودلى » فى مهمته النبيلة ، وترك كتابا عظيما هو « كيف دافعنا عن عرابى » ، يشكل ردا مفحما على الخونة الذين ارادوا تغطيـة قذارتهم ، فاتهمـوا « عرابى » بالخيانة لأن الانجليز ضغطوا على الخديو فألغوا شنقه ٠

وغـدا لنـــا

عندما نفى « عرابى » من مصر ، بكت كل القلوب المصرية فى صمت ، وما اكثر ما يمنع القهر العيون أن تبكى فى العلن ، والألسنة أن تنطلق لتقول ما تريد ، وأيامها كان القهـر يملأ مصر ، وغاب كل شىء فى ركـام من الخديعة ٠

واختفى عبد الله النديم ، دون كل الثوار الذين تشتتوا بين المشانق والمنافى ، وعاد كما كان صعلوكا مطاردا وفقيرا ، يقرأ ويكتب ، ويبحث لنفسه عن عمل يعمى عنه أعين مطارديه ، فيشتغل قارئا للبخت مرة ، ويتخفى فى زى الدراويش مرة أخرى ، ورغم كل ما كان يعانيه ، وجد الفرصة ليكتب لزعيمه النبيل الذى نفى الى سيلان ، فاختنقت بنفيه أحلام الثورة وآمـال الاستقلال ، يعزيه ويعزى نفسه بأن مصر تستيقظ دائما رغم كل شىء ، وأن الفرح يعقب الحزن كما يلى النهار ظلمة الليل ٠

فى مخبئه عكف « النديم » على كتابة مذكراته ، وختمها برسالة منه الى « عرابى » قال له فيها : « فيا ابن الحسين ٠٠ ويا قرة العين ٠٠ لك العذر فقد بعت نفسك لله ، ولكنك كنت فى بلاد امراؤها ذئاب ، وأهلها أحزاب ، فباعوك بثمن بخس دراهم معدودة » ٠

وحرص « النديم » فى رسائله على أن يذكر « عرابى » بأن المصريين على عهده باقون ، لدرجة أن بعضهم اعتبره من أقطاب الصوفية ، فقال له فى احدى رسائله :

ـ فأنت فى مصر وان كان جسمك فى سيلان يذكرك فى الألسن ورسمك فى الأعيان ، وأنهم يرجون عودتك لتنقذ مصر مما هى فيه ، ورغم التضحيات البالغة التى تكبدوها نتيجة لاجهاض الثورة ، لكنهم على الأمس لا يبكون بل يرجون الغد ٠

وروى له قصة اليوزباشى يوسف أبو دية الذى شنقه الخديو بدعوى أنه أثار فتنة طائفية فى طنطا ، فى حين أنه هو الذى أخمدها ، ووقف « ابراهيم

ادهم » مدير الغربية وأحد رجال الخديو والمتهم الحقيقي فى فتنة طنطا بجواره يسأله عما يريد قبل أن يشنق ، وقال أبو دية :

ــ وأى شيء بعد أن قطعتم آمالنا ... ولكن اليوم لكم وغدا لنا .

في منفاه كان عرابى يعيش قسوة الغربة والامها ومعه كلمات هذا المصرى الشجاع الذى لم يفقد الأمل فى المستقبل لحظة واحدة .

الخونــة والسارقين

في السجن يتغير الناس ، فيختفى زحام الحياة وضجيجها : تقفز الهموم الصغيرة وأحيانا الراقية ، يعانى المناضلون تجربة الحصار ، فالدنيا كلها جدران اربعة ، واليوم الف يوم ، يمر بطيئا ، يعد الانسان ثوانيه ، تتكرر الكلمات وتفقد الوجوه ملامحها من فرط تشابهها .. يختفى تنوع الألوان والأصوات والأحداث والتجارب ..

قليلون هم الذين يعرفون عذاب السجن الحقيقي ، لذلك يفقدون قدرتهم على تقييم ذلك النوع من الرجال الذى يخرج من السجن فلا يخاف العودة اليه من اجل مبدئه أو عقيدته ولا يفهمون معدنه الراقى ، وصلابة روحه ونفسه .

في الأوراق التى تركها المحامى الانجليزى « برودلى » ــ محامى الثوار العرابيين ــ عثرت على صورة لخطاب سلمه الامام محمد عبده ــ وهو فى السجن ــ لبرودلى ليسلمه الى أسرته .. والخطاب نموذج لسيكولوجية الثائر السجين ، ها هى هموم الحياة الراقية تختفى لتزحف الهموم الصغيرة والمشاكل التافهة . والخطاب موجه لابن الامام وبدايته حديث عن سكن جديد انتقلت اليه الأسرة « فان شاء الله يكون مبارك ، ويكون متسع ونظيف وأرجو أن تخبرونى عن موقعه وهيئته ، وعدد المحلات التى فيه » ، يلى ذلك حديث عن مبلغ من المال طرف الشيخ الباجورى ، وحساب معقد ، وحديث مقنع عن رجل لا يسميه الامام ويصفه بانه « المقيم بشارع الشيخ سلامة » ، ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن الحمار الذى تملكه الأسرة « اذا تصرفتم فى الحمار فلا يكون باقل من عشرين « بنتو » واظن انه يساوى أكثر اذا كنتم ملتفتين اليه فى الأكل والشرب والنظافة ، ومع ذلك فتخبرونا بما يرسى عليه ونعطيكم الراى » .

ومن الحمار ينتقل الامام للحديث عن الكتب ، فما أبعد الشقة بين الاثنين ، لكنه السجن : تختلط فيه المسائل وتتشابك ، لذلك يتحدث الأمام عن كتاب حاشية ابن عابدين « خمسة أجزاء كانت فى الدولاب » وأظن جزء منها كان على الترابيزة ، اتركوا الجزء الأول وماتوا بقية الأجزاء ، واذا وجدتم منها غائب ، فيمكن أنه طرف الشيخ داغر » .

حديث آخر عن كتاب « الأحكام السلطانية » وثالث عن « شرح العقائد النفسية » وتفاصيل عن هموم الحياة الصغيرة .. فما أمر تجربة الحصار بين الجدران الأربعة .

فى نهاية الخطاب ، فقرة يوصى فيها الإمام اسرته ، يقول :

- والذى أوصيكم به دائما ، وتوصوا به الجماعة ، هو الحذر من السارقين والخونة من النساء والرجال ، ويلزم أن يكون محل نوم الجماعة فى مكان بعيد عن الطريق ، ويكون معهم فى محل نومهم الشنطة والصندوق ودولاب الكتب ، وكل ما يخاف عليه ، وبالنهار يكون ذلك المحل مغلوقا مع التحفظ على المفتاح ، وتكون اقامتهم بالنهار فى أودة أخرى غير التى فيها هذه الأشياء ، واشتروا لى نتيجة أوقات من حساب سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٣ م) ، وأسرعوا بشراء قماش الفانلا بمعرفة من يعرف فيه ، وفصلوا لى جلابية وخيطوها بالسرعة عند « محمد عبد النبى » أو غيره ، وأرسلوا الوقائع من بعد يوم ٢٠ ذى الحجة كما أخبرتكم سابقا » .

وتنتهى وصايا الامام السجين ، ويوقع الخطاب ، لكنه يتذكر بعدها شيئا فيكتب :

- قولوا للجماعة يخرجوا الثياب الجوخ لأجل تهويتها خوفا من العتة .

وتدمع العين وهى تقرأ خط الامام محمد عبده الصغير الدقيق ، تتذكره مدافعا عن الحرية والديمقراطية ، واستقلال الوطن ، قويا وجسورا وشجاعا ، وتتصوره وحيدا فى زنازين الكلاب ، على ضوء ضئيل يكتب بلغة بسيطة ، وصية لزوجته أن تحذر من « الخونة والسارقين » ، فلولاهم ما دخل السجن .

النـــديم والمـــرأة

بدأت النهضـــة النسائية فى عصر **الخديو اسماعيل** ، عندما أنشأت الزوجة الثالثة له « **جشم آفت خانم أفندى** » أول مدرسة للبنات بالسيوفية . وعينت ناظرة لها سيدة أجنبية هى السيدة « **روزة** » . ولما زاد الاقبال عليها اعتزمت زوجة اسماعيل انشاء مدرسة أخرى أعظـــم منها ، وأتممت بناءها فعلا ، وقبل افتتاحها كان « الخديو اسماعيل » قد بارح القطر معزولا ، ورحلت زوجاته معه . فأهمـــل شأن المدرســـة ، وشـــغلتها الحكومة ببعض الدواوين ، ومكانها الآن تشغله وزارتا الأشغال والمواصلات بشارع القصر العينى بالقاهرة ، ثم أنشئت بعد ذلك مدارس مختلفة لتعليم البنات ، وبدأت المرأة تشترك بنصيبها فى النهضة الاجتماعية والأدبية .

وكان **لرفاعة رافع الطهطاوى** فضل كبير فى تعليم المرأة . فهو أول من دعا لتعليم البنات وتحمس لذلك حتى انه وضع كتابا مشتركا لتثقيف البنات والبنين على السواء ســـماه « المرشد الأمين للبنات والبنين » وقد صـــدر عام ١٨٧٣ .

وكانت مدارس البعثات الاوربية قد انتشرت قبل ذلك ، فأنشئت مدرسة راهبات الراعى الصالح بشبرا عام ١٨٤٤ ، ومدرسة راهبات القديس منصور فى الموسكى وقد أنشئت فى العام التالى ، ومدرسة الرسالة الفرنسيسكانية الايطاليـــة وقد أنشئت سنة ١٨٥٩ ، ثم أنشئت مدارس أخرى بالمنصـــورة وكفر الزيات والاسماعيلية .

وكان « **عبد الله النديم** » فى طليعة الصحفيين والثوار الذين اهتموا بمسألة تعليم المرأة ، اذ دعا على صفحات مجلاته وصحفه الى تعليمها فى سن الطفولة ، وفتح المدارس لها لتدرس مع مواد المنهج الابتدائى : الدين والتاريخ والتدبير المنزلى ورعاية الطفل .

ورتب النديم فى مجلته بابا خاصا لتهذيب المرأة سماه « مدرسة البنات » تكتب فيه الموضوعات بأسلوب علمى ، سهل وشيق ، على نمط المحاورة تدور بين امرأتين ، وقد أغرمت النساء بهذا الباب الى حد عظيم ، حتى انهن اعترضن على الغائه حين فكر النديم فى ذلك فعدل عن ذلك وأبقاه . وقد تضمن هذا الباب موضوعات عن تعليم المرأة وواجباتها الاجتماعية فى مختلف مراحل حياتها .

وفكر « النديم » فى اصدار مجلة باسم « المربى » تبحث فيما يهم المرأة من فهم للامور الصحية ، وتدبير المنزل ، ورعاية الطفل والأمومة والعادات والأخلاق . وأعلن أنه سيصدرها اذا اجتمع لديه عدد وافر من المشتركين لكن القدر أبى أن يحقق للنساء المصريات أمنيتهن بصدور أول مجلة لهن .. اذ نفى النديم بعد ذلك التاريخ بقليل .





قبل الفجر الثالث

الفتوى والسلاح ـ الجراد والعصا ـ المستعمرون والعنجهية ـ وان عيست اخوك ـ المستشار الاحتلالي ـ عام الكف ـ الغفلة وحق الرقابة ـ الكوليرا الحقيقية ـ ليل الصالحين بالنهار ـ تقرير خليفة افندى ـ كبارى قطاع خاص ـ شيخ الحارة والامبريالية ـ باللوا في قصر افندينا ـ الانشاء وليس الثورة ـ مجلس الانس الهنى ـ الاقباط في الأزهر ـ هاللوا بوبى ـ الكلب الانجليزى ـ الفلاحون والفواتير ـ المستشار بوند ـ بلاوى الناس ـ ويركو الآستانة ـ اداب العرش ـ ادانة صاحب الحمارة ـ المفتى والخديو ـ الراهب الشاعر ـ السياسة كل شيء ـ مشاكل الاتوبيس ـ كلام جرايد ـ حصان الخواجة ـ كلوب الفقراء ـ اللورد والوزير ـ المصرية الباهرة ـ اضراب المستاجرين ـ العاشق ـ بكتك بالدمع الهتون غوان ـ خفراء مصلحة الحضارة ـ ياميت صباح الفل ـ سينما ايديال ـ دروس في الفشل ـ الحب بالعافية ـ الوداع يوم الهول ـ ابواق الاستعمار ـ الثوروى ـ وان جارت على عزيزة ـ المنطق والسياسة ـ السابقون لزمنهم ـ خط ١٧ في المحكمة ـ الأميرة المشاغبة ـ الدستور يا افندينا ـ تسعيرة الرتب ـ عاوزين ناكل عيش ـ مقالب الشعراء ـ شيخ العروبة ـ اخص دا ديمقراطى ـ الشعب ٠٠ والشعب ـ كرامة الوطن ـ وكالة البلح ـ الاسلام والحياة ـ عباس جاى ـ الشوارع والبطولة ـ النصيحة التي لم تسمع ـ لماذا عزل ـ عدم تربية ـ شر البقر ـ نهاية كاتب تقارير ـ يا عزيز عينى ـ الفكر والكارو ـ اتعبتنى يا مولاى ـ ظاهرة الدكتور جيكل والمستر هايد ـ انطونيادس الخالد ـ قليل من التشرد وبعض السلاطة ـ زمن الفكاهة السعيد ـ الأميرالاى هارفي باشا ٠



الفتـوى والسـلاح

تعقدت أوضاع مصر الداخلية بوقوعها تحت الاحتلال الانجليزى ، فقد كانت من الناحية الاسمية ولاية عثمانية تتبع الباب العالى ، أما من الناحية الفعلية فقد احتكر الانجليز كل شيء فيها ، وتركوا للخليفة العثمانى بركة الدعوة باسمه على منابر المساجد لا أكثر ولا أقل •

وفى عام ١٨٩١ مات قاضى قضاة مصر « **الشيخ عبد الرحمن نافذ افندى** » ، فخلا بموته منصب رئيس القضاء الشرعى وتساءل الناس عمن يخلفه ، وعما اذا كان ذلك الخلف سيعين عن طريق دار الخلافة وبفرمان من الباب العالى ، على ما جرت به العادة من قبل ، أو أن الحكومة المصرية ـ الانجليزية فعلا ـ ستصدر أمرها بشغل المنصب •

وكانت مصر ـ على عهد **الخديو اسماعيل** ـ قد أخذت حق تمصير هذا المنصب الهام وأصبح قاضى القضـاة يعين بمرسـوم من الخديو ، وكرر « **الخديو توفيق** » طلبه ببقاء حق تعيين القاضى لمصر ، ودارت فى الكواليس السياسية معركة حول هذا الموضوع ، بيد أن السلطان العثمانى كان غاضبا لأن الحكومة المصرية قبلت تعيين مستشار انجليزى لوزارة العدل المصرية ، ولهذا أصر على الاحتفاظ بحقه فى تعيين القاضى ، وعين بالفعل الشيخ « **عبد الله جمال الدين** » فى المنصب •

وعندما وصل القاضى الجديد الى مصر وجد أمامه مشكلة معقدة ، اذ كان « اللورد كرومر » قد اشترى ، باسم الحكومة الانجليزية ، قطعة أرض فى حى قصر الدوبارة على ساحل النيل الشرقى ، لبنائها دارا للقنصلية الانجليزية ، وبعد أن تم الاتفاق على البيع والشراء ، أرسل ناظر المالية الى قاضى القضاة يطلب توقيع الصيغة الشرعية ، وتسجيل البيع ، واستخراج

الحجة بذلك ·· وأعاد القاضى السؤال عما اذا كان تحديد الأرض يشمل شيئا من ساحل النيل ، فلما جاءه الرد بالايجاب اعترض على تسجيل البيع ، لأن الطريق المشرف على السواحل هو ملك السلطان حسب نصوص الشرع ·

وقامت الدنيا ··

واندفعت صحف الاحتــلال تؤيد « **اللورد كرومر** » ، وردت الصحف الوطنية مهاجمة اللورد ومؤيدة حق السلطان فى أن يحتفظ بملكيته للسواحل ، لأنها طرق عسكرية ، وظاهر كثيرون موقف القاضى ، واعتبروه فرصة للنيل من صلف ممثل الاحتلال الانجليزى وغروره ، وانضم « **رياض باشا** » رئيس الوزراء الى صف « **اللورد كرومر** » ، وقال :

ـــ فليصدر القاضى ما شاء من فتاوى ·

وفى اليوم نفسه اجتمع مجلس النظار وأصدر قرارا بالموافقة على البيع متضمنا ساحل النيل ·

وهكذا ظلت السفارة البريطانية فى القاهرة على شاطىء النيل اكثر من ستين عاما ، خلافا لرأى قاضى القضاة ، الذى استند الى فتوى شرعية بالاحتفاظ بشاطىء النيل ضمن اطار الملكية العامة لضرورات عسكرية ·

وبعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ اضطر الانجليز للسماح للحكومة المصرية بشراء جزء من حدائقها ليكون امتدادا لشارع الكورنيش ·

وأثبت التاريخ عمليا انه ليس بالفتوى وحدها يعــود المحتلون الى الحق ·· ولكن أولا بالسلاح ·

الجــراد والعصــا

بعد سبع سنوات من الاحتلال الانجليزى لمصر ملأها الجراد :

كان ذلك فى عام ١٨٩١ ، اذ وردت الأخبار من بعض مديرى المديريات بظهور الجراد فى جهات الصالحية والزنكلون ، وكثير من بلاد مديرية جرجا وأكثر بلاد القليوبية ، وسرعان ما انتشر الجراد فملأ مصر كلها حتى وصل الى القاهرة فى أواخر رمضان من تلك السنة

وانزعجت الحكومة المصرية ، واهتمت بالأمر اهتماما عظيما ، وأرسلت الى المديرين والمحافظين بالتشديد على قطع شأفته ، وبرغم كل المجهودات تكاثر الجراد ، وانتشر شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وفتك بكل ذى خضرة من النبات والشجر والنخيل ، وظل الحال على ذلك اياما والناس فى دهشة وحيرة .

وظلت أنباء الجراد هى أهم أنباء الصحف المصرية لمدة شهر كامل ، فكانت أى هزيمة له ، مهما تضاءلت ، تعتبر من الأنباء السارة : حدث مرة أن نزلت سحابة منه على مزرعة قطن بإحدى بلاد المنوفية فأكلتها ، وما أن أتت على آخرها حتى ماتت جميعها ، فجاءت أخرى الى مزرعة فى جوار المزرعة الأولى ، فلما رأت ما أصاب الأولى نفرت من النزول على شجر القطن وعافته وفرت ، فلم يرد بعد هذه الحادثة جراد يأكل شجر القطن وتحول ضرره الى الأشجار والنباتات الأخرى .

يروى شاهد معاصر انه رأى الجراد في الطريق بين نفيشة والسويس ، وكان على هيئة صفوف الجند ، بعضها خلف بعض ساكن القلب ، لا يزعجه مزعج ، ولا يحركه محرك .. حتى ظهر له طائر غريب اقرب شبها بأبى قردان ولكنه أطول منقاراً ، كان يضرب الجراد بأجنحته ومنقاره ، ويبتلع منه الاف ، فلا تستقر فى جوفه لحظة حتى يتقيأها ، اذا افلت منه شىء تعقبه وقتله ..

واشتدت حملة الحكومة على الجراد فقررت مكافأة قدرها قرشان لمن يأتى بأقة من بيض الجراد ، فتسابق الناس الى البحث عن مواطنه واخراجه منها ، وأسرع الناس يحملون سعف النخيل والعصى ، يضربون به الجراد ويقتلونه .

وفى أواخر شوال من نفس العام ، هبت رياح مختلفة ، بعضها من الشرق وبعضها من الغرب ، فاكتسحت الجراد وقضت عليه ... ولكن الناس الذين حملوا العصى للقضاء على الجراد لم يلقوها جانبا ..

كانوا يعلمون أن أخطر الجراد ما زال يأكل خير مصر ، وأنه لا يمكن القضاء عليه دون عصا .

المستعمرون والعنجهية

في يناير ١٨٩٤ حدثت ازمة ضارية بين « **اللورد كرومر** » والخديو « **عباس حلمى الثانى** » بسبب ملاحظة بسيطة ابداها الخديو على أسلوب تدريب الجيش المصرى ·

وكان الخديو قد انتهز فرصة سفر اللورد فى أجـازة الى انجلترا ، فأحدث انقلابا فى السلطة العليا للجيش المصرى ، وذلك بتعيين وزير جديد للحربية هو « **ماهر باشا** » ، واستصحبه فى رحلة لتفقـد وحدات الجيش المصرى المعسـكرة فى أسـوان وجنوبها · وتعمد الخديو أن يعلق على كل شىء يراه بشكل يتضمن السخرية من جهل الضباط البريطانيين منددا بالنقص فى كفاءتهم العسكرية ·

وفى وادى حلفا استعرض الخديو وحدات الجيش بحضور قائده العام « **الجنرال كتشنر** » ، وعلى حد ما كتب الجنرال نفسه ـ فى تقرير رفعه بعد ذلك الى كرومر ـ فان الخديو « أبدى ملاحظات شائنة للقواد البريطانيين ومحقرة لهم ، وبعد ذلك قال لى ان من رأيه أنه من العار أن يكون الجيش المصرى فى هذه الدرجة من عدم الكفاءة » ·

وغضب « كتشنر » ورفع استقالته من الجيش ، وأثرت الاستقالة فى الخديو الذى استدعاه وطلب منه سحبها فقال الجنرال :

ـ اذا كان الضباط البريطانيون يوبخون ويعنفون بهذه الصيغة العلنية فان مركزكم فى البلاد يسوء ويصبح من الصعب الحصول على ضباط اكفاء يقبلون الخدمة فى الجيش المصرى غيرهم ·

وأيد اللورد كرومر تصرف جنراله المتعنت ، وأضاف اليه أن تصرف الخديو يعيـد للأذهـان تصرفات الضباط المصريين فى عام ١٨٨٢ ضـد السيطرة الجركسية على الجيش ، التى انتهت بثورة عرابى ، ولذلك رأى فى مسلك الخديو تحريضـا للضباط المصريين على العصيان ، وأصر على اقالة « **ماهر باشا** » وأن يصدر الخديو أمرا عسكريا يثنى فيه على الجيش وعلى قادته من الانجليز ·

وبعد ضغوط هائلة اضطر الخديو الى قبول شروط الانجليز ، فسقطت وزارة رياض باشا كلهـا ـ بما فيها وزير الحربية ماهر باشا ـ وأصـدر الخديو بيانا نشر فى الوقائع المصرية يقول فيه انه يهنىء الضباط المصريين والانجليز الذين يقودون الجيش ، ويعلن اعترافه بالخدمات الجليلة التى اداها الضباط الانجليز للجيش المصرى !

وهكذا اثبت المستعمرون انهم لا يقبلون أن تمس عنجهيتهم الانجليزية بأى ملاحظة ، حتى ولو صدرت من حاكم البلاد الذى كان المصريون يخاطبونه فيقولون عنه : ولى النعم •

•• وان عبست أخوك

اشتبك تاريخ مصر وسوريا فى العصر الحديث ، ومنذ اوائل القرن الثامن عشر بدأ السوريون يستوطنون مصر ، اذ انتقلت بعض العائلات المسيحية الدمشقية من الروم الكاثوليك الى القاهرة والاسكندرية ، لاتساع تجارتهم أو أعمالهم فيها ، واقتدى بهم جماعة من أبناء هذه الطائفة وغيرها من سائر انحاء سوريا وعرفوا باسم الشوام ، ويراد بهم أهل سوريا وفلسطين وحلب والعراق • وكانوا يشتغلون بالتجارة والصناعة • واتخذوا يفتحون الحوانيت للبيع والشراء ، وفيهم باعة الأجواخ والخردوات ، والسماسرة والصياغ والنساجون ، فالمتزوجون منهم يقيمون فى منازل خاصة بهم ، واما العزاب فينزلون فى الوكالات أو الخانات ، فى جهات الحمزاوى وما جاوره •

وعندما تولى « محمد على » حكم مصر كان فيها من السوريين حوالى أربعة آلاف : ثلاثة آلاف منهم بالقاهرة ، والباقى بين دمياط والاسكندرية ورشيد ، وكانوا قد جمعوا ثروة ضخمة لتوسطهم فى التجارة بين الافرنج وأمراء المماليك ، فيشترون الأجواخ والحراير وسائر أدوات المنازل والأثاث وغيرها من الافرنج ويبيعونها للأمراء وسائر الأعيان •

لكنهم هاجروا من مصر فى عهد « محمد على » بعد أن احتكر التجارة فضاقت أمامهم السبل ، وذهبوا الى السودان ليتاجروا فى سن العاج والريش والصمغ •

وفى أيام اسماعيل أغرى كثيرون من الشوام الذين يعرفون اللغات الأجنبية بالعمل فى وظائف الحكومة ، ورغم نفورهم من هذه الوظائف ، فقد قبلوا خاصة أن المرتبات التى عرضت عليهم كانت مغرية ، وبعد الاحتلال استقال عدد كبير من هؤلاء وعادوا للعمل بالتجارة بعد أن اتسعت ابوابها ، وانضم اليهم من تقاطر من بلاد الشام الأخرى ففتحوا المتاجر واشتغلوا

بالمضاربة وأسسوا الشركات ، فضلا عن عدد كبير منهم اشتغل بالمهن العلمية كالمحاماة والطب والصحافة وغيرها .

ولعب السوريون دورا هاما فى مجالات الصحافة والعلم والفكر ، ونقلوا التمثيل العربى الى مصر ، وكان التعاون بين المصريين والسوريين فى هذا المجال أوثق ، اذ كان « الخديو اسماعيل » يحتضن المواهب الفنية والأدبية والعلمية الشامية ويمدها بالمال لتمويل مشروعاتها .

وبرغم تلك العلاقات الوثيقة ، فان الظروف المعقدة التى كانت تحيط بمصر فى ذلك الوقت جعلت الاستعمار الانجليزى ينجح فى خلق عدد من الحساسيات بين المصريين وبين الجالية السورية فى مصر ، وتزعم بعض المصريين الهجوم على الشوام لما يمارسون من أعمال تجارية تشكل تنافسا لهم ، وأدرك الشاعر حافظ ابراهيم المفارقة الغريبة بين الضيق بالسوريين فى الوقت الذى تمتلىء مصر فيه بحثالة الاوربيين .. فكتب قصيدة جميلة قال فيها مخاطبا مصر :

ماذا جنيت وما جناه أبوك
ألظلمتهم يا مصر أم ظلموك
فبسمت للغرب الطموح وأهله
ومنحتهم فوق الذى منحوك
وعبست فى وجه الشآم وانما
قطر الشآم وان عبست أخوك

المستشار الاحتلالى

فى عام ١٨٩٤ ضبط رئيس مجلس شورى النواب متلبسا بتهمة شراء أربع جوار حبشيات مخالفا بذلك القانون الذى كان يحرم الاتجار فى الرقيق أو شرائه ، وانتهزت مصلحة عتق الرقيق التى كان يديرها ضابط انجليزى اسمه جيفر بك الحادثة لتشهر بالكبار من المصريين ، وتستبدل منها على عدم

صلاحيتهم لحكم أنفسهم بأنفسهم • وانتهز اللورد كرومر ـ ممثل الاحتلال ـ الفرصة ليفرض رأيه بضرورة تعيين مستشار انجليزى لوزارة الداخلية •

فى ذلك الوقت كان المستشار الانجليزى فى أى وزارة ، هو وزيرها الفعلى ، ولأن وزارة الداخلية كانت وزارة الضبط والربط والعمد والخفراء ، فقد كان تعيين مستشار انجليزى لها يعنى وقوع الادارة المصرية بالكامل فى يد المحتلين •

وكان طبيعيا مع ذلك أن تثور الصحف الوطنية ، وأن تعترض بشدة على تعيين مستشار انجليزى لوزارة الداخلية ، وما لبثت أن نحتت لهذا المستشار اسما طريفا هو « المستشار الاحتلالى » • وفى الخريف تجمعت فى القاهرة وفود من وجهاء البلاد وأعيانها ، كانت غايتهم الظاهرة حضور مولد الاستاذ البيومى والامام الحسين ، أما هدفهم الأصلى فكان النقاش حول مسألة المستشار الاحتلالى •

على صفحات جريدة « الأهالى » التى كان يصدرها اسماعيل اباظة ، كتب صاحبها مقالا طريفا عن الحوار الذى دار بينه وبين الأعيان والعمد حول هذا الموضوع ، والأسئلة التى وجهوها اليه ، فقال ملخصا الحوار :

ـ سئلنا : هل تعيين المستشار يحول بين الدودة وبين الفتك بمزروعاتنا ، فاجبنا بلا •

ـ سئلنا : هل تعيين المستشار يدعو لتحسين اثمان محصولاتنا ، فاجبنا بلا •

ـ سئلنا : هل تعيين المستشار يكفل لنا تعديلا للضرائب على أطياننا ، أجبنا بلا •

ـ سئلنا : هل تعيين المستشار يقيم ميزان المساواة بيننا وبين الأجانب ، فلا يقاد كبيرنا الى سجون المحافظة والبوليس ويحتفل بتشييع حقيرهم الى دار القونصولاتو التابع لها ، ثم منها الى منزله ، فاجبنا بلا •

ـ سئلنا : هل تعيين المستشار يؤدى الى فتح معامل وفابريقات بالعاصمة وبسائر عواصم البلاد يشتغل بها الخالون من الأعمال وتأخذ مقدارا عظيما من الأقطان ، فترفع بسبب ذلك اثمانها فى الجهات الخارجية ونستغنى عن معظم ـ ان لم يكن سائر ـ المصنوعات الأجنبية ، فاجبنا بلا •

ـ سئلنا : هل تعيين المستشار يطهر العواصم والبنادر والبلاد من أدران الفسق والفجور والفساد فلا ترخص الحكومة المصرية الاسلامية العربية للنساء باستعمال البغى والفساد والاحتراف بمهنة الفحش والفجور ، ثم يدفع اليهن الرجال بما كفلته لهم من نظافة المومسات وبراءتهن من كل مرض

يخش من مضاره على صحتهم وأبدانهم ، ولا تعطى رخص أيضا للمراهقات والقاصرات عن درجة البلوغ بالخروج عن طاعة أولياء أمرهن والوقوف فى مسارح الرقص والابتذال تحت حماية عدل الحكومة وشهامتها ومروءتها وغيرتها ، فأجبنا بلا .

وعلى هذا النحو استعرض « اسماعيل أباظة » أوجه الفساد التى كانت تعم البلاد .. ساخرا من الاحتلال الذى يزعم انه حقق كل شىء وكأنه لم يبق سوى تعيين المستشار الاحتلالى لتصبح مصر جنة ..

وختم « اسماعيل أباظة » مقاله بالتساؤل الأخير :

- سئلنا : هل تعيين المستشار يساعد على اجابة الطلبات التى طلبتها جريدة « الأهالى » للأهالى منذ نشأتها لحد اليوم ؟ فأجبنا بلا .

وانتهت تساؤلات جريدة « الأهالى » الى نتيجة واحدة ، هى أن المستشار يعين لأنه احتلالى .. وهذا هو الموضوع الذى لا موضوع غيره !

عام الكف وعامل كفؤ

عندما عاد « ابراهيم المويلحى » الى مصر عام ١٨٩٥ ، كان قد أمضى ستة عشر عاما طويلة تنقل خلالها بين « نابولى » مصاحبا للخديو اسماعيل فى منفاه ، ثم باريس فلندن ، وأخيرا « الآستانة » حيث قضى عشر سنوات فى بلاط السلطان العثمانى ..

وخلال هذه السنوات اكتسب المويلحى رؤية أكثر مصرية عن كثير من كتاب زمنه وصحفييه ، وكان من الأصل ينحدر من أسرة من كبار المشتغلين بتجارة الحرير ، وهو ما جعله أكثر انفتاحا على الفكر الليبرالى ، وأكثر تقبلا للاتجاهات الجديدة .

وعندما أصدر مجلته « مصباح الشرق » جعلها منبرا من منابر الهجوم والسخرية على سلوك الشرائح العليا فى المجتمع ، وخاصة كبار ملاك الأراضى الذين كانوا يجمعون الأموال فلا يستخدمونها فى صناعة ، ولا ينمون بها تجارة ، بل يصرفونها على شهواتهم البدائية ، وعلى المظاهر الفارغة .. مما كان له أثره الضار فى بقاء الاقتصاد المصرى فى قبضة الاحتكارات الأوربية .

ولأن « مصباح الشرق » كانت تعتمد على الأسلوب الساخر فيما تكتب ، فان ما كان ينشر فيها كان يستفز غضب الذين تسخر منهم ، وكان « **محمد المويلحى** » ـ ابن ابراهيم وشريكه فى تحرير المجلة ـ صاحب قلم ساخر وشديد القسوة فى سخريته ، وقد استثار تعريضه المستمر بالأسر الكبيرة كراهية بعض أفرادها ، مما جعلهم يخططون للتحرش به ، والعدوان عليه .

وحدث أن التقى « محمد المويلحى » « بمحمد نشأت » أحد أبناء تلك الأسر فى حانة « دركوس » فثارت بينهما مناقشة حادة حول ما كتبه المويلحى الصغير ، وانتهت المناقشة بأن رفع « محمد نشأت » ذراعه وصفع « المويلحى » صفعة شديدة على قفاه .. وعندما ذاعت أنباء تلك اللطمة فى الأوساط الأدبية فى مصر ، أثلجت صدور الكثيرين من الأدباء والشعراء ممن كانوا يكرهون المويلحى ، ولا تنقطع بينهم وبينه الملاحاه .

وأفردت صحيفة « المؤيد » لصاحبها « الشيخ على يوسف » بابا يوميا سمته « عام الكف » كان يتضمن هجاء منظما فى المويلحى ، يتبادله كثيرون من أعدائه ، ومنهم أمير الشعراء « **احمد شوقى** » ، الذى كتب قصيدة مطلعها : « خدعوه بقولهم فيلسوف ، حتى رنت على قفاه الكفوف » .. وبعد أقل من عامين وقع « **على يوسف** » فى مطب قصة زواجه المشهورة ، عندما أعترض نقيب الأشراف « السيد على السادات » على زواجه من ابنته لأنه غير كفؤ لها ، ورد « المويلحى » بفتح باب يومى فى مصباح الشرق جعل عنوانه « عامل كفؤ » .

الغفلة وحق الرقابة

استهل شهر رمضان عام ١٨٩٥ بكارثة لم تتحقق نتائجها الا بعد ذلك التاريخ بأكثر من عشرة أعوام ، ففى أول الشهر المبارك استصدر الانجليز من الخديو « عباس حلمى الثانى » أمرا عاليا بتشكيل محكمة مخصوصة لمحاكمة من يعتدى على ضباط جيش الاحتلال أو جنوده ، ونص الأمر على أن تشكل هذه المحكمة من المستشار القضائى الانجليزى ، وضابط كبير من جيش الاحتلال ، وقاضى انجليزى من محكمة الاستئناف الأهلية ، ورئيس محكمة مصر أو الاسكندرية ، تحت رئاسة ناظر الحقانية ، وكان الأمر العالى

بتشكيل هذه المحكمة هو اغرب أمر فى التاريخ ، اذ نص على أن تحكم هذه المحكمة من غير قانون بحسب ما يتراءى لها ، وبأى عقوبة تراها حتى القتل ، كما نص على ألا تنعقد الا فى أحوال استثنائية عندما يطلب ذلك القنصل العام لانجلترا فى مصر بناء على تقرير يقدم اليه من قائد جيش الاحتلال ٠

وكانت حوادث اعتداء المصريين على جنود جيش الاحتلال قد تزايدت ، ففى الشهر السابق مباشرة على صدور القانون وقعت مشاجرتان عنيفتان من هذا النوع ٠ اذ كانت عربة القنصل الألمانى العام تقف أمام فندق شبرد القديم بالأزبكية ، فأراد أحد الضباط الانجليز الذين يعملون فى البوليس أن يجبر سائقها ـ وهو مصرى ـ على الوقوف فى المحل المعد لوقوف العربات العمومية فأبى قائلا :

ـ ان عربات القناصل تقف هنا بطريقة استثنائية ٠

فنهره الضابط ٠٠ ولما طال الحديث ضربه الضابط الانجليزى ، وشاركه فى الاعتداء عليه بعض رجال البوليس بأمره ، فرد السائق عليهم أهانتهم ، وتحول الأمر الى مشاجرة ٠

وفى نفس الأسبوع حدثت مشاجرة فى الاسكندرية بين ثلاثة من عساكر الانجليز البحرية وفريق من الأهالى بحى البغاء ، وانتهت المشاجرة بأن ضرب الأهالى أحد الانجليز ضربا أصابه بجروح احتاجت لعلاج أكثر من أسبوع ، وأثارت الحادثة غضب الانجليز الذين شعروا بأن هيبة الاحتلال قد بدأت تهتز ، وأن انتصارهم العسكرى فى التل الكبير ، الذى بنوا على أساسه هيبتهم العسكرية ، أصبح فى مهب الريح ٠

وهكذا ضغطوا على الحكومة المصرية ـ التى كانت ألعوبة فى أيديهم ـ واستصدروا منها هذا الأمر العالى ، ووافق مجلس الوزراء عليه دون أى معارضة ، ولم يراع المجلس حرمة المصريين ولا احساسهم ، فقد كان واضحا ان الانجليز لا يقصدون بهذه المحكمة العرفية الا التنكيل بمن يعارضهم أو يقاوم تصرفات جيش احتلالهم ٠

بعد أحد عشر عاما من هذا التاريخ ، أثمر هذا القانون ثمرته ، فبمقتضاه حوكم أهالى دنشواى وسيقوا الى المشنقة والمجلدة ، وتعذبت مصر كلها بأمر عال صدر فى غفلة من الشعب ذات صباح من رمضان ٠

وما أكثر ما يعانى شعب يغفل عن حقه فى الرقابة على القوانين ٠

الكوليرا الحقيقية

كان الوباء جزءا من العذاب الطويل الذى ابتليت به مصر على امتداد تاريخها ، وطوال العصور الوسطى كانت الطواعين والأوبئة تحدث بشكل دورى : وراءها دائما الفقر والقحط والمضاربون ·

كانت الكوليرا التى ظهرت بشائرها فى مايو عام ١٨٩٦ واحـدة من أقسى وأضرى هجمات الوباء على مصر ، فقد تميز موسم الوباء فى تلك السنة ، لا بكثرة ضحاياه فحسب ، ولكن أيضا بذلك العنف الذى واجه به المصريون الاجراءات الوقائية التى أرادت الحكومة فرضها عليهم لمحاصرة الوباء ، والقضاء عليه ، وكان قد مضى على احتلال الانجليز لمصر ١٤ عاما عانى فيها الناس من الشعور بالذل والمهانة ، ومن كبت مشاعر الغضب مما جعلهم فى حالة توتر مستمر ، سرعان ما انفجر ضد الكوليرا الحقيقية ·

وكان الأطباء من ناحيتهم يتصرفون بعصبية ، ويحاولون اذلال الناس دون مبرر ، اذ كانوا يفتقدون للوعى البسيط بأن مصر موبوءة لا بالكوليرا وحدها ، ولكن أيضا بالفقر والاحتلال ، كانوا يدمرون غذاء الناس الذين لا يملكون غيره كاجراء وقائى يحول دون انتشار ميكروبات الكوليرا ، دون أن يفكروا لحظة واحدة فى بديل لما دمروه يقى أصحابه الجوع والمسبغة ·

وفى يوم عيد الأضحى من عام ١٨٩٦ حدث هياج شديد فى مصر القديمة ، فقد أتلف أحد الأطباء الأجانب خبزا وقمحا لأحد الأهالى الفقراء ، بدعوى أنه ملوث بميكروبات الكوليرا ، وعندما احتج الناس فتح الطبيب زجاجة من حمض حارق كان يتلف بها الأطعمة الملوثة ، وألقى بها على وجه المتجمهرين ، وأصاب الحمض وجوه بعضهم ، لحظتها لم يعد فى قوس الصبر منزع ، هجم عليه الفقراء وأخذوا الزجاجة منه ، وصبوا ما بقى فيها على جسمه ·

وفى نفس اليوم هاجم الأهالى طبيبا انجليزيا فى باب الشعرية ، وكسروا ذراع أحد مساعديه لأنه أتلف طعامهم ، وفعل أهالى بولاق نفس الشىء فى طبيب ثالث ·

لم تكن تصرفات الناس تخلفا أو رفضا للعلاج ، لكنهم وهم يواجهون الموت بالوباء أو بالجوع كانوا يعون أن الاحتلال هو الكوليرا الحقيقية ·

ليل الصالحين بالنهار

ضاع كتاب « **المسامير** » ، أكثر الكتب بذاءة في أدب الهجاء المصرى ، وأحد الأعمال الكثيرة التى فقدت من كتابات « **عبد الله النديم** » • وصحيح أن البذاءة شىء مستكف فى الكتابة وفى الكلام ، لكن التاريخ يؤكد لنا أنها أحيانا الوسيلة الوحيدة للتغلب على بعض الناس ، فعندما يتهم لص الآخرين بأنهم غير شرفاء ، أو يرتدى منحل ثياب الدين ليتهم الآخرين بالالحاد ، كأنه شق عن قلوبهم ، فلا رد على هؤلاء ــ أحيانا ــ الا البذاءة •• وذلك ما فعله « عبد الله النديم » في ذلك النص الذى ضاع للاسف •

والمعلومات المتوفرة عن الكتاب تقول أنه كتب خصيصا للهجوم على « **أبى الهدى الصيادى** » ، أكبر مستشارى السلطان العثمانى « **عبد الحميد** » وأكثرهم نفوذا ، وكان « النديم » بعدما اختفى تسع سنوات طويلة فى قلب مصر ، قد ظهر ثم نفى الى « الآستانة » ، وكان لابد أن يصطدم بالصيادى الذى كان واسع النفوذ فى البلاط العثمانى ، ماهرا فى تشكيك السلطان فى كل الناس والصاق التهم بهم ، والغريب أن « أبا الهدى » كان منحلا بلا أخلاق ، لدرجة أنه كان له معشوق اسمه « محمد شكيب » أراد أن يتدلل عليه ، فترك استانبول ورحل الى القاهرة ، ولما كان الصيادى لا يطيق فراق غلامه فقد بعث الى المسئولين فى مصر يطلب منهم البحث عنه والنصح له بسرعة العودة الى قصر المستشار السلطانى •

واهتزت مصر كلها ، وجندت قوى البوليس السرى والعلنى لتنفيذ رغبة الصيادى ، وكان الخديو « **عباس حلمى** » قد تلقى تقريرا من رئيس البوليس السياسى يقول فيه : « علمت أن الصيادى لا يكاد يصبر على فراق شكيب ، وأن جسمه قد هزل لغيابه عنه » ، ولحرصه على ارضاء أكبر مستشارى السلطان فقد أمر الخديو عباس حلمى بتكثيف البحث عنه ، وشغل رجال الحاشية والبوليس بذلك الأمر ، وأخيرا عثر البوليس عليه ، فبادر الخديو بارسال برقية عاجلة للمستشار السلطانى يقول فيها : « لقد عثرنا عليه بعد أن بثثنا العيون والأرصاد في الاسكندرية وبور سعيد » •

الجانب الآخر من المأساة ــ بعد انشغال دولتين بالبحث عن المعشوق الهارب وتسجيل ذلك في مكاتبات رسمية ــ كان يتمثل فى أن « أبو الهدى الصيادى » كان يدعى التقى والورع والتدين ، وكان مستشارا دينيا للسلطان ، ليس هذا فقط وانما كان يتهم الناس فى اخلاصهم للدين وفى حبهم للسلطان ، ويوزع عليهم فتاوى الالحاد والمروق عن الطاعة ، ولا يترك المسبحة ولا حلقات الذكر •• يدعى انه صالح فى الصباح ، وفى المساء يشرب الخمر ويرتكب الموبقات ••

والى هذا النفاق أشار شاعر النيل حافظ ابراهيم فى قصيدة ساخرة له ، يقول فيها :

أخــرق الــدف لـو رأيــت شــكيبا
وأقضــى الأذكــار حتــى يغيبــا
وهــو ذكــرى وقبلتى وامــامى
وطبيبــى اذا دعــوت الطبيبــا
أو تــرانى وقــد تعمــدت قتــلى
بالثنــائى رأيــت شــيخا غريبــا
هــو لا ينحنــى لغــيرك اجــلالا
ولا يشــتهى ســواك حبيبــا
فســلوا ســبحتى هــل كــان تسـبيحى
فيهــا الا : شــكيبا ·· شــكيبا

ولعل ذلك كان موضوع « المسامير » ، أكثر الكتب بذاءة فى أدب الهجاء على ما يقول من قرأوه ، بسببه نفى « النديم » من استانبول ، فهل يعثر عليه أحد هذه الأيام لتخرس بظهوره أقلام وألسنة الصالحين فى النهار يتهمون الناس بالالحاد وتسبيحهم ليس الا : شكيبا ·· شكيبا (!!) ·

تقرير خليفة أفندى

كتابة التقارير أكل عيش ·· ومهنة يلجأ اليها أحيانا فقراء لا يتقنون مهنة غيرها ، وأحيانا يلجأ اليها كتاب لا يحسنون كتابة المقالات فيستبدلونها بكتابة « تقارير » مزيفة ·

وفي بعض الظروف قد يقود تقرير برىء الى السجن ، لكن ــ وتلك حكمة الهية ــ معظم كتاب التقارير ينتهون الى الشارع متعطلين ، لا يكتبون مقالات ولا حتى تقارير ·

ولم يكن « **خليفة أفندى** » كاتب مقالات ، لكنه كان كاتب قيودات ، وفى بعض الأحيان تقارير ، والحادثة حدثت فى أواخر القرن الماضى عندما كان شيخ القضاة « **عبد العزيز فهمى** » معاونا للادارة بأحد مراكز المنصورة ، وكان شديد الاعتداد بنفسه ، الأمر الذى أثار عليه شلة من المنافقين والأرزقية ،

كانت تحيط بباشكاتب المديرية ، رأت أن اعتزاز معاون الادارة الشاب بنفسه يكشف تضاؤلهم ، وتمسكه بكرامته يكشف انهم بلا كرامة ٠

وانهمكت شلة الباشكاتب فى كتابة التقارير ضد « **عبد العزيز فهمى** » فنقل من ديوان المديرية فى المنصورة الى بلد قريبة منها اسمها « قولونجيل » لكى يشرف على حماية جسور النيل التى كان يقوم بها مجموعة من الخفراء ، يقيمون فى أخصاص ويستمرون كذلك طوال موسم الفيضان ، وانهالت التقارير على رأس « **عبد العزيز فهمى** » تتهمه بأنه يحب الأهالى ويسهر مع العمد والفلاحين ، ومعنى هذا أنهم لن يدفعوا لبقية الشلة الرواتب والأتاوى وبقية المكاسب ، وانتهت هذه التقارير بنقل « عبد العزيز فهمى » الى بلدة أخرى هى « سنبخت » فنقل اليها خصه ببوصه وأخشابه ٠

وشاءت الظروف أن يتزايد خطر الفيضان ، وكان الجسر فى سنبخت ضعيفا ، ولما علا النيل بدأ الماء يتسرب منه ، وكان معنى هذا أن يصبح « عبد العزيز فهمى » هدفا سهلا لشلة الباشكاتب لكى يكتبوا ضده لا تقرير بل منشورا ، لكن أهالى « سنبخت » كانوا قد سمعوا بأخلاق المعاون ، وعرفوا أن الذين يسومونهم العذاب يتربصون للرجل لكى يسجلوا عليه تقصيرا فى أداء واجبه ، فسارعوا — دون أن يطلب منهم ذلك — يمدون له يد المساعدة ، وعبأت البلاد المجاورة نفسها ، وجاءوا بأكياس الرمل وطرحوها أمام الجسور وانشأوا جسرا جديدا خلف الجسر الأصلى ٠٠ ودفعوا بذلك خطر الفيضان ٠

فى ذلك الوقت كان الباشكاتب قد بلغه الخبر ، فأسرع بارسال أقدم كاتب تقارير عنده ، وهو « خليفة أفندى » وكلفه بالذهاب الى « سنبخت » والعودة بتقرير يطيح برأس المعاون ٠٠ ووصل « خليفة أفندى » ليجد أن الضرر لقد دفع وان الأهالى قد قاموا بالواجب ٠

ولأن « خليفة أفندى » كان كاتب تقارير محترف ، فقد أصر على ألا يعود خالى الوفاض ، فكتب تقريرا قال فيه : ان المعاون يهمل ، وأن الخفراء يهربون من العمل بعلمه ويسرقون العهدة الرسمية من المقاطف والفئوس ٠ ووصل التقرير الى مدير المديرية الذى حوله الى « عبد العزيز فهمى » فرد عليه ردا عنيفا وقال : انه تقرير كاذب من الألف الى الياء ٠

واستفز الرد المدير فجاء بنفسه ليتفقد العمل فى صحبة الباشكاتب ٠٠ وفوجىء الاثنان بالعمل يقوم على قدم وساق ، فليس الخفراء وحدهم هم الذين يعملون بل أهالى البلد ، وبفئوس ومقاطف اضافية ، ونظر المدير الى الباشكاتب نظرة ذات معنى ، فقال هذا نافيا التهمة عن نفسه :

— ولكنى أرسلت لك « خليفة أفندى » وهو أحسن كاتب تقارير عندى ٠٠

وقطع المدير المناقشة ٠٠ وانقطع عيش « خليفة أفندى » ٠

كثيرون يعرفون اليوم « عبد العزيز فهمى » لكن من ذا يذكر الأرزقية والتقويرجية ؟!

كبارى قطاع خاص

فى مايو ١٨٩٢ افتتح الخديو « عباس حلمى الثانى » كوبرى امبابة الذى انشىء لتوصيل سكة حديد الوجه القبلى بنظيرتها فى الوجه البحرى · وقبل انشاء هذا الكوبرى كانت هناك معدية بخارية فى نفس مكانه تقوم بنقل المسافرين الى ضفة النهر الأخرى · واستطاع الكوبرى الجديد أن يغير فى تخطيط المنطقة ، فقد أدى انشاؤه الى الغـاء محطة السكة الحديد ببولاق الدكرور ، وانتقلت محطة الصعيد الى السبتية ، وبدىء فى نفس شهر انشائه فى بناء محطة عمومية هى التى تعرف الآن باسم محطة مصر ·

وبرغم أن ذلك الكوبرى قد بنى من عرق المصريين وبجهدهم ، فلم يكن مسموحا لهم بالمرور عليه · ذلك أن الحكومة المصرية ايامها كانت تفرض ضريبة اسمها « ضريبة الكبارى » وبمقتضاها كان يحصل من كل مار على كوبرى امبابة رسم مرور قدره مليمان ، وكالعادة سارع بعض الناس لاستغلال الآخرين · فقرروا منافسة كبارى الحكومة بكبارى قطاع خاص · وهكـذا سارعوا بشراء عدد من القوارب المستعملة والمتواضعة وحولوها الى معديات كانت تعبر النهر من تحت الكوبرى ، وتحمل الناس وأمتعتهم وتنقلهم مقابل رسم قدره مليم واحد فقط ·

ايامها كانت امبابة منطقة ريفية تنقل للقاهرة حاجتها من الخضروات والبيض والسمن ، وكان يسكنها كثيرون ترتبط مصالحهم بالمدينة الأم ، وهكذا ازدحمت المعديات وراجت سوقها · ولم تهتم مصلحة السكة الحديد ، التى كانت تحصل على رسم المليمين ، بهـذه المنافسة التى شـنها القطاع الخاص · فقد كان هناك كثيرون يمرون على الكوبرى ويدفعون الرسم المقرر ·

وحدث فى أكتوبر ١٨٩٢ أن كانت احدى المعديات تمر تحت الكوبرى ، وكانت تحمـل سـتين فلاحا بأحمالهم وهمومهم وبخير الريف الذى ذهبوا يتاجرون به فى المدينة الواسعة ، وبعد أن قبض صاحبها ستين مليما رسم

المرور بدأ رحلته الى الضفة الأخرى للنهر · وفى وسطه تماما ناءت المعدية بمن تحملهم وانقلبت فى النهر · فلم ينجو من ركابها سوى سبعة فقط وغرق الباقون فى النهر · وثارت الصحف ونددت بمصلحة السكة الحديد التى تريد أن تكسب حتى من الكبارى ، وتساءلت عن مبرر الرسم الذى تحصله وماذا يضيف الى ميزانيتها وحملتها مسئولية ضياع حياة هؤلاء الفقراء ، اذ لو لم يكن الرسم فوق احتمال الناس ، لما ألقوا أنفسهم بين براثن هذه الكبارى غير الحكومية ، ولما ضاعوا بلا ثمن ·

وأثمرت الحملة ثمرتها ·· فبعد ستة أشهر صدر أمر عال من الخديو « عباس حلمى الثانى » بالغاء رسوم المرور على الكبارى فى جميع أنحاء القطر المصرى ·· وأفلست كبارى القطاع الخاص ·

شيخ الحارة والامبريالية

كان عمره قصيرا كعمر الزهور لكنه كان عميقا وضاربا فى الجذور ككل الأشجار المعمرة ، ترك فى حياة هذا الشعب أثرا لا تمحوه الأيام ، وصنع معجزة حقيقية ·

جنود مجهولون لا يعرفهم أحد ساندوه ، صدوا عنه حراب دولة كبرى ، كان يحاربها بلا سلاح ·· لا يملك الا مقالات يكتبها وقصائد من الشعر وخطبا بليغة ، ومجهودا مضنيا فى عواصم العالم ، ووعيا سياسيا عظيما يؤكد ذكاء شعبه وقدرته الفائقة على التقاط الخط الصحيح فى أكثر السنوات ظلما وظلاما ·

واحد من هؤلاء الذين ساندوه اسمه « **الشيخ محمد زايد** » · وظيفته : شيخ احدى حارات حى الخليفة فى قاهرة عام ١٨٩٦ ·

أيامها كان « **مصطفى كامل** » فى أوربا يشن الغارة على الاحتلال ، وفكر المحتلون فى وسيلة يحاربونه بها ، فهداهم تفكيرهم الى تجنيده فى الجيش ، وكان الجيش آنذاك تحت سيطرة الانجليز ، يأتمر بأمرهم · وتجنيد « مصطفى كامل » وسيلة لضربه فى الصميم يمنعه من العمل السياسى من جهة ، ويضعه تحت امرة أعدائه من الضباط الانجليز من جهة أخرى ·

وأوعز « رئيس مجلس القرعة » الى مأمور قسم الخليفة أن يعمل كل ما فى وسعه لتبليغ اعلان اقتراع « مصطفى كامل » لأحد أفراد عائلته ، حتى اذا مضت ثلاثة أشهر على هذا الاعلان يكون اقتراعه واجبا كما تقتضيه القوانين ، وسلم الاعلان بالفعل للشيخ « محمد زايد » – شيخ الحارة – بين الاعلانات الأخرى ، ولأن الشيخ لا يعرف شيئا عن المكيدة ، فقد توجه الى منزل « مصطفى كامل » وسأل عنه أحد الخدم فقال له أنه فى أوربا ، وحفظ الشيخ الاعلان فى جيبه اعتمادا على قرب حضوره ليسلمه له بنفسه .

ومضت الشهور الثلاثة ، وعاد « مصطفى كامل » ليفاجأ بدعوة تطلبه للمثول أمام مجلس القرعة العسكرية لحلول موعد تجنيده لأنه لم يبد أقل معارضة بعد الاعلان الذى أرسل اليه .

وانهمك مصطفى كامل فى دراسة قوانين القرعة ، فوجد أنه يجب عند عملية الاقتراع بأى قسم ، اعلان ذلك بالوقائع المصرية ، وتعليق أسماء المقترعين بلوحة فى القسم التابعين له ، وارسال اعلان خاص لكل مقترع ، أو لمن لهم به أية علاقة من أهله أو من خدمه .

بمقتضى ذلك كانت شهادة شيخ الحارة هى الفيصل فى الموضوع ، ولهذا استدعاه « مصطفى كامل » وشرح له الموقف ، وطلب منه أن يشهد بما اذا كان قد سلم اعلان اقتراعه لأحد من أهله ، وهل علقت أسماء المقترعين فى قسم الخليفة . فقال له شيخ الحارة على الفور :

– ما حصل شىء من هذا .

وتحمس لأن تكون شهادته مكتوبة ، وكتبها بالفعل .

وتوجه « مصطفى كامل » الى مجلس القرعة ، وقدم الشهادة التى كتبها شيخ الحارة ، ولما رفضها رئيس المجلس بحجة ورودها بعد الميعاد ، تركه « مصطفى كامل » قائلا :

– افعل ما شئت .

فى اليوم التالى صدرت جريدة « الجورنال اجبسيان » المسائية فى الصباح خصيصا لتشرح المسألة ، وطيرت وكالة « هافاس » النبأ الى أنحاء أوربا ، وقامت القيامة .

وهكذا أفشل شيخ الحارة مؤامرة الامبريالية العالمية .

باللو فى قصر أفندينا

كان أفندينا « **عباس حلمى الثانى** » يهوى حفلات الرقص الأوربى ، وكانت تعرف أيامها بحفلات (الباللو) وهى كلمة ايطالية بمعنى حفلة راقصة ٠

وكان افندينا أخصائيا عظيما فى مسألة « الباللو » هذه ٠ بمعنى أنه كان نصابا ومحتالا يبيع الرتب والنياشين ، ويسرق ايراد الأوقاف ، وكان شرها للمال بشكل مرعب ، وقد أحرج شرهه هذا كل القوى الوطنية التى تحالفت معه فى تلك المرحلة بسبب موقفه المعادى من الاستعمار ، والذين كانوا يخجلون عندما كان اللورد كرومر - ممثل الاحتلال الانجليزى - يشهر بالخديو لأنه يسرق استحقاق مصريين فقراء فى وقف خيرى يتنظر عليه ، ويسرح مجموعة من السماسرة يعلنون فى كل مكان عن أسعار البيكوية والباشوية حتى فقدت الألقاب الرفيعة قيمتها أيامها من فرط ما عرضت للبيع فى الأسواق ٠ وكانت حفلات « الباللو » هى الفرصة التى ينتهزها الخديو وسماسرته للتعاقد على كل ما كان يمارسه من باللو٠

وحدث مرة فى عام ١٨٩٦ أن كادت احدى حفلات « الباللو » التى اقامها أفندينا أن تفشل بسبب حادث خارج عن ارادته ٠

ففى ١٢ فبراير من ذلك العام ، دعا الخديو الى حفلة كبرى من هذا النوع ، وامتلأ قصر عابدين بالمدعويين والمدعوات من زهرات الجاليات الأوربية ، وكان من بين المدعويين « **عثمان بك مرتضى** » سكرتير نظارة الحقانية ، ويبدو أن « عثمان بك » قد أفرط فى الشرب ، فقد فوجىء به المدعوون يتقيأ على مشهد من كل أزهار وزهرات « الباللو » ، وعندما احاط به البعض مشفقا عليه ليساعده على أمره ، فوجئوا به يقوم فيتبول علنا فى قاعة الرقص الفخمة ، ويحولها الى مرحاض عمومى ٠

وغضب الخديو غضبا شديدا وطلب من وزيره أن يأمره بالاستقالة من وظيفته ، وبالفعل استقال وقبلت الاستقالة ، ولكثرة خصومه فقد أخذوا يغرون الخديو بالانتقام منه ، لا بنفيه ولكن بابقائه فى القاهرة ، وفى وزارة الحقانية ، مع تخفيض درجته الى وكيل أقلام بعد أن كان ناظرا للاقلام ٠

وعندما شاعت الحكاية فى الشارع ضرب المصريون كفا بكف ودهشوا من غضب الخديو على رجل قال رأيه الحقيقى فى هذا الباللو الذى يحدث فى قصر أفندينا ٠

الانشاء وليس الثورة

فى عام ١٨٨٩ التحق « **احمد لطفى السيد** » بمدرسة الحقـوق التى كانت وقتذاك مزيجا من كليتى الحقوق والآداب ، اذ كان طلبتها يدرسون فيها الى جانب العلوم القانونية ، علوما أدبية كالنحو والصرف وآداب اللغة ، وتفسير القرآن ، وآداب البحث والمناظرة والمنطق ٠

وخلال فترة دراسته كان « **لطفى السيد** » يكتب فى الصحف ، ويعاون « المؤيد » فى ترجمة تلغرافاتها الخارجية ، ويهتم بالقراءة فى الفلسفة والتبشير بالآراء الديمقراطية ، ويثير مناقشات فى ذلك كله وسط زملائه من طلبـة المدرسة ٠ وقد أنشأ وهو طالب « مجلة التشريع » وخصصها للتبشير بالآراء الليبرالية فى اصدار القوانين ، ملحا ـ ومطالبا ـ بأن تكون تعبيرا عن الأمة وليس عن الحكومة ٠

وكان السبب المباشر فى اصدار هذه المجلـة حوارا دار بينـه وبين « **الامام محمد عبده** » الذى كان عضوا فى لجنة امتحـان العلوم العربية المقررة على طلاب مدرسة الحقوق ، ففى امتحان السنة الثالثة طلب الامام من الطلبة أن يكتبوا موضوع انشاء عن « حق الحكومة فى معاقبة الجانى » وتناول « لطفى السيد » فى اجابته ، عرضا لكل المذاهب التى كتبها علمـاء الجنايات فى هذا الموضوع ، والشروح التى قدموها لمواد قانون العقوبات ، ونقد كل هذه المذاهب ورفضها لأنه كان من المتأثرين بآراء « روسو » عن العقد الاجتماعى ، وهو ما دفعه الى القول فى اجابته بأنه ليس لأى حكومة مصرية الحق فى معاقبة أى جان مهما فعل ، فالحكومة المصرية وقتها نشأت بالقوة ، وليس من خلال عقد اجتماعى وقعه الحاكمون والمحكومون ٠

وعندما خرج « **لطفى** » من الامتحان أخذ يقارن اجابته باجابة زميله « **محمود عبد الغفار** » ، الذى ما أن عرف ما كتبه « **لطفى** » حتى أخذ يضرب كفا بكف ، مؤكدا له انه سيأخذ صفرا مكعبا على هذا الجواب ويؤنبه على فلسفته التى ستذهب به فى داهية ٠

وأثارت كلمات **محمود عبد الغفار** القلق فى نفس **لطفى السيد** ، وبات متأكدا من سقوطه ، ودخل الامتحان الشفهى بهذه الروح ، وما ان جلس أمام اللجنة التى كانت تضم المشايخ : **محمد عبده وحسن الطويل وعبد الكريم سلمان** حتى قال له الأستاذ الامام :

ـ لقد صححت لك اجابتك فى التحريرى ، وأعطيتك أعلى درجة ٠٠ لا على ثورتك على الحكومات ولكن على الانشاء ٠

وخرج **لطفى السيد** لينشىء مجلة « التشريع » محاولا أن يأخذ بها أعلى درجة فى الثورة ، وليس فى الانشاء ٠

مجلس الأنس الهنى

فى يونيو ١٨٨٢ وقعت مذبحة الاسكندرية الشهيرة أثناء الثورة العرابية ، وكان بطل هذه المذبحة هو **عمر لطفى** محافظ الاسكندرية آنذاك الذى تآمر مع **الخديو توفيق** ضد **عرابى** ، وبعد الاحتلال أصبح **عمر لطفى** وزيرا للحربية ، ثم عين رئيسا لمجلس « شورى القوانين » وكان هذا المجلس مؤسسة صورية أنشأها الاحتلال بديلا للمجلس النيابى الديمقراطى والوطنى الذى عاش فترة قصيرة أيام الثورة العرابية ٠

وكانت روح السخرية والتجريح قد انتشرت بعد هزيمة الثورة العرابية ، وتبع هذا صدور أكثر من عشرين صحيفة ومجلة هزلية كانت تسخر من الاحتلال وعملائه ومؤسساته وخاصة مجلس الشورى ٠

وفى عام ١٩٠٠ نشرت مجلة « الخلاعة » هذه الفقرة تسخر فيها من مجلس الشورى ورئيسه وأعضائه وقالت :

ــ انه فى يوم زى وش الأبعد ، أنا محضر محكمة « هزياون » ، قد انتقلت الى محل اقامة رئيس مجلس الأنس الهنى الشهير باسم شورى القوانين ، وأعلنته أن يدفع للطالب ، اللى هو أنا ، مبلغ وقدره خمسين حمار حصاوى ، وفاء للحكم الصادر ضده ، فى جلسة يوم ماطلعتلوش شمس ، ولما زمجر وبرطم ، وتمتم وطمطم ، أوقعت الحجز على المنقولات الآتية :

عدد ٦ لسان انجليزى مزركش بالذهب الابريزى ، طول شبر ونصف ، مسحوب على الوطنيين ولا الضالين ٠ عدد ٢٥ عضو خشب لطزان منجدين بالسلك وعلى كل منهم مخدة ولحافين عليهم العين ٠ عدد ١٨ بطانية محلاوى وبر النعام ، يتغطى بها المجلس عندما ينام ، مقاس ٣٠ قلم فى ستين داهية ، عدد ١٥ شلوت عثمانلى بالترتر ٠ عدد ٣٠ عفريت انجليزى راكبين على أنفاس الأعضاء وحاطين مناخيرهم فى الأرض بعد ما كانت فى السما ، وحدد لبيع هذه الأصناف يوم ماناكل العيش الحاف ، فعلى راغب الشراء الحضور بدون دستور ٠

وأهل مصر ـ كما يقول ابن اياس ـ لا يطاقون من السنتهم اذا أطلقوها فى حق الناس ٠

الأقباط فى الأزهر

تدعمت العلاقات بين الأقباط والمسلمين فى مصر ، فى فترات مختلفة من التاريخ ٠٠ الى درجة أن شملت هذه العلاقات كافة مجالات الحياة دون عقد أو حساسيات ٠

وعلى مشارف القرن الماضى ، كان الأقباط يتلقون تعليمهم على يد علماء من المسلمين ، فيتعلمون عليهم الأدب والنحو والمنطق ٠ بل ان عددا من كبار أدباء الأقباط وشعرائهم قد تعلموا فى الأزهر الشريف ، ومن هؤلاء « **ميخائيل عبد السيد** » صاحب جريدة « الوطن » ورئيس تحريرها ، الذى كان يهتم بأنباء تردد الأقباط على الأزهر وشجعهم على أن يدفعوا أبناءهم اليه ليتلقوا العلوم المنطقية والشرعية ، وقالت الجريدة فى خبر نشرته عام ١٩١٤ أن هناك عددا كبيرا من الأقباط يترددون على حلقات الدروس المختصة بعلوم المنقول والمعقول فى الأزهر ، وقالت ان بعضهم قد برع فيما تلقوه من دروس المنطق والنحو والصرف ٠

ومن المعروف أن المذهب الحنفى يجيز تلقى أهل الذمة لعلوم المسلمين وفى معاهدهم ، ومن هنا تلقى عدد كبير من الأقباط العلم فى الأزهر ، الى الدرجة التى استمر فيها **ميخائيل عبد السيد** يدرس فيه وانتقل الى دار العلوم ليدرس لطلبتها ، وقد درس به أيضا **تادرس وهبى** ، وهو من أشهر شعراء الأقباط ، وكان يحفظ القرآن ويفهمه ويكثر من الاقتباس منه فى خطبه وأحاديثه وكتاباته ٠٠ وكان يحفظ كذلك الأحاديث النبوية ٠

وفى عام ١٩٠٢ ظهر وجه **فرنسيس العتر** ، فى مجلس الشيخ محمد عبده ، وكان الشيخ يحبه ويقربه ويرحب به ، ويتيح له فرصة للاشتراك فى المناقشات الأدبية والفقهية ٠

وكان بعض الأقباط يلتحقون للدراسة بالأزهر بأسماء اسلامية ، ومنهم **جندى ابراهيم** ، وهو صحفى مشهور ، وقد درس بالأزهر تحت اسم الشيخ « ابراهيم الجندى » ٠

ومن أشهر الساسة الأقباط الذين تأثروا بالثقافة الاسلامية ، **مكرم عبيد** الذى كان يستخدم أسلوب القرآن الجزل فى خطبه وأحاديثه ومقالاته ، وكان من أكثر الأقباط ـ ساسة وأدباء ـ قراءة للتراث الاسلامى ، وتأثرا به ٠

٦

هالـــو ٠٠ بوبى

فى زمن الاحتلال الانجليزى لمصر ، كان كل شىء مصريا بالاسم ٠٠ انجليزيا بالفعل : على رأس كل وزارة وزير يحمل الجنسية المصرية ، يلبس طربوشا مصريا فوق رأس انجليزية التركيب بالانتماء أو الخوف ٠٠ وكان الخوف عادة هو وكيل الوزارة أو مستشارها الذى كان انجليزيا بالجنسية ، مهمته أن يعقل لسان أى وزير لئلا يصاب بنوبة طارئة من الوطنية أو على الأقل من احترام الذات ٠

أيامها كان لوكيل وزارة الزراعة الانجليزى كلبا مدللا ، وكانت هوايته الدخول الى مكتب الوزير ومعه كلبه ، وبرغم أن الوزير كان يتضايق من دخول الكلب الى مكتبه ، فانه كان يتحمل الاهانة صاغرا وخاصة أن الوكيل كان يفعل ذلك أمام الموظفين فيمر بردهات الوزارة ساحبا الكلب الى مكتب الوزير ٠٠ وحاول الوزير أن يظهر أمام موظفيه بمظهر الرجل القوى ، فقال لهم مرة :

ـ اننى أحتج كل مرة على دخول الكلب مكتبى وأجبر الوكيل على ابقائه وراء الساتر الموجود فى الغرفة ٠

وسمع موظف من دلاديـل الانجليز هذه القصة ، فنقلهـا الى الوكيل الانجليزى ، الذى فتحت القصة ـ ولو أنها مكذوبة ـ عينه على أن كلبه العظيم لا يعامل معاملة ممتازة تليق بكلب ممثل بريطانيا العظمى التى كان اقتصاد مصر كله تحت سيطرتها ، وينبغى لهذا أن يكون أهلها أقل من كلاب المحتلين ٠٠ وعلى الفور رسم الوكيل خطة لتأكيد هيبة كلبه ومكانته الممتازة ٠

فى اليوم التالى دخل الوكيل الانجليزى الى مكتب الوزير ساحبا كلبه ، وانتحل الموظف الدلدول عذرا أتاح له أن يدخل مكتب الوزير ليعرض أوراقا ٠٠ وبينما انهمك الوزير فى توقيع الأوراق قام الوكيل الأحمر فأزاح جانبا من

الأوراق ثم ضرب بيده الكلب فقفز على مكتب الوزير متربعا عليه ، وكان المنتظر أن يغضب الوزير أو يتجهم وجهه أو يسكت ، وهو أضعف الايمان ، لكنه نسى أكاذيبه ، التى راح يروج بها لهيبته المصطنعة عن رفضه القوى لكلب الوكيل ، ونسى الموظف الذى طالما روى أمامه هذه الأكاذيب ٠٠ وقام بوقار وانحنى على الكلب ، يداعبه قائلا :

ـ هالو بوبى !

الكلب الانجليزى

ما أكثر ما تحمل الشعب المصرى من اذلال الاستعماريين وعنجهيتهم ٠٠ فبعد اجهاض الثورة العرابية وقعت السلطة بالكامل فى يد انجلترا : كان الوكيل الانجليزى لوزارة الزراعة على مشارف القرن يقتنى كلبا يدلله ويصر على أن تكون له هيبته ومكانته التى يستمدها من جنسيته الانجليزية والتى تجعله ـ رغم أنه مجرد كلب ـ فى مكانة أعلى من مكانة كل موظفى وزارة الزراعة من المصريين ٠

وكثيرا ما كان الوزير الانجليزى يستمرىء الكسل ولا يذهب الى الوزارة ويكتفى بالجلوس فى نادى الجزيرة ، ويرسل الكلب وحده للوزارة ، ومعه عصاه فى فمه وقبعته فوق رأسه ٠ ويصل الكلب الى مبنى الوزارة ويعرف طريقه الى مكتب سيده ، فيدخله ويضع العصا التى فى فمه على المكتب ويحتفظ بالقبعة على رأسه ٠

فى بعض الأيام كان الوكيل يصل بعد الكلب ، وفى أحيان أخرى كانت الجلسة فى نادى الجزيرة تجتذبه فيظل ينتقل من ملعب الى ملعب ، ويظل الموظفون المصريون فى وزارة الزراعة فى مكاتبهم ، لا يجسرون على مغادرتها طالما أن السيد الكلب جالس فى مكتب السيد الوكيل ، وحين يتنبه الوكيل الى الوقت ويغادر نادى الجزيرة ، ويصطحب كلبه الى الخارج ، كان الوزير المصرى يرفع سماعة تليفونه ويسأل سكرتيره :

ـ هل الكلب نزل ؟

فاذا رد السكرتير بالايجاب اطمأن الوزير ، وغادر مكتبه وبعده باقى الموظفين المصريين من السكرتير العام الى أصغر كاتب !

الفلاحون والفواتير

حتى الآن ما زالت بعض أحياء القاهرة تضم عمارات من أطرزة متعددة اسمها « **عمارات الخديو** » وكلها أنشئت لحساب الخديو « **عباس حلمى الثانى** » ، الذى كان تاجرا ناجحا ومستثمرا عبقريا ، يعرف كيف يكسب القرش وكيف يحافظ على المليم ، فقد كان شرها فى قبض النقود بخيلا فى صرفها ، لدرجة أن زوجته الأوربية وصفته فقالت انه كان من النوع الذى لا يسرب الماء من بين أصابعه •

وبدأب شديد نمى الخديو الشاطر ثروته ، واستطاع بجهده أن يملك « تفتيش ادفينا » و « تفتيش الاسماعيلية » وكانت كلها أراض جرداء ، لكن مركز الخديو ومكانته وسلطة الدولة منحته فرصة دائمة لكى يجد فلاحين فقراء يقبلون العمل بأى أجر ، وغالبا بلا أجر ، لكى يحيلوا الأراضى الصحراوية والملحة الى أرض خصبة يأكلون منها ما يعينهم على مجرد الوجود، ويكسب منها جلالته مايمكنه من السياحة فى بلاد العالم والتمتع بكل خيراته وملذاته • وبلغ من بخل جلالته أنه كان يرفض اعطاء الملابس القديمة للفقراء من أتباعه ، بل يأمر بتركيب بطانات ورقع جديدة لبعضها كى يلبسها •

وكان يكثر من ترديد عبارة : اننى أعرف كيف أحافظ على المال ، ويبالغ فى الاهتمام بمشاريعه العمرانية والتجارية ، ويضع فى بداية كل عام ميزانية لمشروعاته المعمارية فى القاهرة ، وبمقتضى تخطيط طويل الأمد ، حرص على أن ينشىء فى كل عام عمارة ، حتى أصبح يملك أحياء بأكملها ، وكان يخرج فى بعض الليالى فى المساء متنكرا مع زوجته للاشراف على ما تم من البناء ، فيصعد أفندينا السقالات ، ويتنقل فوقها بخفة مدهشة ، وكان اذا مر على عمارة أدرك عيوبها على الفور • ساعتها كان يصدر أوامره للمهندسين والمقاولين بما ينبغى عليهم عمله •

ولأن مال الكنزى للنزهى ، فان ما سفحه **عباس باشا** من دم الشعب المصرى ، كان يتبدد على يد بعض المحيطين به ، ومنهم زوجته الأوربية التى أدركت مدى بخل زوجها وكانت تتعامل معه بفهم ذكى لسيكولوجية الرجل البخيل ، الذى يهتم عادة بالتفاصيل أكثر من اهتمامه بالكليات ، ويزعجه المليم أكثر مما يزعجه القرش ، فقد كان ينزعج بشدة اذا ما اشترت ــ وهما فى باريس ــ زهورا بخمسة فرنكات ، ويسعد اذا ما أخذت الزهور بلا مقابل ، وسرعان ما أدرك أصحاب بيوت الأزياء بباريس اللعبة ، فأذا حط الركب الخديوى السعيد رحاله فى بلد النور ، تقاطروا يعرضون ما لديهم من قبعات وفساتين وعطور ، وأهدوا الخديو وزوجته زهورا مجانية ، كان الخديو

يسعد لأنها بلا ثمن ، فلا يتنبه لما تطلبه الزوجة من ملابس ومهمات ، ولأن أصحاب محلات الأزياء كانوا خواجات من النوع الذى تمرس على نهب أموال الشعوب الفقيرة التى يبددها حكام شديدو السفاهة ، فقد أدركوا على الفور أن الخديوى من النوع الذى تزعجه المفردات أكثر مما يزعجه المجموع الكلى ، كان لا يهمه مثلا أن يدفع مائة ألف فرنك ثمن ملابس لزوجته ، ولكنه اذا قرأ فى الفاتورة أن أحد الفساتين يساوى ٨٧٥ فرنكا فانه يرى أن هذه الفرنكات زيادة عن اللزوم ، وبالاتفاق مع الزوجة الأوربية الأصل كانوا يضعون أثمان المفردات دائما بالبنط الصغير جدا بحيث لا يراها الخديوى .. فيدفع المجموع الكلى دون ألم ، تاركا الشقاء للفلاحين الفقراء ، يصلحون له الأرض لتبددها عصابات الخواجات .

المستشار بوند

عندما يدخل المحتلون من الباب تخرج كرامة الوطن من النافذة ، ذلك أن المستعمرين يعملون دائما بعقلية من لا يقبلون أن يمس أحد شخصيتهم .

فى بداية القرن كان « **يحيى ابراهيم باشا** » رئيسا لمحكمة الاستئناف ، وكان القاضى الانجليزى مستر بوند وكيلا لها ، وكالعادة أصبح المستر بوند هو الرجل الأول فى المحكمة .

وحدث أن خلا منصب أحد المستشارين ، وعلى عكس المتبع ، قامت السراى بترشيح خلف له من رجالها هو **توفيق رفعت** ، وثار « **المستر بوند** » لأن فى ذلك تعديا على اختصاصاته اذ كان هو الذى يرشح المستشارين . لكن مجلس الوزراء عين **توفيق رفعت** بضغط شديد من الخديو ، وأراد **بوند** أن يرد اللطمة فعين المستشار الجديد عضوا معه فى دائرة النقض والابرام ليكون تحت رئاسته المباشرة وليتاح له أن يثبت تفوق جنسه الانجليزى وسيطرته على كل عبيد الاحتلال من المصريين .

وكان **توفيق رفعت** يجهل كل هذه الضجة التى أثارها تعيينه ، وظن أنه قوى لصلته بالسراى فأخذ يعمل بشكل طبيعى ، الى أن كلفه **بوند** بكتابة حيثيات الحكم فى قضية هامة ، فكتبه مجتهدا .. وفوجىء فى اليوم التالى برئيس دائرة النقض يستدعيه ، ويناقشه مناقشة قانونية خشنة ، وأخذ صوت **المستر بوند** يعلو شيئا فشيئا ، وبدأت لهجته تحتد حتى امتعض **رفعت** وقال :

ـ لا لزوم لهذه الحدة يا جناب الوكيل فالمسألة مسألة نصوص وتطبيق ، فلنعرض الخلاف على زملائنا أعضاء الدائرة ليقرروا أينا المخطىء وأينا المصيب .

وعز على الانجليزى المتفوق أن يكون رأيه محل نقاش ، فضرب مكتبه بقبضة يده وصاح :

ـ ان ما تقوله كلام مغفلين !

وثار **توفيق رفعت** وخرج يعلن انه سيستقيل اذا لم يعتذر له « **المستر بوند** » ، وكتب تقريرا بالحادثة الى ناظر الحقانية ، وأعلن أنه لن يجلس فى دائرة **مستر بوند** ، الا اذا قدم اليه اعتذارا كاملا صريحا أمام جميع مستشارى المحكمة مجتمعين فى هيئة جمعية عمومية .

واجتمعت الجمعية العمومية لمستشارى محكمة الاستئناف . ووقف المستشار الانجليزى لا ليعتذر ولكن ليقول بصلافة انه يقدر زميله **توفيق رفعت** كل التقدير .

وفتح المصريون أعينهم ذهولا،من عنجهية المستعمرين ، وهوان الذين يقبلون التعامل معهم .

بلاوى الناس

صدر أول قانون للمطبوعات فى مصر عام ١٨٨٢ ، وفى أوج شهور الثورة العرابية ، والغريب أن هذا القانون كان يتضمن قيودا شديدة على حرية الرأى ، وفى حين كان المنتظر أن تتصدى له العناصر الديمقراطية التى قامت بالثورة وتمنع صدوره ، فقد كانت هى التى تحملت مسئولية اصداره وسط ظروف معقدة وبضغط عنيف من السراى ، وكانت أول صحيفة عطلت تطبيقا لهذا القانون هى (الطائف) جريدة الثورة التى كان يحررها **عبد الله النديم** .

بعد حوالى ربع قرن فكرت الحكومة فى اصدار قانون جديد للمطبوعات يمنع نشر الدعوة الى الثورة ومعاداة الاحتلال ، وثارت الصحف ، واحتج السياسيون ، ووسط هذه الضجة كتب المحامى الكبير **عزيز خانكى** مقالا

طريفا ، ذكر فيه المتصارعين بالمثل الشعبى الذى يقول « ان من رأى بلايا الناس تهون عليه بليته » ، فقال ان هناك لائحة للمطبوعات كان معمولا بها في تركيا على عهد ديكتاتورية السلطان عبد الحميد خان ، ونشر نصوص هذه اللائحة المضحكة ، وكانت من تسعة بنود ، تنص على « أن يحسن نشر كل ما يتعلق بصحة مولانا السلطان ، وتقدم حالة الزراعة والتجارة والصناعة فى الممالك الشاهانية ، والولايات العثمانية ، ولا يجوز تذييل الجرائد بقصص الا اذا وافقت الأخلاق ، وصادق عليها وزير المعارف العمومية ، ولاحتمال غلق الجريدة ، فجأة ، فانه لا يجوز نشر المقالات الطويلة التى تنتهى بكلمة « البقية تأتى » أو « البقية غدا » كما لا يجوز ترك بياض أو وضع بياض نقط بين الكلمات منعا للظنون أو التأويلات » ٠

ونصت اللائحة على انه « لا يجوز الكلام على كبار الموظفين ، فاذا بلغ الجريدة أن أحدهم سرق أو اختلس فعليها ان تجتهد بستره قدر الامكان » ، ومنعت اللائحة منعا مطلقا نشر عرائض الأهالي والطوائف ، كما انها منعت نشر حوادث الاعتداء الذى يقع على أشخاص الملوك فى البلاد الأجنبية ، مهما كانت الظروف التى تقترن بالحادثة ، ولا يجوز الكلام على المظاهرات والثورات التى تحدث فى الخارج ، لأنه ليس من حسن السياسة أن يعلم رعايانا المخلصون بوقوع مثل هذه الحوادث ٠

وفى ديوان السلطان العثمانى ، كان هناك موظف اسمه « المكتوبجى » ، مهمته أن يفحص ويراقب الصحف ٠ وتطبيقا لبنود اللائحة جرى المكتوبجى على حذف كلمات مثل : ثورة وحرية ودستور وظلم وحقوق الأمة ٠

وحدث عندما بدأت ثورة أكتوبر ١٩١٧ الاشتراكية فى روسيا ضد القيصرية ، أن عرضت احدى الصحف على المكتوبجى خبرا عن الثورة ، فوجده يحوى كل الكلمات التى تحرمها اللائحة مثل (الدستور والحرية والظلم والطغيان) فشطبها جميعا ، ولم يبق من الخبر سوى سطر واحد نشرته الصحيفة فى اليوم التالى وكان نصه : « حدثت أمس مشاجرة فى روسيا » !

وكان أطرف بند فى لائحة المطبوعات العثمانية ، بندها الأخير الذى يقول : انه لا يجوز نشر هذه اللائحة فى أعمدة الجرائد كى لا يندد بها أصحاب الأفكار المشوشة ٠

على هذا كله علق « عزيز خانكى » قائلا : أن من يعرف ألم المرض يقدر قيمة الصحة ، ولعله قصد أن يقول : أن من رأى بلاوى الناس هانت عليه بلوته ٠

ويركو الآستانة

في عام ١٩٥٥ ـ وبعد ثلاث سنوات من ثورة يوليو ـ دفعت مصر آخر قسطين من نصيبها في ويركو الآستانة .

وهذا « الويركو » هو الضريبة التي فرضها العثمانيون على مصر عندما سقطت تحت سنابك السلطان العثماني **سليم الأول** في عام ١٥١٧ م ، فأصبحت ملزمة كواحدة من ولايات الامبراطورية العثمانية أن تدفع سنويا جزية للباب العالي .. وكانت هذه الجزية مثار حروب وكروب بين أمراء المماليك والسلطنة العثمانية ، فبعد أن تدهورت سلطة العثمانيين ، وارتخت قبضتهم على مصر ، سارع أمراء المماليك بمنع الجزية ، ورد الباب العالي بتجريد حملات تأديب عسكرية على المماليك ، كانت تنتهي بدفعهم الويركو من جديد .

وكان مفروضا أن تسقط الجزية عن مصر بسقوط سيادة تركيا عليها ووضعها تحت الحماية البريطانية ، في ٥ نوفمبر ١٩١٤ ، فقد كانت تركيا تتقاضى تلك الجزية مقابل التزامها بحماية مصر والدفاع عنها عند اعتداء دولة أجنبية عليها ، ومقابل تمثيلها سياسيا في الخارج ، وهو ما انتهى كله باعلان الحماية . الا أن الحكومة المصرية لم تلتفت الى هذا الأمر وظلت تدفع أقساط الدين بسبب تعهد سابق بدفعها ، وقعه الخديو توفيق ، غفر الله له ما ارتكب من آثام في حق شعب مصر .

وما حدث هو أن تركيا في عام ١٨٩١ أرادت أن تستدين من بنك روتشيلد وأولاده في لندن وباريس مبلغا من المال تسدد به ديونا استحقت عليها وعجزت عن دفعها . فقبل آل روتشيلد اقراض تركيا المال ، ولكنهم اشترطوا أن تتعهد مصر بأن تدفع أقساط هذا الدين خصما من الجزية المفروضة عليها ، وأصدر السلطان العثماني « عبد الحميد » أمره الى **الخديو توفيق** بذلك ، وأصدر هذا تعهدا على نفسه بأنه يقبل دفع مبلغ ٦٢٢ر٣٨٠ جنيها سنويا الى آل روتشيلد لمدة ٦٠ سنة ، من « ويركو مصر الواجب علينا وعلى خلفائنا ـ في الحال والاستقبال ـ دفعه الى الحكومة العثمانية » ، وزاد فقال : « على أن يدفع هذا المبلغ ذهبا » ، وأهمل النص في تعهده على أن دفع الأقساط يكون معلقا على استحقاق الجزية ، واستمرأ السلطان العثماني اللعبة فاقترض من « آل روتشيلد » مبلغا آخر في عام ١٨٩٤ ، وأمر الخديو عباس حلمي الثاني بالتعهد بدفعه ، وهكذا ارتفع القسط الذي تدفعه مصر للخواجات نيابة عن تركيا الى ٣٢٩ ألف جنيه القسط الذي تدفعه مصر للخواجات نيابة عن تركيا .. وحتى عام ١٩١٥ كانت مصر قد دفعت ١٤ مليون جنيه قيمة التعهدين .

ورغم سقوط السيادة التركية ، فقد استمرت مصر فى الدفع ثمانى سنوات أخرى دفعت خلالها خمسة ملايين جنيه ، ثم تنبهت الحكومة لذلك فى عام ١٩٢٤ ــ وبعد ثورة ١٩١٩ ــ فأصدر مجلس النواب قرارا بالكف عن دفع أى قسط لتركيا ، وقال « سعد زغلول » رئيس الوزراء فى المجلس :

ــ ان مصر لن تدفع شيئا منذ الآن ٠

ولأن « روتشيلد » خواجة ، وفى مصر وقتها محاكم مختلطة يلبس قضاتها قبعات ، فانه بدلا من أن يعود الى تركيا مطالبا اياها بما استدانته منه ، سارع برفع دعوى أمام المحاكم المختلطة ، مطالبا بالزام مصر بأن تدفع لهم أقساط الدين من أولها الى آخرها ، وردت الحكومة بأن المحاكم المختلطة ليس من حقها أن تحكم فى أعمال الحكومة التى تجريها بموجب سلطتها العامة ، ورفضت المحكمة دفع الحكومة ، وحكمت بالزامها بأن تدفع الى « روتشيلد » جميع أقساط الدين التى تنتهى فى عام ١٩٥٥ ٠

وهكذا أجبر عدل الخواجات مصر على دفع ٢٣ مليونا من الجنيهات اقترضتها تركيا من « آل روتشيلد » الكرام ٠

وذلك هو العدل عندما يلبس قبعات !!

آداب العرش

كانت العلاقة بين « الامام محمد عبده » و « الخديو عباس حلمى » علاقة شديدة التعقيد ، تكشف بعض من فصولها عن عديد من الغرائب ٠

كان الأستاذ « الامام محمد عبده » قد عاد من المنفى بأفكاره الاصلاحية ، ورأى أن هناك بعض الادارات الحكومية التى لا يستطيع المحتلون التدخل فيها ، بسبب صبغتها الدينية ، هى الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ، ولذلك أشار على الخديو أن يبدأ باصلاح الأزهر ، وقدم له مذكرة بذلك ، وبدأ تعاون وثيق بين الاثنين فى هذا الصدد سرعان ما انتهى الى خلاف فى وجهة نظرهما الى الأمور ٠

ومن أهم أسباب الخلاف بينهما ، أن الخديو كان يتنظر على أوقاف أهلية وخيرية كثيرة ، بالاضافة الى تنظره على أوقاف أسرته ، وكانت حسابات كل هذه الأوقاف متداخلة ، وكان من ضروب الاصلاح التى اقترحها

الشيخ محمد عبده أن يفصل بين حسابات هـذه النظارات جميعـا ، وهو ما انتهى بتشـديد الرقابة على الميزانية وخضوعها لرقابة المجلس الأعلى للاوقاف • واهتدى الخديو الى طريقة يتغلب بها على هذا القيد فاختـرع نظاما للاستبدال ينص على أن تصلح وزارة الأوقاف وتعمر بعض أراضيها ثم تعرضها للبدل ، فيبادلها الخديو ـ بعدئذ ـ بمزارعه التى لا تساويها فى القيمة ولا فى الجودة بالطبع •

وحدث أن عرضت وزارة الأوقاف أرضا للبناء فى الجيزة للمبادلة ، وتقدم خواجة يونانى اسمه « **زوفوداكى** » يطلب مبادلتها بأرض له فى مشتهر • وكان واضحا أن الموافقة على الصفقة غبن للوزارة ، اذ وصل الفرق بين السعرين الى ثلاثين ألف جنيه ثبت بعدها أن هناك خمسين ألف جنيه فرقا آخر نتج عن انقاص تقييم أرض الجيزة ، وزيادة مدعـاة فى قيمـة أرض مشتهر •• والأنكى من هذا أن الخواجة « **زوفوداكى** » كان مجرد « قنطرة » يعمل لنقل الأرض بعد ذلك الى مولانا •

كان مولانا الخديو لصا ، لكن الأستاذ الامام كان له بالمرصاد ، فرفض الصفقة واغتاظ الخديو وأضافها الى كشف سيئات الامام •• لكن الرجل لم يصمت ولم يكف عن التصدى لشـره الخديو فى الاسـتيلاء على أوقـاف المسلمين •

عشرات من تلك الحوادث انتهت بقطع الصلة بين الرجلين •• لكن الخديو كان صغيرا فى خصومته ، فعندما مات الأستاذ الامام فى عام ١٩٠٥ ، وسار « **احمد شفيق باشا** » رئيس ديوان الخديو فى جنازته ، استفز هذا « **عباس حلمى** » فسمح أدب العرش له أن يعاتبه على ذلك قائلا :

ـ انها جنازة حارة والميت كلب •

ثم قال :

ـ يظهر انك أردت أن تجامل رجلا مات •• وهو كما تعهده عدو الله ، وعدو النبى ، وعدو الدين ، وعدو الأمير ، وعدو العلماء ، وعدو المسلمين ، وعدو المجاملة !!

ادانة صاحب الحمارة !

أراد الأستاذ « **الامام محمد عبده** » أن يسهل على المسلمين أمور دينهم ، فتعرض له البلطجية والأفاقون وأثاروا عليه الدنيا ٠

ذات يوم وصل للاستاذ الامام ــ وكان مفتيا للديار المصرية ــ سؤال من بعض مسلمى « الترانسفال » يسألون عما اذا كان يحل لهم أن يلبسوا القبعة ، وأن يأكلوا من طعام أهل الكتاب ، وأن يؤدوا الصلاة خلف أى امام أيا كان مذهبه ٠ وشرحوا له ظروفهم ٠ اذ ازدحمت بلادهم بالأوربيين الوافدين ، واضطرتهم مطالب الرزق الى العمل معهم ومخالطتهم ٠٠ وأفتى علماؤهم بعدم جواز لبس القبعة أو مآكلتهم ٠٠ فابتدأ معظمهم يخالفون هذه الفتاوى بحكم ضرورات الحياة ٠٠ وانتهى الأمر بأن شق على المبشرين بالاسلام دعوة أهل البلاد ــ وهم وثنيون ــ للدخول فى الاســلام وســهل الأمر على المبشرين بأديان أخرى !

وأفتى الأستاذ أهل « الترانسفال » بأن ذلك كله مباح لهم بحكم القرآن والسنة ٠ وبرغم أن « **الخديو عباس** » وأتباعه كانوا جميعا يلبسون القبعات اذا سافروا الى أوربا ، ويأكلون فى المطاعم الأوربية ، وفى بيوت الأجانب ، الذين كانوا يشاركونهم الطعــام فى الولائم الرسمية وغير الرسمية داخــل القطر المصرى وخارجه ٠ الا أنهم استغلوا الفتوى للتشهير بالامام الذى أراد أن يبسط للناس أمور دينهم ، وأن يلغى تناقضا وهميا بين الاسلام والحياة فى تلك البلاد البدائية البعيدة ٠ كان وراء هذه الحملة الخديو عباس الذى لم يغفر للاستاذ الامام أبدا أنه وقف ضد لصوصيته واتهمــه بسرقة أموال المسلمين ٠

وكعادة هذه الأنماط المنحطة من الناس ، فانها لم تهتم بالحوار الفقهى حول فتوى أصدرها امام لا ينكر أحد مكانته العلمية ، ولكنها نقلت المعركة الى مباذل الافتراء على أخلاق الرجل ٠ اذ كان قراء الصحف يجهلون أن الصور الفوتوغرافية يمكن تزويرها باتقان ، عن طريق ما يعرف (بالتروكاج) ، وهو دمج عدة صور فوتوغرافية فى صورة واحدة ، وهكذا صدرت احــدى المجلات وفى صدرها صورة للاستاذ الامام فى حلبة الرقص يخاصر فتــاة أوربية ، وكلبها يعبث بأطراف جبته ٠٠ ورغم انه لم يكن من العادى أن تصحب فتاة كلبها فى حفلة رقص ٠ فانهم لجأوا اليها مستغلين جهل الجمهور بفنون التصوير ٠

وأثار نشر الصورة ضجة كبرى لأنها اتهام صريح للامام فى دينه وفى مكانته ، ولذلك سارع الامام برفع قضية ضد صاحب المجلة التى نشرتها ،

وكانت من مجلات الفكاهة والتشهير · واسمها « حمارة منيتى » ، وأحيلت الصورة الى التحقيق ، وكشف خبراء التصوير تزييفها · وصدر الحكم بادانة صاحب « الحمارة » وفضح المزورون ، وكادت المحاكمة تصل الى قصر القبة نفسه الذى دبرت فيه المؤامرة · لولا أن جهات التحقيق آثرت التستر ·

المفتى والخديو

الامام محمد عبده – كسياسى – نموذج للثائر الذى ندم على ثوريته كثيرا ، وكفر عنها طويلا ، لأنها كانت فوق طاقته ، ولأنه تورط فيها فوق قدرته ، وخلافا لجوهره ·

كان منذ البداية معتدلا ، أيد حكومة **رياض** (١٨٨٠ م) ، ويدافع عنها برغم انها كانت حكومة الانجليز ، وكانت تنفذ سياستهم ضد ارادة الأمة ، وعندما تفجرت الثورة العرابية ، أخذ منها موقفا محافظا في البداية ، ثم نقدها ودعا الى الاعتدال ، وساند فكرة خروج الجيش من الحلبة السياسية ، وعندما تأزم الموقف ، وظهرت خيانة السراى واضحة ، لم يستطع أن يغالط ضميره أكثر مما فعل ، فانضم للثوار وساندهم وتحمل معهم كل المسئولية ·

وتجهض الثورة ، ويسقط الجميع فى يد الخديو والانجليز ، فيكون « **محمد عبده** » أول النادمين ، وفى سجنه يكتب قصيدة شهيرة يتبرأ فيها من كل شىء ، ويقضى ثلاث سنوات فى منفاه ببيروت ، ثم يعود فيعلن توبته عن السياسة ويستعيذ بالله من اسم السياسة ومن فعل السياسة ومن « ساس ويسوس وسائس ومسوس » ، ويقرر أن يهب حياته للاصلاح والتعليم ، وهو يعلم جيدا أن الاصلاح فى بلد محتل لا معنى له ، لأنه مجرد تزيين لواجهة البيت المخرب من الداخل ·

ويدفعه موقفه ذاك الى صداقة **اللورد كرومر** – عميد الاحتلال فى مصر – ويظاهره اللورد فى حملته على **الخديو عباس** ، الذى كان يسرق الأوقاف ، ويبيع النياشين ، بهدف تنحية الخديو الذى كان – برغم كل عيوبه – يؤيد الحركة الوطنية ، وتدور المعركة بين المفتى والخديو ، وتخرج صحيفة هزلية اسمها « حمارة منيتى » وفى صدرها صورة للامام **محمد عبده** ، مفتى

المسلمين ، وهو يراقص بعض السيدات الافرنجيات ، ويثور الشعور العام ، وتشتد الحملة على الامام فيتقدم **اللورد كرومر** لمساندته (!!) ويعلن أن المفتى يزور أحيانا دار الوكالة البريطانية ، وقد يحدث أحيانا أن تشهد مجلسنا ليدى كرومر وبعض سيدات السفارة وليس فى هذا شىء ٠

ويسرها المفتى فى نفسه للخديو حتى تأتى ذكرى الاحتفال بالعيد المئوى لجلوس « **محمد على** » على عرش مصر عام ١٩٠٥ ، فيشن الأستاذ الامام حملة ضارية على ملوك الأسرة العلوية ، ويعترض على الاحتفال بالذكرى فى رحاب الأزهر ، لأن المساجد هى بيوت الله ولا يجوز أن تسخر لاحياء ذكرى الحكام الظالمين ٠

وفى النهاية يروق الجو بين المفتى والخديو ، فيكتب محمد عبده تأريخا للثورة العرابية ، هو أسوأ ما كتب عنها على الاطلاق ٠٠ فقد أراد أن ينصف ذكرى توفيق والد عباس ، فلم يجد ما ينصفها به الا بالهجوم على العرابيين ، وتخطئة كل رأى قالوه ، وكل تصرف سلكوه ، وبذلك ترك الامام وثيقة تقدم نموذجا لذلك النمط الذى نجده كثيرا فى التاريخ : الثائر الذى ندم على ثوريته ٠٠ لأنها كانت فوق طاقته ٠

الراهب الشاعر

هذه واقعة تاريخية تحتاج الى تحقيق ٠٠ وربما يكشف تحقيقها عن كثير من الحقائق الخافية ٠ الواقعة رواها المرحوم « **حافظ نجيب** » فى الجزء الأول من اعترافاته التى مات ولم يكملها ، ولم يضع نقاطا على كثير من الحروف والوقائع الغامضة فيها ٠

و« **حافظ نجيب** » مغامر مصرى شهير مات عام ١٩٤٦ ، عرفه الجيل الأسبق بمغامراته التى تحتاج الى خيال خصب لتصديقها ٠

فى فترة من فترات حياته قرر « **حافظ نجيب** » أن يختفى من مطاردة البوليس له ٠ وقرر لهذا السبب أن يدخل الدير ليترهبن رغم انه كان مسلما ! الى هنا والواقعة عادية : مغامر مطارد ، قرر أن يفر من مطارديه فاختار مكانا لا يخطر فى ظن من يطاردونه احتمال وجوده فيه ٠٠ خاصة انه كان مسلما ٠

لكن ما يدعو الى الدهشة أن حافظ نجيب يقول فى اعترافاته : أنه عرض الأمر على بعض المشتغلين بالسياسة من منشئى الحركة الوطنية فحبذوا رأيه ، وقال له أحدهم :

— يجوز أن يكون الدير وسيلة لذهابك الى الحبشة فى منصب مطران الحبشة ، وذلك البلد لا يزال مستقلا ومنصب المطران هناك منصب عظيم جدا · واحترام الأحباش للجالس على كرسى المطرانية أعظم من اجلالهم للجالس على العرش ·

وقال الثانى وهو على فراش مرضه الأخير :

— وفى مقدور المطران المثقف ثقافة عالية أن ينشىء هناك جيشا يعلم ضباطه فى النمسا أو المانيا فيصير فى مقدوره اغتصاب السودان وانقاذ مصر من المحتلين ·

وقال الأول :

— هذا سر خطير فاحتفظ به لنفسك ، ولا تيسر لأى صديق معرفته ·

وكان واضحا أن الرجلين اللذين يتكلم عنهما حافظ نجيب فى مذكراته هما الزعيمين محمد فريد ومصطفى كامل ، ذلك أنه حدث بعد ذلك بشهور أن مات مصطفى كامل ، وكان حافظ نجيب وقتها قد دخل الدير ، وتسمى باسم « غبريال ابراهيم » فهزته الفاجعة فكتب قصيدة يرثى فيها الزعيم الشاب ، ورآها رئيس الدير فعرضها على بعض أصدقائه معجبا بها ، فاقترحوا عليه ارسالها الى احدى الصحف ، وأثار نشرها ضجة كبرى · اذ دارت مناقشات حول صحة تصرفه ، فالرهبنة تقتضى اعتزال العالم ، لذلك أدين تصرف الراهب غبريال ابراهيم ، بينما رأى آخرون أن ذلك عمل طيب يقتضى ارسال الراهب الى أثينا ليدرس اللاهوت ·

وغضب البطريرك كيرلس الخامس بشدة — وكان من رجال الكنيسة المتشددين — واستدعى الراهب غبريال ابراهيم ، وبدلا من أن يتجه لمقابلته على الفور ذهب الى منزل الزعيم محمد فريد ، فاستاء لقصده اليه ، وأنبه فى غضب بسبب نشره قصائده فى الصحف وقال له :

— لقد ذهبت الى الدير لتختفى ولتعتزل العالم وقتا طويلا لينساك الناس ، ولتصل من الدير الى الهدف الذى تهدف اليه ·· وطرده شر طردة ·

والوقائع التى يرويها حافظ نجيب لو صحت لكشفت عن تفكير يستحق الدراسة والتأمل والبحث فى تاريخ تلك المرحلة · فما أكثر علامات الاستفهام التى تطرحها قصته ··

اذ ما هى العلاقة التى يمكن أن تنشأ بين مغامر مثل حافظ نجيب ، اتهم فى عشرات من قضايا النصب والتبديد وبين زعيمين كمحمد فريد ومصطفى كامل ؟

وما هو تحديدا الدور الذى أرادا له أن يقوم به خلال تنكره فى زى راهب ؟ .. ولماذا كانا يفكران بمناوأة انجلترا فى السودان عن طريق الحبشة .. ؟

بعض علامات الاستفهام الغامضة .. التى يتركها التاريخ عادة معلقة !

السياسة كل شىء

كان موقف « **مصطفى كامل** » من قضية زواج « **الشيخ على يوسف** » واحدا من مواقفه التى حيرت المؤرخين ، اذ وقف الزعيم الشاب فى صف خصوم الشيخ وكان أغلبهم من غلاة الرجعيين والمتخلفين .

وقضية زواج **الشيخ على يوسف** واحدة من أخطر القضايا الاجتماعية التى عاشتها مصر فى أوائل القرن ، اذ تقدم لخطبة ابنة الشيخ السادات ، وكان والدها من البيوت الكريمة المعروفة ببيوت الأشراف والمنتسبة للنبى (صلى الله عليه وسلم) ، ورغم انه وافق الا انه تردد فى عقد الزواج . وعندما مل الشيخ من التسويف سارع بالاتفاق مع الفتاة نفسها وعقد قرانه عليها دون علم والدها .

واثار ما فعله **على يوسف** ـ وكان صحافيا مشهورا وصاحبا لجريدة المؤيد أكبر صحف زمانها ـ غضب الوالد الذى سارع برفع قضية فى المحكمة الشرعية يطلب التفريق بين الزوجين على أساس عدم الكفاءة ، فهو شريف من نسل أشراف . فى حين أن **الشيخ على يوسف** مجرد صحفى أو « جرنالجى ، يمتهن مهنة رديئة تطعن فى أعراض الناس وتنشر الافك » .

وانقسمت مصر كلها معسكرين :

.. معسكر يؤيد **الشيخ على يوسف** ويقول ان الانسان بعمله وليس بحسبه ونسبه ويؤيد حق البنت الرشيدة فى تزويج نفسها بنفسها .

.. ومعسكر يؤيد « والد البنت » ، ويقف مدافعا عن الأحساب والأنساب ، ويسخر من الشيخ الذى لم يحفظ وقاره وتصرف كالمراهقين حتى أنه حرض ابنة السادات على الخروج عن طاعة والدها .

وكان غريبا أن يقف زعيم وطنى متحرر ومعاد للاستعمار مثل « **مصطفى** كامل » فى صف المعسكر الأخير ، وأن يدافع عن الأحساب والأنساب ، ورغم أنه هو نفسه كان ينتمى لأسرة صغيرة لم يعرف لها أحد تاريخا فى الحسب والنسب .

وقد وصل تعصب « **مصطفى كامل** » ضد الشيخ « **على يوسف** » الى الدرجة التى وبخ فيها الخديو **عباس حلمى الثانى** ــ بسبب مساندته لصاحب « المؤيد » فى موقفه وضغطه على القضاة لكى يحكموا لصالح الشيخ على يوسف ــ توبيخا شديدا غضب منه الخديو . وعندما أيدت المحكمة الاستئنافية حكم أول درجة القاضى بالتفريق بين الزوجين ، كان « **مصطفى كامل** » فى برلين ، فسارع يرسل برقية الى صديقته مدام « **جولييت آدم** » يبشرها بنبأ الحكم ضد على يوسف ، وهكذا وقف « مصطفى كامل » فى القضية الاجتماعية موقفا مناقضا تمام التناقض لموقفه المستنير فى القضية السياسية .

لكن تفسير ذلك كله لم يكن عسيرا .

كان « مصطفى كامل » من ناحية لا يريد أن يغضب الشعب ، الذى كان يجهد من أجل أن يجمع صفوفه فى حركة معادية للاحتلال الانجليزى ، وكان الشعب بحكم تقاليد ــ لم تكن قد اهتزت بعد ــ ضد الشيخ ، فرأى مصطفى كامل أن واجبه يفرض عليه ألا يصدم الشعب فيما يعتقده .. ومن ناحية أخرى فانه كان ينقم على صاحب المؤيد لأنه انتقل من تأييد الحركة الوطنية الى تأييد الاحتلال ، لهذا وقف ضده ، وأثبت « **مصطفى كامل** » أنه يفهم أن « السياسة هى كل شىء » وان العداء للاحتلال هو المحك الذى يقيس على أساسه كل مواقفه .

مشـاكل الاوتوبيس

لم تكن مصر تعرف ـ الى عام ١٩٠٦ ـ الأوتوبيس كوسيلة للمواصلات ، فحتى ذلك التاريخ كانت الوسائل المستخدمة للانتقال الداخلى ، هى الحمار والترام ، وعربيات سوارس ، وهى عبارة عن ترام يجره حصان ، فضلا عن عربيات الكارو وبعض السيارات الخاصة ٠

وفى عام ١٩٠٦ فكرت احدى الشركات فى تسيير قليل من سيارات الأوتوبيس فى المناطق التى لا يصلها الترام ، فسيرت اثنتين بين ميدان عابدين وباب الحديد ، وبين ميدانى السيدة زينب والقلعة ٠٠ بيد أن السيارات المستخدمة كانت من نمط قديم كثير الاهتزاز ، يصدر عنه صوت مزعج نتيجة سيرها بالجنازير ، وهو ما أدى الى فشل المشروع ٠

وفكر « **منصور شكور باشا** » فى تسيير سيارات « أومنبوس » لتنقل جمهور الركاب من مكان لآخر ، وأحضر لهذا الغرض سيارات من النوع الذى كان يستخدم فى فرنسا ، لكن نشوب الحرب العالمية الأولى أوقف المشروع ٠

وعندما وضعت الحرب أوزارها فى عام ١٩١٨ وبدأت السلطة العسكرية فى بيع مخلفات الحرب اشترى « **حسنين افندى الصبان** » عددا من السيارات القديمة ، وعندما بدأت اضرابات عمال الترام ، وانقطعت المواصلات ، دفع بما اشتراه من سيارات الى العمل لتحل محل الترام ، وبانتهاء الاضرابات عادت السيارات الى مخازنها ٠

بيد أن الاضرابات التى أثارها العمال عادت فتجددت وتكررت ، فعاد الصبان الى العمل ٠

وفكر « **سيد ياسين** » ـ صاحب مصانع الزجاج الشهيرة ـ فى نفس الفكرة ٠ فبنى سيارات اتوبيس على شاسيه اللورى ٠٠ وتعددت الشركات ٠ وانتشرت سيارات الأوتوبيس فى القاهرة ، ووضعت الدولة نظما لعملها ، وتعريفة للركوب ، وتعقدت العلاقات بين الشركات وعمالها وركاب سياراتها وبينها وبين الدولة ٠

وفى سنة ١٩٦٠ انتهى جزء من هذه المشاكل ، عندما أممت الدولة هذه الشركات وأنشأت مؤسسة النقل العام بالقاهرة ٠٠ وبدأت مشاكل أخرى ٠

كـلام جـرايد

كانت حادثة دنشواى تجربة كشفت كل شىء وعرت الجميع . وفى مصر ـ كما فى كل بلاد العالم ـ كان هناك الذين يعيشون وقلوبهم مع الوطن : مع مشاكله وآلامه ومآسيه ، وكان هناك الذين يمالئون القوى ، ويدافعون عن المستعمر ، ويسترزقون من وراء بيع ضمائرهم وأقلامهم ، وكان هناك الذين لا ينتمون الا لأنفسهم ولا يبحثون الا عن السلامة ، لا يهمهم الوطن فى شىء ، ولا يشغلهم ما يجرى فيه .

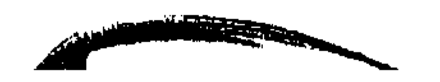
واذا جاز أن يتسامح الشعب فى شىء ، فانه لا يسامح ولا يعرف الغفران اذا تعلق الأمر بمصالح الوطن ونضاله ضد الذين ينتهكون حريته . لذلك فان الشعب لم يغفر أبدا لصحيفة وقفت موقفا محايدا أثناء مأساة دنشواى . فما بالك بالذين أيدوا المستعمرين فيما ارتكبوه من آثام فى حق الفلاحين العزل .

منذ اللحظة الأولى للحادث أعلنت الصحف الوطنية موقفها بوضوح ـ نددت « اللواء » و « الظاهر » و « المنبر » و « خيال الظل » بالحادث ، وهاجمت كرومر بشدة ، وهاجمت أيضا تصريحات الجنود البريطانيين ، وموقف المدعى العام المصرى « ابراهيم الهلباوى » الذى شنق الضحايا بلسانه الطويل ، وكشفت النقاب عن حقيقة الشهود الذين جلبتهم الحكومة ، وسخرت من عدالة بريطانيا العظمى ، عدالة تحضير المشانق قبل صدور الحكم ، واصدار الأحكام قبل اجراء المحاكمة .

وعلى الجانب الآخر وقفت « المقطم » و « الوطن » و « مصر » تهاجم الفلاحين الأجلاف الذين قتلوا ضابطا بريطانيا رقيق القلب كان فحسب يتسلى بصيد الحمام ، فاخطأ وقتل امرأة لا قيمة لها وحرق جرنا تافه الشأن .

وبين هؤلاء وهؤلاء وقفت « الهلال » موقف المحايد المتفرج ، وضنت صفحاتها التى لم تكن تخلو من شىء ابتداء من طحن البن الى طبخ الأرز ، الى وفاة أى ملك فى العالم ، على حادثة دنشواى ولو حتى بسطور قليلة ، فى حين توسعت فى نشر كل شىء جرى فى حفلة تكريم اقيمت لكرومر بدار الاوبرا الخديوية يوم ٤ مايو سنة ١٩٠٧ وبعد الحادث بعام .

واخذت « الأهرام » موقفا مضحكا ، فهى تقف يوما بجانب الصحف الوطنية المخلصة ، ويوما تصبح محايدة ، وأياما تظاهر المحتلين وتتعصب للمغتصبين .



في اليوم الأول علقت على الحادث آسفة على قتل ضابط من ضباط الاحتلال ، فقالت ان الفلاحين في دنشواى حملوا على الضابط حملة الهمج ، ثم انتقلت بعد تنفيذ الأحكام ـ بكل بشاعتها ـ لتطالب باصلاح نظام العمد باعتبار أن الحادث وقع ، لأسباب ليس من بينها همجية المحتلين وبربريتهم ، واصطيادهم للحمام والبشر ، وحرقهم للاجران ، ولكن لأن « العلة فى العمد وحدهم ، لشدة جهلهم » • وفتح الله على « الأهرام » أخيرا فأعلنت رأيها الصريح •• وقالت : « ان اخراج الانجليز من مصر أمر يعتقد كل واحد منا الآن انه ليس فى حيز المستحيل ، فالباقى لنا اذا ، هو أن ننال حقوقنا فنشاطر الانجليز حكم بلادنا وتكون لنا كلمة بجانب كلمتهم » •

كان جرح دنشواى عميقا ينز حزنا ويستفز غضب كل انسان فى مصر ، لكن المحايدين والممالئين تركوا كل ذلك وكشفوا فى اللحظة المناسبة عن معدنهم •

ولذلك لم يغفر لهم الشعب أبدا ما فعلوه ، فهو طيب وغفور ورحيم حقا •• لكنه لا ينسى من يبيعونه وقت الشدة لكى يأكلوا على موائد الجميع •• وحصن الشعب عقله من هذه الصحف الصفراء بجملته المأثورة « كلام جرايد » وهى جملة لا تنطبق على كل الصحف •• ولا كل الصحفيين •

حصان الخواجة

بعد حادث دنشواى ، نشرت سلطات الاحتلال جوا من الارهاب والابتزاز ، فانتهزت الظروف التى نجم عنها الحادث ، والآثار التى ترتبت عليه ، لتهدد المصريين فى كل لحظة بتكراره وتكسب من ذلك أموالا •

بعد الحادث بشهرين ، كان المستر « اشتون » وهو موظف انجليزى يعمل مفتشا للرى ، يمر على ترعة الباجورية على حصانه ، ورغب فى زيارة عمدة الباجورية « **احمد الخولى** » ، فتوجه الى منزله ، ودخل عليه وترك حصانه على باب منزل العمدة ، وأثناء وجود مستر « اشتون » بمنزل العمدة ، ووجود حصانه على الباب ، مر به حصان لمواطن يدعى « محمد زيد » •• يقوده فتى صغير ، وجفل الحصان المصرى ، وانطلق من يد قائده ، وذهب

الى حصان مستر « اشتون » ، ووقف بجانبه وصهل عليه ، فجاوبه الأخير بصهيل قوى تنبه له المستر « اشتون » ٠٠ فخرج من المنزل هائجا وصائحا :

ـ هذه مشاكل جديدة مثل مشاكل دنشواى ٠٠ أين صاحب الحصان ؟ اضبط يا عمدة ٠٠ هاتوا الطبيب ليكشف على الحصان ربما كان به داء معد ٠٠

وخرج العمدة يهدىء من روع المستر « اشتون » ويلطف من حدته وغضبه بألفاظ المجاملة المعهودة ، وبعد وقت طويل ، انتهت المناقشة بأن أعلن المستر « اشتون » انه سيعرض حصانه على الطبيب ، فاذا أقر بأنه أضير ، فعلى صاحب الحصان المصرى أن يقدم له تعويضا يناسب الحال ٠ وفى اليوم التالى عـاد المفتش الانجليزى ليطالب بخمسـة جنيهات تعويضا عما حدث ، بدعوى أن حصانه كان يسير به يوميا نحو ٦٠ كيلو مترا ، فقلت قدرته الى خمسة عشر كيلو مترا فقط ، وبعد مساومات مضنية ارتفع فيها صوت المفتش مهددا غاضبا ، انتهت المناقشة بأن قبـل « اشتون » أربعـة جنيهات فقط ٠

ونشرت الصحف الوطنية الحادث غاضبة ٠ وروت « المؤيد » الواقعة بلهجة ساخرة ، وأكدت للمحتلين انه من البديهى أن حصان محمد زيد ليس متعصبا دينيا وأنه ليس فى صهيل الخيل حادث مكدر للأمن العام ٠

والغريب فى الأمـر أن الوكالة البريطانية قد سارعت ـ بضغط من الصحافة الوطنية ـ للتحقيق فى الحادث ، فقدم « اشتون » شهادة طبية من بيطرى انجليزى بأن الحصـان أصيب ، وثبت أن الشـهادة مزورة ، وحقق « مورلى بك » مفتش الداخلية أوجه الحادث ، ورأى أن يتخذ اجراء يحفظ الكرامة الانجليزية فأمر برد المبلغ لصاحبه ، ونقل مفتش الرى لنفس وظيفته بالغربية ٠

كلـوب الفقـراء

كان قد مضى على احتـلال مصر ما يقرب من عشرين عاما ، عندما نشرت صحيفة « المؤيد » خبر انشاء « نادى الفقراء » ٠٠

وأيامها كانت الدعوة لانشاء النوادى عالية الصوت ، وكانت الصحف تمتلىء بين الحين والآخر بأنباء انشاء ناد أو كلوب لبعض أصحاب المهن ٠٠

وانتهز بعض أصحاب المزاج « التراجيكوميدى » الفرصة ، فأرسلوا للمؤيد يخطرونه بأنهم قرروا انشاء ناد للفقراء · وذكرت « المؤيد » فى عدد ٣٠ أكتوبر ١٩٠٥ أن بعض فقراء الموظفين والمدرسين وكتبة البنوك ، قد أسسوا النادى · وجاء فى لائحته أنه يقبل فى عضويته كل من كان فقيرا خالى الوفاض ، نظيف الجيوب ، تعيسا منحوسا لا باب رزق له غير ما يعمل به ، على ألا يزيد مرتبه عن عشرة جنيهات شهريا يدفع منه اشتراكا لا يزيد عن خمسة قروش ·· هذا اذا أسعفه الحظ وقام بدفعها ·

وجاء فى اللائحة أنه لا يقبل فى عضوية النادى كل من اشتهر بالكذب والنصب ، لا حفاظا على الفضيلة ، ولكن لأن الكذب يجر على أصحابه دائما الفائدة ، أما النصب فهو يؤدى دائما للغنى ، وعلى هذا فان شرط العضوية ـ وهو الفقر ـ لا ينطبق على الكذابين والنصابين ·

وكلوب « الفقراء » مؤسسة ديمقراطية ، والكلمة فيه ـ كما جاء فى اللائحة ـ مباحة لصالح التعاسة والشقاء ، وينتخب الأعضاء مجلسا للادارة من أكثر الأعضاء شقاء وفقرا ، فاذا قدم العضو أربعة انذارات جاءته من الدائنين ، وأربعة حجوزات جاءته من الحكومة ، اعتبر من الأعضاء المؤسسين ، فاذا جرده القضاء العادل مما يملك من منقولات ، عين فى وظيفة مفتش للنادى ، فاذا طارد الدائنون عضوا الى باب الكلوب ، يرقى الى منصب الرئيس فورا ·· وتسقط العضوية ، اذا أثرى العضو من ارث أو يانصيب فجائى ، أو بأى وسيلة غير منتظرة ، وعليه عندئذ أن ينسحب من النادى بهدوء ·

وقد جاء فى هذا الاعلان الغريب أن على كل من يرغب فى الانضمام الى النادى أن يخابر سكرتيره العام « محمد » بالاسكندرية ·· وقد وعد أن يخابر طالبى العضوية لدفع الاشتراك الشهرى ·

أيامها كانت مصر تحكم حكما غبيا ، وكانت الصحف حافلة بأنباء الحجوزات ، وموظفى الرى الانجليز يرتشون ، وكثيرون يسرقون ، والجهاز الحكومى مليء بالعناصر الطفيلية التى لا تعمل ولكن تتقاضى المرتبات العالية ، بينما يعيش صغار الموظفين فى فاقة ، وأصحاب رؤوس الأموال الانجليزية يستغلون المصريين فيعملون أشق الأعمال وينالون أقل الأجور ·

فى وسط كل هذا نشرت المؤيد اقتراح « كلوب الفقراء » فبعث على الشفاه بسمة حزينة ·

اللــورد والوزير

بعد بداية الحرب العالمية الأولى بقليل ، توفى « **مصطفى فهمى باشا** » ، الوحيد الذى تولى رئاسة الوزارة المصرية ثلاثة عشر عاما كاملة ، لأنه كان أطوع رؤساء الوزارات للاحتلال البريطانى ٠

جاء الى مصر صغيرا من تركيا ، فتكفله أحد أخواله ، وأدخله المدرسة الحربية ، وبعد تخرجه عين ياورا « **للخديو اسماعيل** » ، وظل يترقى الى أن أصبح ناظرا للخاصة الخديوية ، ودخل الوزارة لأول مرة عام ١٨٨٠ ، وظل وزيرا فى وزارة الثورة العرابية ـ وزارة البارودى ـ واستقال منها وانضم الى الخديو عندما طلب هذا من عرابى أن يكف عن المقاومة وأن يستسلم للغزاة ٠

وبعد الاحتلال تولى رئاسة الوزارة للمرة الأولى فى عام ١٨٩٠ ، واستقال منها بعد ثلاث سنوات ، ثم عاد فى عام ١٨٩٥ ، ليظل رئيسا لها ثلاثة عشر عاما طويلة ، انتهت فى عام ١٩٠٧ ، وذكرت جريدة « المؤيد » فى تبرير استمراره رئيسا للوزراء كل هذا الزمن غير المسبوق ، أن اللورد كرومر حلف لمصطفى فهمى أن يبقى فى رئاسة الوزراء ما دام حيا ٠٠ وما بقى اللورد فى مصر ٠

وعندما غادر اللورد مصر شبه مطرود ، بعد فاجعة دنشواى ، تحدث فى حفل أقيم لتوديعه فذكر مصطفى فهمى بالخير ومدحه وقال :

ـ إنه من أعظم الذين التقيت بهم فى حياتى لطفا وأكرمهم أخلاقا ، وأحسنهم مناقب ٠

وقد علقت « المؤيد » على ذلك قائلة : « ان مصطفى باشا أنكر مصر وعرف اللورد ، فاستحق أن يكون سامى المقام فى عين اللورد لا فى عين الأمة المصرية » ٠

وبمجرد ذهاب **كرومر** ، طرد **مصطفى فهمى** من رئاسة الوزارة ، وأنعم عليه ملك الانجليز بنيشان الحمام من الدرجة الأولى اعترافا بخدماته ، ولأنه طوال ١٣ عاما رأس فيها الوزارة « أفاد بلاده وبريطانيا العظمى ، فائدة دائمة لا تزول » ٠

والغريب فى كل هذا أن « **مصطفى فهمى** » هو والد « **صفية زغلول** » زوجة « **سعد زغلول** » التى اتخذت منذ الثورة ، موقفا وطنيا ، وكانت من طلائع الحركة النسائية المعادية للاستعمار ٠

١٩٠٤

المصرية الباهرة

كانت « **نبوية موسى** » أول فتاة مصرية تحصل على شهادة البكالوريا ــ الثانوية العامة ــ فى مصر ، وكانت أول ناظـرة وأول مفتشـة مصرية عرفتها وزارة المعارف ، اذ كانت هذه الوظائف مقصورة على الانجليزيات ·

وكان والدها ضابطا وكان اخوها طالبا بالمدرسة الحربية ، فشغفت بالكتب التى كان يدرسها ، وطلبت منه أن يعلمها القراءة والكتابة ، وظلت مثابرة على الدراسة حتى تعلمت الكثير بمجهودها الشخصى ، وفى عام ١٩٠١ ــ وهى فى الخامسة عشرة ــ فكرت فى دخول المدرسة السنية فتقدمت سرا لامتحان النقل الى السنة الثالثة الابتدائية ، وقبلت بالمدرسة ، وبعـد عامين تقدمت لامتحـان الابتدائية بين ١١ فتـاة و ٢٧٨٣ طالبا ، فنجحت وتفوقت وكان من الذين حصلوا معهـا على الابتدائيـة **محمود النقراشى وعباس العقاد** ·

وفى القسم العالى بمدرسة السنية ، اكملت نبوية دراستها ، ولم يكن يدخل هذا القسم من الرجال ، سوى الشيخ « **حمزة فتح الله** » والشيخ شريف اللذين كانا يدرسان للطالبات اللغة العربية ، ولم يكن مسموحا لهما بالقاء الدرس دون حضور مدرسة مع الطالبات ، لضمان الحفاظ على التقاليد ، وتخرجت نبوية لتعين مدرسة بمرتب ستة جنيهات ، واكتشفت أن زملاءها من المدرسين المتخرجين من مدرسة المعلمين يحصلون على مرتب قدره عشرة جنيهات لأن مؤهلهم يوازى البكالوريا ، فرفعت لوزارة المعارف طلبا بذلك ، فأحدث ضجة كبرى لخروجها عن التقاليد المتبعة ، وحاول « **المستر دنلوب** » ــ المستشار الانجليزى لوزارة المعارف ــ أن يثنيها عن عزمها ، ولكن جهوده معها لم تفلح ، وأخيرا لم تجد النظارة بدا من اجابة طلب الفتاة ، واضطرت الى قبولها ضمن المتقدمين لامتحان البكالوريا سنة ١٩٠٧ ·

وقتها كان حصول بنت على البكالوريا حادثا جللا ، وقد خصصت وزارة المعارف لها قاعة خاصة لتمتحن فيها وحدها بالمدرسة السنية ، بينما كانت اللجنة العامة للبنين منعقدة فى المدرسة الخديوية بدرب الجماميز · ونشرت الصحف الخبر ، فتجمع الناس أمام المدرسة السنية ، ينتظرون خروج هذه الفتاة الغريبة التى تقدمت للحصول على البكالوريا ، وعندما ظهرت النتيجة نجحت الفتاة المغامرة بتفوق ·

وتنقلت **نبوية موسى** فى الوظائف التعليمية بالمدارس الحكومية ، ثم قررت فجأة أن تخرج الى ميدان تشجع من خلاله الفتيـات على التعليـم ، فاستقالت من وظيفتها وأنشأت مدرسة ابتدائية للبنات بالاسكندرية ثم ثانية

بالقاهرة ، وثالثة تجمع بين الابتدائى والثانوى فى الاسكندرية أيضا ، وأمضت ما تبقى من عمرها تشجع على تعليم البنات ، وتبشر بمقولة واحدة ، هى أن المرأة تكون فاضلة بقدر ما تتعلم ، وتكون طاهرة بقدر ما تعمل ، وتضيف الى الحياة جهدها الخلاق ٠

وفى عام ١٩٥١ ماتت هذه المصرية الباهرة التى حصلت على البكالوريا ، ومضت ٢١ عاما قبل أن تحصل مصرية أخرى على ما حصلت عليه ، بعد أن قضت حياتها فى محاولة لكى تحصل كل المصريات على البكالوريا وما هو أعلى منها ٠

اضراب المستأجرين

فى عام ١٩٠٧ ارتفعت أجور المساكن حتى بلغت ٢٩ ضعفا عما كانت عليه فى عام ١٨٠٠ عند قدوم الحملة الفرنسية الى مصر ، واهتمت الصحف ببحث أصول الأزمة وجذورها ونشر شكاوى الناس من الغلاء وقلة المساكن ٠

كان عدد سكان القاهرة على زمن الحملة الفرنسية ٢٠٠ ألف نسمة ، ارتفعوا فى عام ١٩٠٧ الى ٥٨٠ ألفا ، وكان عدد الأجانب فيها لا يتجاوز مئات فأصبحوا أكثر من ٤٠ ألفا ، وكانت القاعدة فى مشكلة السكان أنه كلما زاد عدد الأجانب الأثرياء ، تغير النمط الاجتماعى للمدينة ، فأنشئت أحياء جديدة فاخرة يسكنها السادة ، وتركت الأحياء القديمة لأهل البلد ، يتمتعون بقدمها وتهالكها ٠ وكان الخديو اسماعيل أوفر حكام مصر اهتماما بتعمير القاهرة ، فهو الذى شق شارعى « كلوت بك » و « محمد على » وباع ثمانية أفدنة من حديقة الأزبكية لتكون أرضا للبناء ٠

وباعت الحكومة الأرض المحيطة بسراى الاسماعيلية ـ منطقة ميدان التحرير وما حولها الآن ـ واشترطت على الشارى أن يبنى بيتا لا تقل قيمته عن ألفى جنيه ، فضلا عن بيعها الأرض بسعر مرتفع هو نصف جنيه للمتر ، وفى عام ١٨٨٠ قسمت منطقة **التوفيقية** وبيعت بنفس الشروط ، وبسبب ارتفاع أثمان الأرض فى هذه المناطق ، فقد اقتصر شراؤها على الأجانب الذين كانوا يملأون مصر كالوباء ، بينما وجه المصريون أنظارهم نحو أرض أرخص فى الفجالة والظاهر والعباسية ٠

وحتى عام ١٨٦٠ لم تكن القاهرة تعرف البيت المتعدد الطبقات ، اذ كان المعتاد أن يبنى الانسان المنزل طبقة واحدة لسكناه مع عائلته أو لتأجيره ، وبتضاعف عدد السكان بدأت طبقات المسكن تتعدد ، وفى نفس العام بدأت القاهرة بالخروج من حدودها القديمة ، فامتدت غربا نحو بولاق حتى تجاوزت النيل من جهة الجيزة والجزيرة ، وشمالا نحو شبرا والعباسية وجنوبا نحو السيدة زينب ومصر القديمة ، وأخذ الأغنياء والمتوسطون من ذلك الحين يهجرون أواسط المدينة ويقيمون فى خارجها ، فأصبح كثير من المنازل داخل المدينة خاليا مهجورا ، وكثير منها هجرها أصحابها ليقيموا فى الضواحى ، اقتداء بالافرنج أو التماسا للهواء النقى ، وهكذا أصبحت قصور ومساكن درب سعادة ودرب الجماميز والدرب الأحمر وغيرها مساكن للفقراء ، وأصبحت حدائقها عششا ٠

ولم يكن غلاء المساكن راجعا فى الحقيقة الى زيادة عدد السكان فقط ، بدليل أن أجور المساكن زادت ـ فى تلك الفترة ـ ٢٨ ضعفا ، بينما لم يزد عدد السكان عن خمسة أضعاف ، وهو ما يفسر ارتفاع الايجارات بالمضاربة على أرض البناء ٠

فى مواجهة ذلك حدث أطرف اضراب فى تاريخ مصر ، اذ تجمع المستأجرون فى القاهرة والاسكندرية ، وشكلوا جمعية وأضربوا عن دفع ايجارات مساكنهم حتى تنخفض ٠

العاشـــق

« مصطفى كامل » واحد من أنقى وأطهر عشاق مصر ٠

كان متصوفا تتوحد ذاته فى ذات المحبوب كما ينحو المتصوفة ، ولأن المحبوب « مصر » كان جريحا ، فان حبه كان حزينا ٠ ومجموعة الرسائل التى كتبها للكاتبة الفرنسية « **جولييت آدم** » هى قصائد من « الشعر الصوفى » قبل أن تكون شيئا آخر ٠

وفى هذه الرسائل ، كان يصف مصر بأنها « **الوطن السىء الحظ والتعس الى آخر درجات التعاسة** » ـ ويعتبر نفسه مثلها ـ « انى تعس الحظ

جدا ، ولا شيء في الوجود يسعد حالي » ، ولم لا يكون تعسا ، وهو يشاهد – كما قال – « **مشهدا من افظع المشاهد هو سقوط وطني** » .

ويوما بعد يوم تتركز تعاسته ، فالزمن يمر ، ومصر ما زالت محتلة ، « انني حزين يا سيدتي ، فاليوم هو الذكرى العشرين لهزيمة مصر ، واني لأسأل نفسي حائرا : ما معنى الحياة في بلد محتل ؟ وماذا أفعل لكي يتحرر ؟ » .

وفي احدى الليالي كان بمكتبه بمبنى « اللواء » وكان في مواجهته قصر عابدين ، حيث كان الخديو يحتفل يومها بعيد جلوسه على العرش ، وأصداء الموسيقى تتسلل الى غرفته ، وسحب ورقة وكتب لجولييت آدم :

– انهم يرقصون في قصر عابدين ، وأنا الآن بعيدا عنهم أكتب لك ، وأسأل نفسي : هل من حق أمة مظلومة ومحتلة وذليلة أن تقيم أفراحا ؟

وعندما مات في شرخ الشباب ، وصفه أمير الشعراء بأنه « صب مصر وشهيد غرامها » وخاطبه قائلا : « هذا ثرى مصر فنم بأمان » أما هو فكان قد كتب قبل هذا التاريخ بشهور :

– اني لا أرتاب في أن انجلترا ستجلو يوما عن مصر ، ولكن متى ؟ أأعيش ولو دقيقة واحدة بعد اعلان استقلال وطني ؟!

وذهب قبل أن تتحقق أمنيته ..

بكتك بالدمع الهتون غوان

كانت جنازة « **مصطفى كامل** » ، هي أولى الجنازات الكبرى في تاريخ مصر ، وفيما تلا ذلك من أعوام ، فان ما حدث يومها أثار دهشة كثيرين ، وبدا الشعب المصري – أمام من لا يعرفونه – لغزا صعبا على الفهم ، وهو ما تجدد الاحساس به ، عند تشييع جنازة « **سعد زغلول** » ، وعند توديع « **جمال عبد الناصر** » .

وقد استخرج قاسم أمين من جنازة **مصطفى كامل** دلالتها الحقيقية ، فاعتبرها اعلانا « **بمولود جديد خرج من أحشاء الأمة** » ، هو الأمل الذي يبتسم في وجوهنا البائسة .

بدأت الجنازة من مبنى جريدة « **اللواء** » ـ وهى الآن مدرسة عابدين المواجهة لمبنى وزارة الداخلية ـ فســارت فى شارع نوبار ، ثم شريف ، وانحرفت يمينا الى شارع عدلى ، فميدان الأوبرا وميدان العتبة وشارع محمد على ، فميدان القلعة ، ومنه الى مدافن الامام الشافعى ، وصلى على الجثمان فى جامع قيسون • وقدر عدد المشيعين بربع مليون مواطن ، ووصف أحد الصحفيين الأجانب هذا المشهد بقوله : ان شوارع القاهرة ، قد بدت كأنها مفروشة ببساط أحمر ، اشارة الى طرابيش المصريين الحمراء •

ومن الظواهر التى لفتت الأنظار فى جنــازة **مصطفى كامل** ، خروج المحجبات من النساء عن وقارهن فى الحــزن على الزعيم الشــاب ، ومن المعروف أن خروج النساء عاريات الوجه ومحلولات الشعر كان من ظواهر الحزن الشديد ، وخاصة فى عهد لم يكن قد عرف بعد خروج المرأة للعمل ، أو للدراسة ، ولم تألف شوارعه ظهورها سافرة ، والذين درسوا قصــائد الرثاء التى قالها الشعراء بعد وفاة مصطفى كامل ، لاحظوا تلك الظاهرة ، وهزهم أن الحزن على الزعيم الشاب قد أخرج المستورات من نساء المصريين عن صوابهن ، فقال أمير الشعراء « **احمد شوقى** » فى قصيدته :

شقت لمنظرك الجيوب عقائل ... وبكتك بالدمع الهتون غوان

وقال شاعر القطرين خليل مطران :

مشت الخوادر حاسرات والأسى ... ملق على الأبصار سترا أغدقا

وقال حافظ ابراهيم معبرا عن المعنى نفسه :

كم ذات خدر يوم طاف بك الردى ... هتكت عليك حرائر الأستار
ســفرت تودع أمـــة محمولـــة ... فى النعش لا خبرا من الأخبار

كثيرون اتهموا **مصطفى كامل** بانه كان رجعيــا لأنه وقف ضد دعوة « قاسم أمين » لتحرير المرأة ، ولرفع الحجاب ، لكن الرجل الذى اتهم بهذه التهمة كان أول ميت تتحرر النساء فى جنازته •

خفراء مصلحة الحضارة

« **تيودور روزفلت** » هو أول رئيس أمريكي يزور مصر وهو فى منصبه ، كان ذلك فى مارس ١٩١٠ ، وأثارت زيارته موجة من الهجوم والكراهية ، لأنه ـ كالعادة ـ هاجم حقوق الشعب المصرى ·

وكان « **روزفلت** » قد زار الخرطوم ، فألقى خطبة وقحـة يمجد فيها الاحتلال الانجليزى لمصر والسودان ، ويدعو شعب البلدين للخضوع لحكمه ، ثم كرر دعوته تلك فى محاضرة ألقاها فى الجامعة المصرية ، قال فيها : ان مطالبة المصريين بالدستور والحكم الذاتى سابقة لأوانها ، لأن ذلك يتطلب زمنا طويلا ويتطلب أجيالا متعاقبة الى أن يصبحوا أهلا للحكم الدستورى ·

ولم يكتف الرئيس الأمريكى بذلك بل توجه من القاهرة الى لندن وخاطب الانجليز هناك قائلا :

ـ انكم لستم فقط خفراء على مصالحكم فى مصر ، بل خفراء على مصلحة الحضارة عموما ، فقد قدمتم لمصر أفضل حكومة رأتها منذ ألفى عام ، وربما أفضل حكومة رأتها منذ بدء التاريخ ·

ونصح الرئيس الأمريكى المستعمرين الانجليز أن يعاملوا المصريين بشدة لأن « مصلحة الحضارة تقضى أن تعامل الشعوب غير المتمدينة معاملة غير مألوفة عندنا » ، ودعاهم الى أن يتذكروا أن معاملة الرفق واللين والضعف فى مركز كمركزكم فى مصر « يضر بأكثر مما تضر معاملة الشدة والظلم » ·

وأثارت هذه التصريحات موجة نقد حادة ، وأرسل « **الزعيم محمد فريد** » الى « **روزفلت** » يحتج عليهـا ، ويحتج على ادارة الجامعة المصرية لأنهـا سمحت **لروزفلت** بالقاء محاضرة تتضمن طعنا فى المصريين ، بل ومنحته فى نهايتها درجة الدكتوراه · وعقد الحزب الوطنى مؤتمرا فى أحد مسارح شارع عماد الدين ، وخرج المجتمعون ـ بعد المؤتمر ـ فى مظاهرة قادها محمد فريد الى فندق شبرد ـ حيث يقيم الرئيس الامريكى ـ فهتفوا بسقوطه ، وبحياة مصر والاستقلال والدستور ·

وتيودور روزفلت الذى أحدث هذه الأزمة هو سمى ـ وقريب الرئيس الأمريكى روزفلت الذى زار مصر أثناء الحرب الثانية ـ وهما الوحيدان من رؤساء الولايات المتحدة اللذان زارا مصر قبل عام ١٩٧٤ ·

وما أشبه الليلة بالبارحة ·

يا ميت .. صباح الفل

« **ابراهيم ناصف الوردانى** » هو أول قاتل سياسى فى تاريخ مصر المعاصر .

ففى يوم بارد من فبراير ۱۹۱۰ ، أطلق الوردانى النار على **بطرس غالى** رئيس الوزراء فأرداه قتيلا ، واعترف بالجريمة ببساطة وقال انه فعل ذلك لأن **بطرس غالى** رأس المحكمة المخصوصة التى حكمت على ضحايا دنشواى ، فضلا عن أنه كان يحاول مد امتياز قناة السويس .

وكانت تلك أول واقعة قتل سياسى فى تاريخ مصر المعاصر .

كان « **الوردانى** » صيدليا ، تلقى تعليمه فى تركيا ثم ألمانيا ، وتأثر هناك بالأفكار الفوضوية المتطرفة ، وقد دافع عن نفسه فى التحقيق دفاعا سياسيا رائعا ، وتحمل مسئولية عمله . وتركت الحادثة آثارا بالغة ، وأحدثت ضجة كبيرة ، ومع ذلك فقد كانت انذارا منع المتآمرين على مصلحة الشعب المصرى من مد امتياز القناة .

وعندما تطوع « **ابراهيم الهلباوى** » للدفاع عن المتهم ، رفض **الوردانى** تطوعه ، وقال : أنا لا أقبل أن يدافع عنى جلاد دنشواى ، الذى طالب برأس فلاحين أبرياء ليرضى المستعمرين ، ولكن الهلباوى بذل مجهودا خارقا حتى أقنعه بقبول تطوعه ، وبدأ « **الهلباوى** » دفاعه بقوله :

ـ ان بطرس باشا رجل يتقاضى كل سنة ألفا من الجنيهات ، ولو كان صائما لا يأكل ولا يشرب لما استطاع أن يترك أكثر من أربعين ألفا من الجنيهات ، لكن تركة بطرس غالى يا حضرات المستشارين قومت بأكثر من مليون من الجنيهات .. فمن أين جاء بهذا المال الوفير ؟

وبرغم حرارة دفاع الهلباوى ، فان القضية كانت معقدة ، ومن أغرب ما حدث فيها أن بعض زملاء الوردانى حاولوا تهريبه ، لكن ادارة السجن نقلته مصادفة الى زنزانة أخرى ، فلما نجحت المحاولة هرب آخر .

وبسبب هذه القضية صدر تشريع خاص ، فقد قدم سبعة من المتهمين مع الوردانى بتهمة أنهم اتفقوا معه على الجريمة ، ولكن قانون الجنايات لم يكن يعاقب على المشاركة فى التدبير والتخطيط فأفرج عنهم ، واستصدرت الحكومة تعديلا على القانون يعاقب بمقتضاه على الاتفاق الجنائى .. ما زال ساريا الى الآن .

وهو على درجات المشنقة ، قال الوردانى : « أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وان الموت فى سبيل الاستقلال آية من آيات الله » .

أما الشعب المصرى فقد صاغ فى الوردانى موالا جميلا مطلعه : « يا ميت صباح الفل على الوردانى » .

سينما ايديال

اختفت « سينما ايديال » كما اختفت كثير من ذكريات القاهرة ٠

ويوما ، كانت أشهر دور السينما فى العاصمة ، وذات مساء من يوليو ١٩١١ عقد فيها عمال الترام اجتماعا تاريخيا حضره أربعة آلاف منهم ليناقشوا أحوالهم ، ومعاملة الشركة البلجيكية لهم ٠ وصاغوا مطالبهم فى هذا الاجتماع ، فطالبوا الشركة أن تنشىء صندوقا ، يمول بالمشاركة ، ويستثمر المال فى مشروع تخصص ايراداته لاقراض العمال لمواجهة ظروف حياتهم التعيسة ، وطالبوا أيضا بانقاص ساعات العمل وبأن تعطى الشركة الملابس المصلحية للعمال بلا ثمن ٠٠ وأن تكون المرتبات شهرية لا يومية ٠٠ وأن يعطى العامل مكافأة عند نهاية الخدمة ٠

وكما هو متوقع رفضت الشركة المطالب ، وفصلت ثلاثة من العمال الذين نظموا اجتماع سينما ايديال ٠ ووصل الأمر الى عطوفة رئيس النظار ، فوعد خيرا ونصح العمال بعدم الاعتصام ٠ واستدعى رئيس النظار المسئولين فى الشركة واجتمع بهم فى حضور ممثلين عن العمال ٠٠ وبعد أن توصل الطرفان الى اتفاق ، فوجىء العمال بالمسئولين عن الشركة يخرجون ليعلنوا رفض المطالب ٠ وببساطة قرر عمال الترام الاضراب ، وبدأوه بالفعل فى ٢٠ يوليو ١٩١١ ، ونفذه ٤٠٠٠ عامل ومستخدم فى الشركة ٠٠ وأصدرت ادارتها منشورا تطالب فيه العمال بالعودة الى العمل خلال ٢٤ ساعة ، والا اعتبروا مفصولين وعين آخرون بدلا عنهم ٠٠ ورفض العمال جميعا تهديد الشركة ، وقرروا استمرار الاضراب حتى تجاب مطالبهم ، وتمكنت الشركة من كسب عدد قليل منهم لا يتجاوز السبعين عاملا ٠

وفى باب الحديد وبولاق والجيزة والعباسية ، ركب العمال عربات الكارو ، وحملوا صناديق لجمع التبرعات من الأهالى لمساعدتهم اذا قطعت الشركة مرتباتهم ٠٠ وسارع الناس يتبرعون ، ولأن الشركة كانت تخسر فى اليوم ١٢٠٠ جنيه ، فقد أرادت أن تسير قاطراتها بواسطة العمال السبعين الذين ساندوها ، فتجمع المصريون أمام مخازن العباسية فى خيمة أقاموها هناك ، ووضعوا كتلا من الحديد لمنع تسيير المركبات ، وجاء البوليس يقوده كونستبلات الانجليز وبدأ صدام عنيف ٠

ونجحت الشركة أخيرا فى تسيير بعض المركبات ٠ لكن الجمهور سرعان ما هاجمها هو والعمال ، وعاد تبادل اطلاق النار ٠ وسقط كثير من الجرحى ٠ وأطلقت الصحف على ما حدث « مذبحة العباسية » ٠

أيامهـــا كانت مصر تعيش تحت ظل حكـــم بريطاني صريح ، وكان الرأسماليون الأجانب يسرقون عـرق أبنائها فى المـدن والريف ٠ وانهالت برقيات الاحتجاج من القرى ، وكتب أهالى دمنهور الى صحيفة « **اللواء** » يقولون : « العدل يندب حظه ، وملاك الرحمة ينتحر على ربوة الأهرام من اجراءات البوليس ازاء عمال الترام » ٠ وسخر أهالى طنطا من « **باكستون بك** » وكيل حكمدار البوليس وطالبوه بالاستقالة ، وطالبوا ناظر الداخلية « أن يعين بوليسا جديدا لمراقبة البوليس فى أعماله » ٠

ووجه العمال المضربون النداء الى عمال المرافق العامة لمساندتهم فى اضرابهم ، بالاضراب تأييدا لهم وتضامنا معهم ، ولبى النـداء عمال ترام الاسكندرية ٠

كانت سنوات غريبة ، ملتهبة ، مرت كالعاصفة ، وجاء يوم ذهب فيه البلجيكيون من شركة الترام والانجليز من البوليس وذهبت أيضـا سـينما ايديال ٠٠ دنيا !

دروس فى النشـل

الكتاب قديم ٠٠ وككل قديم فيه عبرة ٠٠ وعنوانه « أسرار النشالين وما يتخذ لمكافحتهم » ، واسم المؤلف غريب وهو « **الهيد كونستابل بورجزانو** » الاسم ايطالى غالبا ، لكن الكتاب باللغة العربية ، ووظيفة المؤلف هى آخر ما يخطر على البال : كان ــ غفر الله له ونفعنا بعلمه ــ رئيس فرقة البوليس السرى المعينة لضبط النشالين بمحافظة مصر ٠

وقد يبدو غريبا أن يكون « **الهيد بورجزانو** » رئيس فرقة فى البوليس المصرى ، لكن اهداء الكتاب يدفع للضحك ٠٠ فهو مهدى الى حضرة صاحب السـعادة الميرالاى « **بيكر بك** » وكيل حكمدار العاصمة ٠ فى كل صفحة من الكتاب القديم مفاجأة مذهلة ، ففى المقدمة يقول « **الهيد** » انه ألف كتابه هذا « **خدمة للانسانية** » ، وخصوصا فلاحنا المسكين الذى هو مطمـع السـواد الأعظم من النشالين لأنهم يتوسمون فيه البلاهة وحسن النيـة لأنهـم أكثر دهاء منه ٠

هذا هو « **البورجزانو** » الذى يعمل مع « **بيكر** » يقدم كتابا للفلاح ، وهو بالقطع رجل ذكى غاية فى الذكاء ، لأنه يعود بعد سطرين من المقدمة ليقول ان سبب الأمراض الاجتماعية فى جسد كل أمة هم « **الوافدون عليها لافسادها ممن نبذتهم بلادهم ولفظتهم أوطانهم وضاقت بهم مرافقهم فعاثوا فى الأرض فسادا** » والتجأوا الى وسائل البطش والقوة ، فسلبوا الناس الراحة ، وقضوا على سعادتهم ، وعكروا عليهم صفو حياتهم ، وسلبوا ما راق فى أعينهم ، فهم مثل الذئاب الخاطفة ، لا هم لهم الا اسعاد أنفسهم باشقاء غيرهم ·

وبالطبع فقد نسى « **البورجزانو** » أنه هو ورئيسه « **بيكر** » من هؤلاء « **الوافدين عليها** » للافساد وأن الجاليات الأجنبية التى حطت رحالها فى مصر سرعان ما اجتذبت ــ كما رصد **دافيد لاندز** بحق ــ أكثر فئات المجتمعات الاوربية انحطاطا ولا أخلاقية ، وأنه مع وفود رؤوس الأموال الأجنبية فى عهد اسماعيل ، وفد معها المغامرون والأفاقون ، وبائعات الهوى والبلطجية والنشالون ·

يخاطب « **البورجزانو** » القضاة ، متباكيا على الفلاح مطالبا اياهم أن ينظروا الى بساطته ، وأن يقدروا جهله الذى يدفعه الى الوقوع فى الشرك ، ويقول « فلو كان هذا الفلاح ممن أعطاهم الله بسطة من العقل لأدرك وجود الجناة فى ذلك المكان ، أو فى الجهة التى ضربوا له فيها موعدا » ·

حنونا كان « **البورجزانو** » على الفلاح ، لذلك كان أمثاله من الأجانب يمرحون فى القرى : يأتون فقراء ومشردين ، يجمعون الثروات بدأب ، ويحرصون على أن يقضوا على كل بسطة من العقل أعطاها الله للفلاح ·

صفحات الكتاب كلها بعد ذلك عناوين واضحة · عن البلطجى ودهائه ومروقه من التهمة ، عن أنواع النشل ومدارسه : النشل على الواقف ، والنشل بقطع الجيب ، ثم النشل بالطريقة الانجليزية ، والايطالية والفرنسية ، ونصف الكتاب بعد ذلك عن النشل بالطريقة الأمريكية ·

يتتبع المؤلف مدارس النشل · لكنه ينسى أن يجيب على سؤال واحد :

ــ لماذا تبدأ مدارس النشل كلها بالحروف اللاتينية ؟ صحيح ·· لماذا ؟

الحب بالعافية

مات مصطفى لطفى المنفلوطى فى يوم هول ·· ففى ذلك اليوم كان **سعد زغلول** فى طريقه الى الاسكندرية ، عندما هاجمه شاب أطلق عليه بضع رصاصات أصابته فى ذراعه ، وارتجت مصر لهول الحادث ، ولم يبق فيها صحيفة ولا ناد ولا تجمع ، الا وقد اقتصر همه على الاطمئنان على صحة زعيم الثورة **سعد زغلول** ·

ووسط هذا الهول ، وفى نفس يوم الحادث ، مات المنفلوطى ·· فلم يأخذ حقه من الحزن ، وقلت الدموع التى ذرفت عليه ، وهو الذى استنزف بأدبه الحزين دموعا كثيرة من أعين أجيال متتالية من المصريين ·· وعندما رثاه أمير الشعراء احمد شوقى تنبه لهذه المأساة وقال فى مطلع قصيدته :

اخترت يوم الهول يوم وداع ونعاك فى عصف الرياح الناعى

وفي ثلاثية **نجيب محفوظ** يقول احد الأبطال :

ـ موت المنفلوطى وضياع السودان ووفاة سيد درويش أسود أيام حياتنا ·

وهكذا ارتبط المنفلوطى فى وجدان الجيل الذى كان شابا فى عشرينات القرن بمجموعة من العواطف المركبة بعضها بأحلام مجهضة ـ كضياع السودان بعد مقتل السردار ـ والآخر مزيج من الفرح والحزن والكبرياء الوطنى ونشوة الطرب ، كانت تمثله موسيقى سيد درويش ، أما المنفلوطى نفسه فكان آخر صيحة فى أدب الانشاء والخواطر ، حيث يجد الكاتب فرصة ليزخرف اللفظ ويوشى الفكرة ببعض المحسنات ، وكانت الحياة فى مصر تتعقد يوما بعد يوم وتنتشر المصانع والأفكار الجديدة ، فتتوارى الى الخلف أهمية الألفاظ الجزلة لتتقدم عنها فى الأهمية لغة العلم البسيطة والمباشرة ·

وفى زمنه كان « **المنفلوطى** » قمة من قمم الانشاء العربى ، تنشر الصحف نظراته الشهيرة فى صدر صفحاتها ، وتطبع المطابع كتبه وتعيد طبعها ، ويعتبر البعض كتبه جزءا من مكتبة كل أديب ومعجب بالأدب ·

وقد دخل المنفلوطى السجن مرة واحدة فى حياته ·· كان ذلك بسبب قصيدة هجاء قاسية كتبها ضد **الخديو عباس حلمى الثانى** ، ونشرها فى مجلة « الصاعقة » دون توقيع ، وكان الخديو عائدا من مصيفه فى الاسكندرية ، عندما نشرت المجلة أغرب تهنئة بعودة سموه ، قال فيها المنفلوطى :

قدوم ولكن لا أقول سعيد	وملك وان طال المدى بيبيد
غربت ووجه الناس بالبشر باسم	وعدت وحزن فى الفؤاد شديد
تمر بنا لا طرف نحوك ناظرا	ولا قلب من القلوب ودود
تذكرنا رؤياك أيام أنزلت	علينا خطوب من جدودك سود
رمتنا بكم مقدونيا فأصابنا	مصوب سهم البلاء سديد
أعباس ترجو أن تكون خليفة	كما ود آباء لك ورام جدود
فياليت دنيانا تزول وليتنا	نكون ببطن الأرض حين تسود

وأثارت القصيدة مصر كلها ·· وترجمتها الصحف الأجنبية ونشرتها ، ورغم انها كانت تصب فى مجرى صراع كان قائما فى هذا الوقت بين الخديو عباس وبين الانجليز ، الا أنها فجرت فى المجتمع المصرى قضايا ومناقشات هامة · وفى المحكمة دافع المتهمان ــ المنفلوطى وأحمد فؤاد صاحب مجلة « الصاعقة » ــ عن نفسيهما دفاعا طويلا ·· وقالا :

ــ ان كون الرعية لم تسر بقدوم الخديو ليس خيانة عظمى ، ولا خيانة للوطن ، لأن محبة الرعية لراعيها أمر اختيارى ، وما من ملك الا وله من ينقد أعماله ولا يسر بقدومه ، والملك ليس فى وسعه أن يرغم الرعية على محبته لأنه ملك الأجسام ·· لا ملك الأرواح والقلوب ·

وأدانت المحكمة المنفلوطى ·· فقد كان فى مصر وقتها قانون غير مكتوب يجبر المصريين على أن يحبوا الخديو والا دخلوا السجن ·

الوداع يوم الهول

أحيانا يموت الانسان فى وقت ليس هو الملائم تماما ؟

ذلك حديث للكاتب الكبير مصطفى لطفى المنفلوطى ، الذى مات يوم أصيب سعد زغلول فى محاولة لاغتياله ، وشغلت مصر بالحادث ، تحدثت عنه كل صحفها ومنتدياتها وجماهيرها ونظم فيه كل شعرائها وأدبائها ، ونسى الكل الى حين أن الكاتب العاطفى الكبير قد مات ·

كان شيخا معمما ومع ذلك تغزل فى الحب وكتب عن القبلات ، ونثر العاطفة فى كثير من أعماله ·· بدأ حياته فى قريته منفلوط ، وأتم حفظ

القران ، وانتقل الى القاهرة فدخل الأزهر ، وسرعان ما وجد أن طريقة التعليم ـ التى كانت متبعةفى الأزهر وقتها ـ لا تتلاءم مع مواهبه الأدبية فأهمل دراسته ووقعت بينه وبين مشايخه فى الأزهر مشادات بسبب ادمانه قراءة الكتب الأدبية وقرض الشعر · وهو فى السادسة عشرة ، التقى بالامام محمد عبده وتتلمذ عليه ، وعطف عليه الامام وقربه منه ·· الى أن مات فعاد المنفلوطى الى بلدته ·· فأقام بها وعندما تولى سعد زغلول وزارة المعارف لأول مرة عام ١٩٠٦ خلق له وظيفة أطلق عليها « المحرر العربى » وبقى فيها مدة حتى جاء الرئيس الامريكى الأسبق تيودور روزفلت الى القاهرة ، وأدلى فيها بتصريحات أيد بها الاحتلال الانجليزى لمصر ، وثار الصحفيون فى مصر ثورة عارمة ، وتصدى له المنفلوطى بمقالات متوالية آثارت مستشار المعارف الانجليزى دنلوب ، فتوجه الى سعد زغلول طالبا فصل المنفلوطى من الوزارة لأنه يكتب فى السياسة ، لكن سعدا رفض بتاتا ، وقال للمستشار :

ـ ان الحكومة فى حاجة الى رجال مثل الشيخ المنفلوطى ، ولكنه ليس فى حاجة اليها ، والوظائف قبور للادباء ، ومن الخير للحكومة أن يكون مثله داخلها ·

وعندما انتقل سعد باشا لوزارة الحقانية فى وزارة محمد سعيد باشا نقل المنفلوطى معه ، وخلق له أيضا وظيفة « المحرر العربى » وبقى بها الى أن انتخب سعد وكيلا للجمعية التشريعية عام ١٩١٣ ، فأخذه معه ضمن سكرتاريتها وبقى بها الى أن نفى سعد فانتصر له المنفلوطى وكتب يسانده ، وأثار ذلك ثروت باشا ففصله من خدمة الحكومة ، وعاد بعد ستة أشهر الى عمل فى السراى الملكية ، تركه ليعمل رئيسا فى سكرتيرية مجلس الشيوخ ·

كان فى الثامنة والأربعين يوم مات ·· لكن زحام الحياة حجب عن الناس خبر موته فى حمى الضجة التى أحدثتها محاولة شاب طائش لاغتيال سعد زغلول ، وعندما هدأت الضجة تذكره الأدباء والشعراء وبكوه بشدة ·

أبواق الاستعمار

كانت « المقطم » أشهر أبواق الاحتلال الانجليزى فى مصر ٠

كانت صحيفة غريبة ، وقحة فى الدفاع عن مصالح سادتها ، تكتب فى مصر لتدعو المصريين الى شكر الاحتلال والاعتراف بأياديه على مصر ، والدعوة علنا الى الاستسلام له ، وتدافع عن سمومها بفجاجة شديدة ، فتتحدث عن الثورة العرابية باعتبارها « البلاء الذى نزل بالبلاد عام ١٨٨٢ ، وكيف صال شيطان الفوضى » ، ثم تقول « ولم تكن اليد المنقذة سوى انجلترا التى أرجعت المياه الى مجاريها وشيدت دعائم الحضارة ٠ فهل نلام اذا شكرناهم ؟ نلام لاعترافنا بالجميل ؟ » ٠

وكان الاحتلال سخيا مع المقطم ، الى الدرجة التى جعلت مصانع انجلترا تبتكر آلة خاصة ، لطى صفحاتها بحيث يسهل على قرائها من العمد وأعيان الريف وضعها فى جيوبهم ، وأعطيت مطبعتها امتياز طبع المطبوعات الحكومية رغم وجود المطبعة الأميرية ، وأخذت حق نشر التقارير السنوية التى كان يكتبها اللورد كرومر عن مصر ، وترجمتها فى كتب وكسبت من ذلك مئات الألوف من الجنيهات ٠

وفى أثناء الحرب العالمية الأولى ، كانت « المقطم » تنفرد بالأخبار العسكرية الهامة ، تصدر بها « ملاحق » متعددة كانت تنتشر كالنار فى الهشيم ، وقد اقتنى فارس نمر باشا أحد أصحاب المقطم عزبة من ربح هذه الملاحق ، سماها عزبة الملحق ٠

وفى كل مناسبة وطنية كانت المقطم تتصدى للهجوم على المصريين ، فعلت هذا فى حادثة دنشواى ، فهاجمت الفلاحين الأغبياء المتعصبين ، لدرجة أنها وقعت فى خطأ بالغ ، فنشرت نبأ ارسال المشانق الى دنشواى قبل صدور الحكم فى القضية ، مما نبه الى أن الاستعماريين كانوا يخططون لاعدام المتهمين قبل أن تبدأ المحاكمة ٠

ولم يكن غريبا اذن أن يشاع عن « اللورد كرومر » أنه قال انه يستطيع أن يحكم مصر بخمسين جنديا فقط بشرط أن تواصل المقطم الصدور ٠

واختفت « المقطم » تماما فى عام ١٩٥٢ بعد أن عاشت ٧٥ عاما ٠

الثـــوروى

يوما ما كانت كلمــة الثورة حراما ·· يرفضها الناس ·· يزورون عنها ، يقف كل من يتهم بها ليعلن براءته من هذه التهمة الشنيعة ·· مؤكدا أنه ليس ثوريا وانه فقط من دعاة النهضة أو التقدم ·· أو الاصلاح ؟

وحتى فى المسائل التى لا تتعلق مباشرة بالسياسة ، كانت الثورية تهمة تلصق بالمتمردين ودعاة الاصلاح والرافضين للاوضاع فى أى مؤسسة ·

واحد من هؤلاء « الثورجية » الذين عاشوا فى وجدان مصر وحياتها عمرا طويلا ، هو « **القمص سرجيوس عبد الملاك** » الذى فرض نفسه على الوجدان العام طوال نصف قرن أو يزيد ، أصاب كثيرا وأخطأ كثيرا ، لكنه مضى وقد ترك ذكريات عزيزة يذكرها المسيحيون المصريون عنه باعتباره من أوائل الذين ثاروا داخل الكنيسة الأرثوذكسية المصرية مطالبين باصلاحها ، وتهيئة حياة دينية وثقافية ومعاشية أفضل لرجال الدين ، ويذكرها المصريون جميعا ــ مسلمين ومسيحيين ــ لرجل كان من الطلائع التى دعت للوطنية المصرية وقاتلت من أجل وحدة كل المصريين ضد الاحتلال والقهر ·

فى جرجا ــ وفى نفس السنة التى شهدت اجهاض الثورة العرابية ــ ولد « **ملطى سرجيوس** » من أسرة من القسس ، وحلم وهو طفل أن يكون واعظا ، وتتبع بشغف وعظ الوعاظ الذين يجوبون البلاد ·

وهو فى السادسة عشرة التحق بالمدرسة الاكليريكية ، واشتهر بالنبوغ والذكاء وسعة الاطلاع وتخرج بعد أربعة أعوام واستبقته المدرسة ليعلم الصف الأعلى ·

ولأنه كان متمردا من الأصل ، فقد تزعم زملائه فى المطالبة باصلاح المدرسة الاكليريكية ، والنهوض بمستواها العلمى ، بتعيين أساتذة لاهوتيين ، ووضع برنامج واف ، وتعيين الخريجين وعاظا ، وقصر رسامة القسس عليهم ، واعداد ما يلزم الطلبة من مسكن ومأكل ليتفرغوا للدراسة · ولما لم يجب الى طلبه قام بالاضراب · وكان أول اضراب يحدث فى مصر ·

وأحدث الاضراب أصداء واسعة فى الصحف ، ولقى حماسا شديدا من الناس الذين اندفعوا يؤيدون الطلبة المصريين · ولما هدد مراقب الدار البطريركية باستدعاء البوليس لطردهم والقاء أثاثهم فى الشارع لجأ « الطالب سرجيوس » الى عميد الأقباط « **بطرس باشا غالى** » فأمر بفتح أبواب جمعية التوفيق ــ وهى جمعية اصلاحية قبطية ــ لاقامة الطلبة حتى تحل مشكلتهم ·

منـذ ذلك الحين اطلقت البطريركية لقب « **المشوروى** » على **القمص سرجيوس** ، ذلك اللقب الذى كان تهمة فى ذلك الزمن البعيد ·· والذى ما زال كذلك عند الذين ما زالوا يعيشون فى الزمان الذى مضى ·

وان جارت على عزيزة

يوما قال **أحمد شوقى** امير الشعراء :

بلادى وان جارت على عزيزة وأهلى وان ضنوا على كرام

كثيرون يرددون هذا البيت ، عندما يجدون انفسهم ـ لسبب أو لآخر ـ جوعى أو مشردين أو مهانين لا لسبب الا أنهم يحبون وطنهم ، ويجتهدون فى سبيله على قدر ما يطيقون · فينهال عليهم الذين لا يعيشون ، الا ببيع الضمائر والذمم ، ولا يرتفعون الا اذا اتهموا الآخرين · ورغم ذلك لا يفضلون أن يتركوا بلدهم ، ويرفضون أن يخونوا عهد الحب ، مهما ادلهمت الظروف !

شىء من هذا « **للقمص سرجيوس** » ، وكان رجلا جسورا الى حد التحدى ، ويوما فى أكتوبر عام ١٩٠٤ دعوه ليمثل أمام المحكمة فى الدار البطريركية ، فلما حضر أمام المجلس الاكليريكى سألوه عن تهمة ملفقة فأجابهم : « انى لم أبع ضميرى بمثل ما تبيعونه وأنتم جلوس على هذه الكراسى » ·

وانتهى الأمر باحالته الى الاستيداع ، وبعد عامين بدون عمل ذهب ليقابل البطريرك فطرده من مكتبه ، وخرج جائعا ومفلسا فعاد الى جرجا بنقود أقرضها اياه بعض أهل الخير ، وما أن وصل حتى وجد دعوة من « **البابا كيرلس مقار** » بطريرك الكاثوليك يدعوه فيها لزيارته ، واستقبله بطريرك الكاثوليك استقبالا حارا ·

وقام أحد المطارنة يمتدح « **سرجيوس** » ومواهبه ، ورد البطريرك قائلا :

ـ لا يا نيافة المطران ، انه لا يستحق شيئا من هذا المديح لأنه يضيع مواهبه فى كنيسة لا تقدره بل تحاربه ، وكان أولى به أن ينضم الى الكنيسة الكاثوليكية لتنتفع بمواهبه ·

كان مشهد المقابلة بين سرجيوس وبين البطريرك الارثوذكسى لم يغادر ذاكرته بعد ، وعودته بنقود اقترضها من أهل الخير · لكنه رغم هذا رد قائلا :

ـ يا صاحب الغبطة ·· رجل أحنته الأيام وأضعفته الشيخوخة فاذا به يتوكأ على عصا ، فجاء رجل واختطف منه العصا ·· ماذا تقول سيادتكم عنه ؟

فقال البطريرك مقار :

ـ أقول انه ظالم ·

فقال القمص سرجيوس :

ـ لا أريدك أن تكون هذا الظالم ·

وثارت كلمات حادة من الكاثوليك الذين كانوا يشهدون المناقشة لما عدوه تطاولا من سرجيوس على مقام بطريركهم ، لكن البطريرك طلب منهم أن يسكتوا لأنه يريد أن يسمع ما يقوله سرجيوس ، وقال له :

ـ لماذا أكون ظالما عندما أدعوك للانضمام الى الكنيسة الكاثوليكية ؟

فرد سرجيوس :

ـ ان كنيستى القبطية قد هدت الظروف والأحوال من قوتها ·· فكلما قام واحد من أبنائها ليأخذ بناصرها ، وتوسمتم فيه أنتم أو البروتستانت خيرا دعوتموه للانضمام اليكم ·· وكنيستكم غنية بالرجال ·· أقول هذا وقد طردنى بطريكى بالأمس فى حر الظهيرة وليس فى جيبى مليم واحد ·

حط الصمت على الكل ·

دمعت عينا بطريرك الكاثوليك ·

لم يكن شوقى قد قال بعد : بلادى وان جارت على عزيزة ·

قالها قبله سرجيوس ·

المنطق والسياسة

كان الصراع بين « مصطفى كامل » و « لطفى السيد » ، وبين « الحزب الوطنى » و « حزب الأمة » ، وبين « اللواء » و « الجريدة » هو الملمح الرئيسى لحياة مصر السياسية فى العامين الأخيرين لحياة **مصطفى كامل** ٠

كان الحزب الوطنى - بزعامة **مصطفى كامل** - يطالب بالجــلاء ، ويهاجم الاحتلال ، ويتبع سياسة المعاندة مع المحتلين على صفحات « اللواء » ، بينما كان « حزب الأمة » يطالب بالاصلاح التدريجى ويسالم الانجليز ، ويطالب بأن تنفصل مصر عن تركيا ، وكان المعبر عن كل هذه الآراء هو « **لطفى السيد** » فيلسوفه ورئيس تحرير صحيفته « الجريدة » ٠

ونشبت الخصومة السياسية بين الحزبين ، والصحيفتين ، والرجلين ، حادة وعنيفة ، ونال كل منهما الآخر بقوارض الكلمات ، وتناثرت الاتهامات ، وخطب كل منهمـا خطبا ساخنة ضد الآخر ، كان « **لطفى السيد** » عقلانيا متوهج العقل ، وكان « **مصطفى كامل** » عاطفيا متوهج العاطفة ، لذلك لم تتوقف المساجلات السياسية بين الاثنين يوما واحدا ٠

فى قمة تلك الخصومة ، مات **مصطفى كامل** ، وكان قد نجح قبل وفاته ، وبعد نضال شاق ، فى استصدار قرار بالعفو عن المحكوم عليهم فى **قضية دنشواى** ، لهذا جاءت وفاته المفاجئة ، صدمة قاسية للشعب ، وحزنت عليه الأمة وزاد من حزنها أنه كان شابا لم يتخط الرابعة والثلاثين من عمره ٠

وكان متوقعا أن ما كان بينه وبين لطفى السيد من خصومة سياسية ، ستقصر ما يؤديه على اداء الواجب الانسانى فى رثائه ، وفى مجاملة أسرته ، ومجاملة مصر فى فقده ، ويقول د٠ **هيكل** فى مذكراته : انه لعلمه بعقلانية أستاذه لطفى السيد ، وحرصه على الصراحة والوضوح ، فقد توقع منــه الا يزيد عن ذلك ، ومع اعتقاده هذا ، حرص على أن يقف منه شخصيا على حقيقة رأيه فى هذه الفاجعة القومية ، فذهب غداة مشهد الزعيم الشاب الى سراى البارودى - مقر الجريدة - وصعد السلم يريد أن يستأذن على لطفى السيد كعادته ، وكان عجبه شديدا ، حين رأى باب حجرته مفتوحا على مصراعيه ، ورأى حاجبه لا يصد أحدا عن الدخول ، ودخل الحجرة فرأى بها عددا كبيرا غير مألوف من الزوار الذين أحاطوا بالمنضدة الطويلة الممتدة أمام مقعد لطفى ، وكان عجبه أشد من ذلك ، حين رأى أستاذه وقد ارتدى الســواد واشتمل عنقه برباط أسود كبير ووقف وكأنه فجـع فى أعز الناس عليـه وأقربهم اليه ٠

وقف هيكل مبهوتا أمام منظر لم يكن يتوقعه ، ثم انسحب ولم يرد أن يطيل السماع لحديث لم يكن يألفه من قبل ، لأنه لم يكن حديث المنطق الذى تعوده من لطفى ، بل كان حديث مأتم تجرى فيه العواطف أدمعا أو ما يشبه الأدمع ، فلما ظهرت الجريدة بعد ذلك اليوم كان لطفى السيد أول داع لاقامة تمثال لمصطفى كامل ، ولجمع التبرعات الشعبية لهذا الغرض ، وأثار هذا عجب د٠ هيكل ، لم يسعفه منطقه الشاب بما يرضاه عقله تفسيرا لما رأى وما سمع ، ولم يستطع أن يقنع نفسه بأن السياسة يمكن أن تبلغ من مخالفة المنطق هذا المبلغ ، فكتم ما فى نفسه حتى أفضى به الى أستاذه لطفى السيد بعد أيام فابتسم الأستاذ قائلا له أنه ما زال صغيرا لا يقدر مثل هذه المواقف ٠

لم يكن الكلام مقنعا ، وظل د٠ هيكل طويلا يتساءل عن العلاقة بين المنطق والسياسة ؟!

السابقون لزمنهم

فى عام ١٩١٥ رفعت الآنسة « **أسماء منصور** » دعـوى على وزارة المعارف العمومية ، تطالبها بالسماح لها بدخول امتحان الكفاءة ٠

وكانت الوزارة قد سمحت للبنات فى السنة السابقة مباشرة بالتقدم الى هذا الامتحان ، ونجح بعضهن ، وبقيت الآنسة « أسماء » للاعادة ، وأخذت تستعد للامتحان بالفعل ، ودفعت رسومه ، ثم فوجئت قبل موعده بأيام بخطاب من الوزارة يدعوها لاسترداد رسم الامتحان الذى دفعتـه فرفعت القضية تطالب بتمكينها من أداء الامتحان ، وتعويضها عما لحقها من تعطل وضرر ٠

ورفضت المحكمة الابتدائية كل الطلبات ٠ وترافع الأستاذ « مرقص حنا » (باشا فيما بعد) ــ وكان محاميا شهيرا ــ عن المدعية ، مناصرا قضية تعليـم البنات ، ووجوب فتح أبواب المدارس كلها أمامهن ، ولكن المحكمة المؤلفة من قضاة مصريين وانجليز لم تأخذ برأى المحامى ، وأصرت على أن لتعليم البنات حدودا معينـة يجب ألا يتعداها وأن جلوس الصبيان بجوار البنـات فى الامتحانات العامة مما لا يمكن قبوله حسب العرف والتقاليد

وبعد ذلك التاريخ بسبع سنوات فقط ، تقرر حق التعليم الثانوى للبنات بشكل كامل • وحققن نسب نجاح مرتفعة جدا ، وفى نفس السنة بدأ التفكير فى الحاقهن بالجامعة ، وتأجل المشروع الى عام ١٩٢٨ ، ففى تلك السنة قبل فى القسم الاعدادى لكليتى الطب والعلوم ثمانى طالبات مصريات من الحائزات على البكالوريا •• وفى نفس السنة دخل الفوج الأول من الطالبات الى كلية الآداب •

وفى هذا العام دخل امتحان الثانوية العامة عشرات الألوف من البنات • فمن يذكر وسط زحامهن « أسماء منصور » أو « مرقص حنا » • فألف رحمة على من يسبق زمنه •

خط ١٧ فى المحكمة

عندما أنشىء خط ترام الجماميز رقم ١٧ لأول مرة ، كان يمر على بيت ثرى كبير من أثرياء ذلك الزمن ، كان يملك مزارع واسعة وأملاكا كثيرة ، يعيش كما يعيش ثرى خالى البال ، ينفق أيامه فى المتع ، يبذل جهدا قليلا لتنمية ماله ، وجهدا أكبر لتنمية أبهته ، وللحفاظ على كبريائه ، ولاثبات وجوده لا على أنداده فقط ، ولكن أيضا على الفقراء والمساكين •• يفرض سيطرته على من يحيطون بمنزله ، بل ويعتبر الشارع نفسه ملكا له •

وكان أصحاب الأملاك يستخدمون فى تنقلاتهم فيتونا ، وكأى واحد منهم كان سعادة الباشا يخرج من منزله ، فيتوقف الراجلون ، ويفسحون له الطريق ، وينطلق هو بفيتونه •• ويوما وقعت الواقعة ، اذ قررت شركة الترام أن تمد أحد خطوطها فى الشارع الذى يقع فيه قصره المنيف ، وبدأ خط ١٧ العمل ، وفوجىء الباشا بالدنيا تتغير ، فالترام يحمل ناسا ليسوا من أهل شارعه ، ويخرج هو الى الطريق فلا يتوقف الراجلون ، ولا يعم الصمت كما كان يحدث دائما ، وإثاره هذا وأغاظه ، فبدأ يشاكس ويقاوم ، وادعى أن الشارع يقع فى ملكه وتحت حكمه ، فكانت عربته تنتظر أولاده صباحا على الشريط أمام الباب ، فتمنع الترام أن يسير ، وتقف القطارات صفا طويلا حتى ينزل أولاد الباشا ويذهبون بالفيتون الى مدارسهم •

وأثار ما يحدث **الشيخ علي يوسف** ، صاحب جريدة المؤيد ورئيس تحريرها ، فكتب مقالا ساخنا وطريفا فى الموضوع الذى نقله الباشا الأخرق الى المحاكم فأصبح واحدا من أطرف القضايا التى عرضت على القضاء المصرى ، وتابعته الصحف بلهفة ، وركاب ترام ١٧ ينتظرون الحكم بفارغ الصبر ، ويأملون ألا يكسب الباشا القضية ، فيعودون الى السير على أقدامهم المنهكة ٠

وكان طبيعيا أن يخسر الباشا القضية ، التى كانت دلالة على حماقة الذين يملكون ، فيتصورون أن الدنيا وما عليها ينبغى أن تسخر لخدمة عنجهيتهم الفارغة ، لا يكتفون بأن يركبوا سيارات ، بل يصرون أيضا على أن يقف المنهكون والعارقون ، وألا يجدوا حتى فرصة لحشر أجسادهم فى ترام ١٧ ٠

الأميرة المشاغبة

كانت الأميرة « **نازلى فاضل** » واحدة من أغرب شخصيات أسرة « **محمد على** » ، فقد أثارت من الضجة والضجيج ما لم يثره أي فرد آخر من أفراد هذه الأسرة الغريبة التى أنهت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حكمها ٠

كان والدها « **الأمير مصطفى فاضل** » شـقيقا **للخديو اسماعيل** ، وبسبب لعبة اسماعيل التى غير بمقتضاها قاعدة قانون وراثة العرش من أكبر أفراد الأسرة عموما الى أكبر أبنائه هو ، ضاعت فرصة « **مصطفى فاضل** » فى تولى عرش مصر ، وهرب الى الآستانة وانضم الى أحرارها ، أما ابنته فقد ناصبت أسرة اسماعيل العداء التام ، ودفعها هذا الى تأييد عرابى ، اذ كانت تأمل أن تؤدى ثورته الى اقتلاع توفيق من على العرش ، فتنتقم من لعبة عمها الكبير الذى أضاع العرش على والدها ٠

فى صباها تزوجت الأميرة المشاكسة من خليل شريف باشا ، أحـد ثراة الأتراك ٠ وعاشت معه فى باريس فترة ، ثم عادت الى مصر وبقيت بها وأصبحت نجمة لامعة ٠ اذ كانت تفتح صالونا أدبيا فى بيتها ، وتستقبل فيه قادة النهضة الأدبية والفكرية ، ومنهم **الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وفتحى زغلول وشوقى** ، والعشرات من أمثالهم ٠

وعندما عادت ، كان الخديو عباس حلمي الثاني ــ ابن توفيق وحفيد اسماعيل ــ يجلس على العرش ، ولأنه كان يعادى الانجليز فى بداية حكمه ، صادقت الانجليز وأخذت تتجسس على الخديو لحساب السلطان العثمانى ، ولحساب **اللورد كرومر** ٠

وكانت « **نازلى فاضل** » صديقة مقربة للزعيم « **محمد فريد** » ٠ لكنه اختلف معها لأنها كانت كثيرة الطعن على **مصطفى كامل** ٠ وحدث فى أواخر عام ١٩٠٧ ــ وكان مصطفى فى فراش مرضه الأخير ــ أن دعت عليه أمام محمد فريد ، وتمنت موته ، فغضب منها وقاطعها برغم صلتها المتينة به ٠ وبعدها بعامين أدلت الأميرة بحديث لصحيفة « الاجيبشيان جازيت » ــ وكانت لسان دار الحماية البريطانية ــ قالت فيه أن الشبان المصريين تافهون ، وأن الواحد منهم لا يساوى ثمن الحبل الذى يشنق به ، وثارت عليها الصحف ، ورد عليها محمد فريد فى « العلم » ــ صحيفة الحزب الوطنى ــ بامضاء « صديق قديم » ٠

وقد لعبت الأميرة نازلى فاضل دورا هاما فى حياة الزعيم سعد زغلول ، حتى ان صورتها كانت من الصور القليلة التى كان يضعها بجوار سريره ، وما زالت كذلك الى الآن فى متحف بيت الأمة ، اذ كان من أصدقائها ونجوم صالونها ، وعن طريقها تعرف بزوجته صفية ابنة رئيس الوزراء ــ آنذاك ــ مصطفى فهمى باشا ، وكانت الأميرة هى الوسيط فى الزواج ، وتعتبر الفترة التى ارتبط فيها سعد بصالون الأميرة ، أكثر الفترات اعتدالا فى حياته السياسية ، اذ كان ــ قبلها ــ من المتحمسين للثورة العرابية ، وممن حقق معهم فى ذيولها ، ثم ارتبط تردده على صالون الأميرة « نازلى فاضل » بالسنوات التى تفرغ فيها لبناء مستقبله الفردى وصعد من طالب أزهرى فقير ينتمى لأسرة من الفلاحين الى صهر لناظر النظار ، وخالط فيها الفئات الأرستقراطية ٠ وهى الفترة التى انتهت فى ٩ مارس ١٩١٩ عندما دخلت الجماهير الحلبة ، فأحاطت سعد زغلول بحبها ، فاذا بالثائر القديم فيه ينتفض ، فيزيح عنه آثار سنوات الراحة !

وهكذا انتهى تأثير الأميرة المشاغبة فى روح سعد زغلول ، بعد أن فارقت الحياة بخمسة أعوام فقط ، اذ كانت قد غادرت الدنيا عام ١٩١٤ ٠

الدستور يا أفندينا

فى عام ١٩٠٨ اشتدت الدعوة للمطالبة بالدستور ، وارتفعت وعلا صوتها ، حتى أصبح أكثر الأصوات السياسية ضجيجا واجتذابا للاهتمام العام ٠

قبل ذلك بقليل كان « **اللورد كرومر** » قد ترك منصبه كمعتمد بريطانى فى مصر ، نتيجة للحملة الضارية التى شنها ضده الزعيم **مصطفى كامل** بعد حادث دنشواى الحزين ، وحل محله السير « **الدون جورست** » ٠ وبمغادرة كرومر مصر كف الخديو « **عباس حلمى الثانى** » عن التظاهر بالوطنية ، وانتقلت العلاقات بين السراى ودار المعتمد البريطانى الى ما سمى بسياسة « **الوفاق** » ٠

كان **كرومر** هو أول معتمدى الاحتلال البريطانى فى مصر ، لذلك كان حريصا على تأكيد سلطة الاحتلال فوق أى سلطة ، وعندما تولى الخديو **عباس حلمى** العرش ، كان شابا معتزا بنفسه ، وسرعان ما وقع الخلاف بين الرجلين ، حادا وعنيفا ، وانتهى بأن انتمى الخديو للقوى الوطنية ، وتحالف مع **مصطفى كامل** والحزب الوطنى ، ومارس العديد من المشاغبات ضد الاحتلال ٠

وجاء « **جورست** » بسياسة جديدة هى المصالحة مع الخديو اذ كان الاستعمار قد أدرك بذكائه المعهود ، أن الخديو يبحث عن مكان له على خريطة السلطة فى مصر ، وانه يتحالف مع القوى الوطنية لهذا السبب وحده ، لذلك سارع « **جورست** » يحقق له بعض ما يريد ليسحبه من التحالف مع هذه القوى ، وقبل الخديو المساومة ، وانتهى زمن وطنيته السعيد ٠

وبسرعة عدلت القوى الوطنية خطتها ، وأيقن الحزب الوطنى أن مهمته الأساسية أن يتحول من تجمع هلامى ينطلق من فكرة ساذجة تتوهم أن كل المصريين أعضاء فيه ، لأنهم جميعا معادون للاستعمار ، الى حزب محدد المعالم له برنامج يقوم على أعضاء محددين ، ويعادى بعض القوى الأخرى ويرفضها ٠ وأصبح برنامجه المحدد هو الجلاء والدستور ٠

وقاد الحزب عملية تعبئة جماهيرية واسعة مطالبا بدستور ، وجمع الحزب خمس وستين ألف توقيع من أعيان البلاد ووجوهها ومثقفيها وطلبتها ، وقدمها الى الخديو ، واجتمعت الجمعية العمومية ـ برلمان ذلك العهد ـ ووقف الخديو خطيبا فمر على طلب الدستور دون أن يقول رأيه فى الموضوع ٠

ولم تسكت الصحف : صدرت جريدة « الدستور » وفى صدرها مقال من نار ، تعترض فيه على موقف الخديو ، وكان مما قالته « ان اغفال الخديو لطلب الدستور واعتباره كأن لم يكن ، هو اغفال لأعظم حادث من حوادث البلاد السياسية التى يهتم بها الملوك والقادة ، وهو الأمر الذى شغل الناس كلهم على اختلاف نزعاتهم ، واغفال نية الحكومة ازاء هذه الميول يعتبر اغفالا لأعظم المطالب الوطنية التى شغلت بال الناس ، فاذا تدبرنا الخطبة مجردة عن هذين المادتين وجدناها لا تخرج عن كل خطبة سابقة » .

فى الطريق تجمع الناس ينتظرون الخديو فى كل موكب يخرج فيه ، ويهتفون :

ـ الدستور يا أفندينا .

تسعيرة للرتب

كثيرون حملوا ألقاب تشريف وهم بلا شرف ، وكثيرون ادعوا لأنفسهم مقامات عليا وهم فى أدنى المراتب خلقا وضميرا وسلوكا .

وكان الخديو « **عباس حلمى الثانى** » هو أول من أبتدع الاتجار فى الرتب والنياشين ، كان رجلا بخيلا ميتا على الدنيا ، لا هم له الا اكتناز الأموال ، وكان أكبر لص فى مصر ، وربما فى العالم كله .

وقد دفعه حب المال الى نهب الأوقاف الخيرية ، والحرص على التنظر عليها ، ثم الى بيع الرتب والنياشين ، وأحدث هذا أزمة بينه وبين **اللورد كرومر** الذى كان بذكاء استعمارى خبيث ومدرب يستغل جشع حاكم مصر للبرهنة على أنها ما زالت فى حاجة الى ارشاد وحكمة بريطانيا العظمى فى ادارة شئونها ، وهو ما كان يدفع الزعيمين « **مصطفى كامل** » و « **محمد فريد** » على التوالى ـ اللذين كانا يحالفان الخديو ويحاولان دفعه الى موقف وطنى ـ الى الثورة عليه ، واسماعه قوارض الكلم ، لأنه بلصوصيته يضر قضية مصر ، ويعطى المحتلين فرصة للتنديد بالادارة الوطنية وللقول بأن مصر لا تصلح لحكم نفسها .

وكانت مسألة الاتجـــار فى الرتب والنياشـين ، حديث كل المجالس والمقاهى ، اذ كانت موضعا لمساومات فى السوق السوداء ، ولها سماسرة

من الصحفيين والشعراء والأعيان ، وكان لكل رتبة أو وسام تسعيرة خاصة ، تتراوح بين الثلاثمائة والألف جنيه ، وكانت هناك عمولة للوسطاء الذين يأتون بشخص يريد الحصول على رتبة « باشا » أو « بك » أو « صاحب عطوفة » أو « سماحة » ، وحدث مرارا أن منحت الرتب لأشخاص ثبت فيما بعد أنهم من المحكوم عليهم فى قضايا تزوير أو اختلاس أو نصب أو احتيال ، مما دعا « كرومر » الى التدخل وتسليط جريدة « المقطـــم » ـ لسان حال الاحتلال ـ للهجوم على الخديو وفضحه وتهديده بسحب امتياز منح الرتب والنياشين منه اذا لم يعمل على سحب الرتب من المزورين والأفاقين ، وفى الوقت نفسه شنت الصحف حملات شعواء على القصر ، وكانت النتيجة أن خشى الخديو مغبة الأمر ، فتراجع ، وعمد الى حيلة يحتفظ بها بموقفه ، بأن أمر جريدة « الوقائع المصرية » بنشر بيان جاء فيه « حصل خطأ فى كشف الرتب والنياشين ، ووقع تحريف فى بعض الأسماء وبعضها أخطاء وقع فيها صفافو الحروف فى المطبعة الأميرية ، ولذلك نعيد نشر الأسماء الصحيحة » وأعادت الوقائع نشر الكشف بعد أن حذفت أسماء النصابين والمزورين ٠

ووصلت السخرية من بخل سموه الى أعضاء أسرته أنفسهم ، فعندما ذهبت اللجنـة التى كانت تجمـع تبرعات انشـاء « مدرسة محمد على » الصناعية بالاسكندرية الى الأمير أحمد كمال ، تطلب منه التبرع للمشروع ، سألها عما دفعه الخديو ، ولما علم أنه دفع عشرة جنيهات ، أخرج من جيبه ثلاثة قروش وقدمها للجنة ، فقيل له :

ـ أتمزح أيها الأمير ؟

فكان جوابه :

ـ لا والله ٠٠ ولن أزيد عن هذا المبلغ مليما ٠ وهـذا كثير اذا قيس باكتتاب الوارث لعرش محمد على بعشرة جنيهات فقط !

عاوزين ناكل عيش

كان المرحوم الشيخ « سيد المرصفى » من أساتذة الأزهر المستنيرين ، الذين أزعجهم ما آل اليه حال هذه المدرسة العلمية العظيمة ، من تأخر وجمود نتيجة لاغلاق باب الاجتهاد ، وسيطرة التخلف والجمود على الفكر الاسلامى ٠

جمع « **الشيخ المرصفى** » حوله عددا من الطلبة المتمردين فى الأزهر ، وأخذ يدرس لهم دروس النحو والبلاغة بأسلوب جديد · كان يصطدم – كما يقول الدكتور **طه حسين** – بغلظة الذوق الأزهرى ، وكلال العقل الرجعى . وكان سلوك الشيخ ونقده لمشايخ الأزهر ، يؤدى الى تحطيم القيود الأزهرية فى نفوس طلابه ، وينتهى بثورتهم على الشيوخ فى علمهم وذوقهم ·

وكان الشيخ يعيش حياة العالم والفنان : يسكن فى منزل بباب البحر ، يمتلىء بالكتب والمراجع ، يستقبل فيه تلامذته ، فيساعدونه فى بحوثه ويشاركونه ندواته ، وسمره وأحاديثه ، وكان « **المرصفى** » من أشد علماء الأزهر فقرا وأضيقهم يدا ·· لدرجة أنه كان يعيش أحيانا أسبوع أو اسبوعين على « خبز الجراية » يأكله بقليل من الملح · ومع هذا كان كثير السخرية من شيخ الأزهر ، يؤكد لتلاميذه أنه – أى الشيخ – لم يخلق للعلم ولا للمشيخة ، وانما خلق ليبيع العسل الأسود فى « سرياقوس » ، وكان الشيخ « المرصفى » ينطق السين ثاء ، فسمى الطلبة شيخ الأزهر « بائع العثل الأثود فى ثرياقوث » ··

وأثار تلاميذ الشيخ المرصفى الأزهر ، بهجائهم للشيوخ الآخرين ، وبجرأتهم العلمية والفكرية ، وبتحفظهم فى اطلاق أحكام الكفر على كل من استخدم عقله ، أو ناقش مسلمات الأولين ، وأخذ عليهم الشيوخ أنهم يقرأون كتاب « الكامل » **للمبرد** ، وهو من المعتزلة ، فضلا عن أنهم بدأوا يجذبون الطلاب الصغار اليهم ويعلمونهم استخدام عقولهم ·

وفوجىء الطلبة الثائرون يوما بشيخ الأزهر يستدعيهم ليهددهم بمحو أسمائهم من الأزهر ، وصرفهم بعنف شديد ، ثم استدعى الشيخ المرصفى ، وأمره بعدم قراءة كتاب « الكامل » ، وكلفه بقراءة كتاب غيره ، ولم يهتم الطلبة الثائرون ·· وتحلقوا كالعادة بشيخهم المستنير ·· وهم واثقون بأن الدرس سيتحول كالعادة الى حلقة للمناقشة الحرة التى لا تحدها قيود ، حتى ولو كان واضعها هو بائع العسل السرياقوسى ·

وهم « طه حسين » – وكان أحد هؤلاء الطلاب الثائرين – أن يتحدث بنفس لهجته القديمة مع شيخه فاذا بالشيخ يسكته فى رفق وهو يقول :

– لا ·· لا ·· عاوزين ناكل عيش ··

وأحدثت الكلمة آثارا شديدة من خيبة الأمل ·· وعلق عليها طه حسين بقوله : انه لم يعرف انه حزن منذ عرف الأزهر ، كما حزن حين سمع هذه الكلمة من أستاذه ·

مقالب الشعراء

كان الشاعر المرحوم « **حفنى ناصف** » من أظرف شخصيات الجيل الأسبق ، ومن أكثرها تدبيرا للمقالب الساخنة ·

وأشهر مقالبه دبرها للمرحوم « **توفيق البكرى** » شيخ السادة البكرية ، وكان الشيخ على علاقة سيئة بالخديو « **عباس حلمى الثانى** » الذى كان يتهمه باستمرار أنه يدس له لدى السلطان العثمانى ، ولدى الصدر الأعظم فى استانبول ، كما اتهمه بأنه هو الذى حرض « **مصطفى لطفى المنفلوطى** » على كتابة قصيدته التى هاجم فيها الخديو وكان مطلعها :

قدوم ولكـن لا أقـول سعيد   وملك وان طال المدى سيبيد

ولما كان « **حفنى ناصف** » من أصدقاء الخديو ، فقد فكر فى تدبير مقلب ساخن لشيخ السادة البكرية ، واعتمد فى ذلك على معرفته بنفسية الشيخ ، الذى كان شديد الثقة بمواهبه الأدبية ، ومعلوماته وشاعريته الفذة · وفى أحد الأيام قال له حفنى ناصف :

ـ هل تبارينى فى الشعر ؟!

وما كاد يتم الكلمة ، حتى قامت قيامة الشيخ ، واستفزه أن أحدا يظن نفسه يستطيع كتابة شعر أفضل من شعره ، وصاح بحفنى ناصف أن يختار أى موضوع يرغب فى المباراة فيه ، وليثق بأنه مهزوم ·

وتظاهر « **حفنى ناصف** » بالتفكير ، وأخذ يستعرض أغراض الشعر ، ويهون من شأنها ، ثم اقترح فى صيغة التضعيف أن يتباريا فى مدح فضيلة اللواط بالفتيان ، وتفضيلها على غيرها من ضروب المتعة الطبيعية ·· هذا الا اذا كان الشيخ لا يعرف الكتابة فيها ·

وصاح الشيخ مستفزا :

ـ كيف ؟

وأبدى استعداده للكتابة على الفور ، وأخرج ورقة وقلما وأخذ يمدح هذه الرذيلة ، ويستطرد ما شاءت له شاعريته ، وعندما انتهى أكد له « حفنى ناصف » أن شاعريته لا تبارى ·· وأخذ ما كتبه معه ·

ووصلت القصيدة الى **الخديو عباس** ، فسر بها سرورا عظيما ، وأخذ يشهر بالشيخ فى كل مكان ، وكان « **البكرى** » معروفا بصلته بدار المندوب السامى ، فتعمد الخديو أن يعرض القصيدة على « **اللورد كرومر** » ومن يومها لم يدع شيخ السادة البكرية لأى حفلة من حفلات اللورد ·

شيخ العروبة

العلامة « احمد زكى باشا » الملقب بشيخ العروبة ، من أعجب الشخصيات فى تاريخ الفكر المصرى ، فقد تعددت اهتماماته وتنوعت ، وتعددت الخدمات التى قدمها للغة والأدب والفكر .

وحتى عام ١٩١٢ لم تكن الكتابة العربية تعرف الرموز التى تحدد للقارىء أو لمن يخطب أو يلقى ، متى يقف عند القراءة ، ومدة الوقفات ، اذ كانت الكتابة منسوخة ومطبوعة تسترسل دون أى علامات ، مما كان يكبد القارىء مشقة عدم الفهم أحيانا ، ويدفعه الى اعادة القراءة ، لكى تستقيم الجمل والعبارات .

وقد اهتم « احمد حشمت » وزير المعارف آنذاك بهذا الأمر ، وطلب من العلامة « احمد زكى باشا » أن يدرسه ، ليتوصل الى طريقة لوضع بعض العلامات التى تفصل أجزاء الكلام بعضها عن الآخر مما يسهل فهمه ، وقد استجاب للطلب ، فعاد للمراجع العربية وقارن بين الوارد فيها والمستخدم فى اللغات الأجنبية ، ثم وضع ما يعرف بعلامات الترقيم المستخدمة فى الكتابة العربية ، مثل : الشولة (،) والشولة المنقوطة (؛) وعلامة الاستفهام (؟) وعلامة التعجب (!) .. الخ .

ومن اهتمامات شيخ العروبة الغريبة أيضا محاولته ادخال الاختزال فى الكتابة العربية ، واختصار حروف الطباعة من ٩٠٠ الى ١٣٢ حرفا . وهو أول من أدخل الى اللغة العربية كلمات « السيارة » بدل (الأوتومبيل) و « الصحافة » بدلا من (الجرائد) و « الدراجة » مقابل (البسكيليت) ، وله رسالة عن « مجالس المعددات والندابات » فى مصر تضم أشعارهن ومراثيهن ، ومن أسف أنها فقدت ، وكان أعجب ما فى حياة شيخ العروبة ، مكتبته الضخمة التى ضمت لدار الكتب وهى المعروفة « بالخزانة الزكية » وتضم ١٨٧٠٠ مجلدا . وقد مات فى يوليو ١٩٣٤ عن ٦٧ عاما .

اخص .. دا ديمقراطى

خلق الصراع السياسى فى مصر مجموعة من الأساليب الغريبة فى معاملة الخصوم السياسيين الى الدرجة التى أصبح معها تشويه سمعة هؤلاء الخصوم هو القاعدة والأساس .

حدث فى عام ١٩١٣ أن رشح المفكر الديمقراطى « **احمد لطفى السيد** » نفسه لعضوية الجمعية التشريعية ، فى احدى دوائر مديرية الدقهلية — وكان أيامها رئيسا لتحرير « الجريدة » ومن أعيان الناحية المعروفين — وهو ما أقلق منافسه « **عثمان سليط** » وجعله يوقن أن الدائرة سوف تطير مائة فى المائة ٠

وكاد « سليط » يتنازل يأسا من الفوز ، لولا أن صديقا له أقنعه بأن هناك وسيلة تقضى على منافسه ، وعلى الفور اختارا مجموعة من أعداد « الجريدة » التى تحمل مقالات « **لطفى السيد** » فى الديمقراطية ، ومساواة الرجل بالمرأة ، وبدأ الاثنان يطوفان بالدائرة ، فاذا ضمهما مجلس ، قال الصديق :

— ان « لطفى بك » كفؤ ونزيه ٠٠ بس يا خسارة !!

فاذا سأله الحاضرون :

— على ايه يا سيدنا البيه ؟

قال : لو ماكنشى ديمقراطى ٠

وينشط أحد أنصار « لطفى السيد » الى دفع الاعتراض ، متسائلا عن عيب « الديمقراطية » ، عندئذ يقول الصديق :

— ألا تدرى ما هى الديمقراطية ؟ انها مصيبة على الدين وعلى العادات ! ألا يطالب لطفى بك بمساواة المرأة بالرجل ؟ طيب أليس من حق الرجل أن يتزوج بأربع نساء ؟ فاذا تساوت المرأة والرجل فى الحقوق ٠٠ الا يكون معنى ذلك أن تصبح للمرأة نفس حقوق الرجل ، فتتزوج هى الأخرى بأربعة رجال ؟ اذا كان هذا يرضيكم يا حضرات الناخبين فانتخبوا صاحب هذا الرأى المخالف لدين الله وأحكام الشرع وعادات المسلمين ٠

وبعد هذا يناول الصديق السامعين أعداد « الجريدة » ليقرأوا ويتأكدوا بأنفسهم من صدق الكلام ، وهو ما كان ينتهى عادة بالقائها على الأرض ، مصحوبة بكلمات « نعوذ بالله ٠٠ ان هذا لكفر صحيح » ٠

وأصبح « **لطفى السيد** » من يومها معروفا باسم « **لطفى الديمقراطى** » ٠ اذا جاءت سيرته تصاعدت على الفور كلمة : لطفى الديمقراطى ٠٠ اخص ٠٠ دا ديمقراطى ٠٠ يدعو لاستباحة الأعراض ، واختلاط الأنساب والخروج على أحكام الشرع الحنيف ٠

ولم تكن المسألة فى حاجة الى مجهود بعد ذلك ، فقد طارت الدائرة ٠

الشـــعب .. والشـــعب

فى أغسطس ١٩١٤ ، نشبت الحرب العالمية الأولى ، وبات واضحا أن الوضع السياسى لمصر على وشك التغير بين لحظة وأخرى . أيامها كان « الحزب الوطنى » يمر بمحنة شديدة ، فقد اضطرت الملاحقـات المستمرة زعيمه « **محمد فريد** » الى الهجرة خارج البلاد ، وجاء الخلاف بين ورثة « **مصطفى كامل** » وبين « **محمد فريد** » لينتهى بخروج جريدة « اللواء » عن الحزب واستقلال أسرة « **مصطفى كامل** » باصدارها ، وأصـدر الحـزب جريدة « العلم » لتكون المنبر الذى يعبر عن آرائه ، ولكن الصدام بينها وبين المعتمد ما لبث أن أغلقها .

وفى عام ١٩١٣ أصدر « **أمين الرافعى** » جريدة « الشعب » لتكـون منبرا جديدا من منابر النضال الوطنى ضد الاحتلال ، واستمرت تصدر حوالى تسعة عشر شهرا . لكن ما أن قامت الحرب حتى تغيرت الأحوال ، فكثرت القوانين المقيدة للحريات وعلى رأسها قانون التجمهر ، وبات متوقعا بين لحظة وأخرى أن تعلن الحماية البريطانية على مصر .

وكان على الصحف المصرية التى تصدر فى العواصم ، أن تنشر قرار الحماية الذى كان منتظرا صدوره ، وشق على « **أمين الرافعى** » ـ محرر « الشعب » اذ ذاك ـ أن يكتب بيده أو أن ينشر فى صدر صحيفته وثيقة الاعدام التى أعدها المحتلون لمصر .

وانتهى تفكير « **أمين الرافعى** » الى قرار بأن استمراره فى اصـدار « الجريدة » الى أن يأتى الوقت الذى يفاجأ فيه بأن عليه أن ينشر قرار اعلان الحماية ، يعنى تلويث مجموعات « الشـعب » التى كانت صـوتا للحركة الوطنية وتعبيرا عن ضميرها ، كما أن الاجراءات التى ستتبع اعلان الحماية ـ أو تصدر مع اعلانها ـ لا يمكن أن تنشر فى جريدة هذه صفاتها ، لما تتضمنه من عدوان على الشعب المصرى . وببساطة قرر « **أمين الرافعى** » أن يغلق جريدته . وفى ٢٧ نوفمبر ١٩١٤ ـ وقبل اعلان الحماية البريطانية على مصر بعشرين يوما ـ احتجبت الشعب عن الصدور ، وظلت مجموعاتها الى اليوم شاهدا على أن الصحافة يمكن أن تسقط دفاعا عما تؤمن به فالكتابة ليست أكلا للعيش ، ولكنها استشهاد فى سبيل الرأى .

كرامــة الوطــن

كثيرون اخذوا على « رشدى باشا » قبوله لاعلان الحماية البريطانية على مصر ، ولعزل الخديوى « عباس حلمى » واستمراره فى منصبه رغم هذه الضربة القاصمة التى أصابت الوطن فى الصميم ٠

وفى معرض دفاعه عن نفسه أكد « رشدى باشا » أكثر من مرة أنه لو رفض الحماية واستقال عند اعلانها ، فان هذا كان سينتهى بضم مصر الى الامبراطورية البريطانية وتحويلها الى احدى مستعمرات التاج البريطانى ، وبرغم هذه المبـررات التى تبدو مقبولة ، فان كثيرين يؤكدون أن واجب « رشدى » كان يفرض عليه أن يستقيل بصرف النظر عن أى شىء ، خاصة أن الحماية لم تكن تختلف فى شىء عن الحاق مصر بالتاج البريطانى ٠

وبرغم أن الخديو عباس الثانى ـ الذى عزل عن العرش ـ قد أقـر ـ فيما بعد ـ صحة تصرف رشدى ، وأرسل له رسالة شفوية يعترف فيها أن رشدى أخلص النصح له ، وانه كان مجنونا عندما لم يصغ الى هذا النصح ، مناشدا رشدى باشا أن يتدخل لدى الانجليز ليحول دون مصادرة أملاكه ، رغم ذلك فان كثيرين لاحظوا ـ بدهشة ـ أن رشدى الذى تقاعس عن الاستقالة بسبب اهدار كرامة الوطن قد هدد بها عندما فكر الانجليز فى مصادرة أملاك الخديوى ، وأتى تهديده بثمرة فعلية اذ عدل الانجليز عن تفكيرهم بعد ٤٨ ساعة من تهديد رشدى بالاستقالة فسحبها الرجل بعد أن حقق هدفه من تقديمها ٠

ليس هذا فقط بل ان « رشدى » كان قد سبق له أن قدم استقالته عندما ظن أن كرامته قد مست ٠ اذ كان يوما مع « محمد سعيد باشا » فى سراى القبة ، وشكا لهما الخديوى من زيارات اللورد كتشنر ـ المندوب السامى البريطانى ـ للاقاليم وما نظم له من استقبالات ، وعرض « رشدى » عليه أن يتجول فى الأقاليم ، على أن يقدم له الوزراء ما لديهم من طلبات الأهالى ٠

ولم يكد « رشدى » ينتهى من كلامه حتى ارتفع صوت الخديوى يقول :

ـ ما هذا النفاق ٠٠ بالأمس وزير يسىء الى ٠٠ واليوم وزير يتظاهر بالاخلاص لى ؟

وكان الخديوى يشير بذلك الى رفض الوزارة قبل فترة تنفيذ رغبته فى تعيين ابن صديق له فى وظيفة عالية بالأوقاف ٠

وفزع « رشدى » من الكلمة ، ونهض من مقعده ، وقصد الى مكتب السر تشريفاتى وحرر استقالته وعاد بها الى الخديوى ، وكان منفردا بنفسه بعد رحيل « سعيد باشا » فما كاد يقرأ الاستقالة حتى مزقها ٠٠ وقال لرشدى :

ـ كيف تصورت انك المقصود بالكلمة ٠٠ انما قصدت بها محمد سعيد باشا ٠٠ فاذهب الى عملك وكن واثقا أنى مرتاح كل الارتياح ٠

وهكذا غضب رشدى باشا لكرامته ولكنه لم يغضب لكرامة الوطن ٠

منطق !!

وكالة البلح

كانت وكالة البلح ـ وما زالت ـ أكبر سوق للمخلفات والسلع المستعملة والقديمة ، ورمزا لعالم يثرى فيه المغامرون بالصدفة والحظ أحيانا وبالنصب والتهريج غالبا ، لهذا يطلق المصريون اسمها أحيانا على كل الذين يرتفعون بلا سبب ، الا بضربات الحظ وخبطات الزمن ٠

فى عام ١٥٨٢ كانت ربعا ـ أى بيتا كبيرا ـ لأحد أعيان القاهرة يقع بالقرب من شاطىء النيل بجزيرة بولاق ، وشب حريق هائل اجتاح كل ما حول الربع من قصور وبيوت ، وبقى وحده ، تحيط به الخرائب ، ثم انقلب الربع مع السنوات سوقا لبيع القطن ، وأطلق عليه اسم « ربع القطن » الى أن رحل عنه تجار القطن الى الاسكندرية ، بعد أن أصبح البحر وسيلتهم لتصدير أقطانهم وليس النهر ، وحل محلهم تجار أفقر حالا ، هم تجار البلح ، وباتساع تجارتهم أطلق على هذه السوق الكبيرة كلها اسم « وكالة البلح » ، وكان اسم « الوكالة » يطلق على الأسواق المتخصصة فى نوع معين من السلع ، كوكالة الصابون ٠

وفى الحرب العالمية الأولى هجر تجار الوكالة التجارة فى البلح واشتغلوا بتوريد ما يلزم السلطات البريطانية من عدد ومواد أولية ، وتجمعت فيها مخلفات الجيوش المتحاربة من ملابس وأدوات وقطع غيار ٠

وعندما انتهت الحرب الأولى ، اشترى التجار مخلفات الجيش البريطانى وأودعوها مخازنهم بوكالة البلح ، ومن يومها انقلبت الوكالة سوقا للخردة والمخلفات ٠ واتسع نطاق العمران حولها وتعددت المتاجر وبزغ نجم تجارها خلال الحرب العالمية الثانية ،وأصبح بينهم أصحاب ملايين لا يعرفون كيف يعدونها ، لأنهم لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ولا حتى الحساب ٠

وفى تلك الحرب الغريبة تناقل تجار الوكالة حكايات كالأساطير ، عن تاجر زجاج متجول تعاقد قبل الحرب مع احدى شركات الأدوية على توريد ١٠ آلاف زجاجة فارغة بسعر مليمين ليكسب عشرة جنيهات فى الصفقة كلها ، وقامت الحرب وارتفع سعر الزجاجة الى أربعة قروش ، ومن ربحه فى الصفقة دخل تجارة اطارات السيارات وكسب منها ملايين من الجنيهات . وتناقل الناس أيضا انباء عن تجار الروبابيكيا - وهى كلمة ايطالية تعنى المخلفات - الذين أصبحوا من أصحاب الملايين ، وعن تاجر اشترى مخلفات معسكر بريطانى بمنطقة الشط - على الشاطىء الآخر من القناة - بمائة ألف جنيه فوجد فيهـا ثلاثة مخـازن كبيرة ملأى باطارات السيارات ، فباعها بمائة وخمسين ألفا .

أيامها كان الناس فى مصر يعانون من الجوع الذى نتج من امتـلاء أرضها بالجيوش الأجنبية التى كانت تلتهم الطعام وحتى الشرف والعرض ، لكن تجار وكالة البلح لم يكن يهمهم ما يعانيه الناس ، ولكن ما يربحونه من الحرب ، لذلك كانوا يدعون دائما أن تمتد الحرب الى ألف عام ، وأن تبقى الجيوش الأجنبية فى أرضها الى الأبد ، طالما يربحون ، ويتحولون من تجار متجولين الى أصحاب ملايين !

لكن أحدا لا يستطيع أن يفرض على التاريخ أن يسير كما يهوى ، فانتهت الحرب ، وعادت وكالة البلح الى حجمها الطبيعى ، تصنع أغنياء لا أصحاب ملايين !

الاسـلام والحيـاة

ظلت علاقة الرجل بالمرأة لسنوات طويلة مثارا للخلاف فى الرأى ، بين الذين يريدون للاسلام أن يظل - كما هو - جوهرا نقيا مستنيرا ، لا يمكن أن يؤدى تطبيقه الى تعاسة الفرد أو الى ضياع للحقوق ، وبين الذين يسيئون اليه بالحمـاس للنص دون فهم الجوهر ، ولا ينتبهون أنهم بما يفعلون قد يرسون أوضاعا تسبب تعاسة للانسان ، لا يمكن أن يقصدها الاسلام . ولا أن تكون من جوهره .

وحتى الحرب العالمية الأولى كان الزواج فى مصر فوضى ، اذ لم يكن يتم تسجيله فى سجلات منتظمة ، ولم يكن يخضع لأى قيود : وقتها كان الزواج يتم بمجرد شهادة شاهدين أمام المأذون ، ولم تكن هناك شروط لسن الزواج ٠ وهو ما انتهى بفوضى عارمة ، أصبح معها بعض الآباء يزوجون أبناءهم وهم أطفال فى التاسعة أو ما حولها ، ولم يكن وراء هذا أى رغبة حقيقية فى بناء أسرة سليمة ، ولكن كان وراءها مصالح دنيوية قصيرة النظر ، فقد كان بعض أثرياء الريف يلجأون الى عقد صفقات تضمن انتقال الارث منهم الى أعقابهم ، ويحرصون على ارتباط هؤلاء الأعقاب بأسر تتكامل معهما اقتصاديا ، وأن يتم هذا فى حياتهم ، وهو ما كان ينتهى بتزوج أطفال يلعبون « الحجلة » فى حفلات عظيمة للترفيه ٠

وثار رجال الدين المستنيرون ، وثار الأطباء وقالوا ان فى ذلك خطرا شديدا على الأطفال الذين يتزوجون دون أن ينموا من الناحية الفسيولوجية ، وان العيث الجنسى فى هذه السن خطر على صحتهم وعلى نفسيتهم ، وانتهت تلك الثورة ، بصدور قانون يجعل الحد الأدنى لسن زواج البنت ستة عشر عاما والفتى ثمانية عشر عاما ٠

وثار المتزمتون من رجال الدين وانتشرت الاتهامات بالخروج عن الشريعة والالحاد فى الدين ٠

ورد المستنيرون والأطباء ، فقالوا ان عدم تحديد سن الزواج يسبب تعاسة وخطرا على الصحة الجسمية والنفسية ، وأن الاسلام لا يمكن أن يكون سببا فى تعاسة للذين يؤمنون به ٠

واستطاع المتزمتون أن يجذبوا اليهم بعض جماهير الشعب ، باثارة مخاوفهم على الاسلام ٠٠ وأيامها انتشر موال يعكس السخرية من القانون يقول :

البنـــت قمـــــر ١٤

والســـن لســـة ١٣

والصـدر ماشاء الله راخر

مايفوتش من بيت القاضى

أبوها راضى وأنـا راضى

ومالك انت بقى يا قاضى

ومضت سنوات طويلة قبل أن يكتشف الناس أن القاضى كان يحافظ على ابنائهم وعلى الاسلام ، وأن المتزمتين لم يفهموا الاسلام ولا الحياة ٠

عبـاس جـاى

عاش الخديو عباس حلمى (الثانى) فى وجدان الشعب المصرى طويلا ٠ شاء حظه أن تنشب الحرب العالمية الأولى وهو فى تركيا التى كانت متحالفة وقتها مع الألمان ضد انجلترا ، وبسبب ميوله للاتراك والألمان ، عزله الانجليز وأعلنوا الحماية البريطانية على مصر ٠

من استانبول الى عواصم أوربا المحايدة ، الى برلين ، ظل « **عباس حلمى الثانى** » طوال سنوات الحرب يتنقل ، يتابع أنباء الحرب ويأمل أن تنتهى بانتصار الألمان والأتراك فيعود الى مصر ٠

قبل هذا التاريخ بعامين كان الزعيم « **محمد فريد** » قد ترك مصر هو الآخر مهاجرا الى استانبول ، كان عملاء الاحتلال البريطانى يتآمرون عليه ويخططون لوضعه فى السجن ، ورغم أن الخديو كان قد خانه هو الآخر بين من خانوه ، فانه عندما التقى به مطرودا ومخلوعا وبلا عرش ، تحالف معه وعاد الاثنان يخططان لحملة عسكرية على مصر يقوم بها الجيش العثمانى ، تحررها من الاحتلال وتعيد كل شىء كما كان ٠

من بعيد : كان المصريون يتابعون أنبـاء الخديو والزعيم ، وتتسلل اليهم ـ رغم قسوة الرقابة البريطانية على الصحف ـ أخبار الحملة العثمانية على مصر ، فيرتجفون فرحا لأن يوم الخلاص قد قرب ، ولا يفقد المصريون الأمل ، ويصبح اسم الخديو المبعد رمزا لحرية مصر واستقلالها ٠ فى الشوارع يغنى الأطفال أغنية تقول « الله حى عباس جاى » ، وتمر أمامهم قوات جيش الاحتلال ، فيصرخون فى وجوههم بمطلع الأغنية ويجرون ، ويندهش الجنود الذين لم يفهموا من الموضوع شيئا ، ويتشجع الأطفال فيسيرون مسافة أطول ، ثم يكتشف المحتلون اللعبة ، فيطاردون الأطفال ٠ وفجأة أصبح اسم عباس شبحا ، يحرص بعض الآباء على تسمية أبنائهم به ، كنوع من التحدى لكل شىء ٠

وتفشل الحملة العثمانية ٠٠ وتخبو الآمال ٠٠ ويختفى عباس فى زحام الحياة ، ويموت « محمد فريد » وحيدا منفيا ، ولا يعود أحد يهتف « الله حى ، عباس جاى » ، لكن مصر كانت تنتفض من أقصاها الى أقصاها ٠٠ ذلك أن الشعب نفسه هو الذى جاء ٠٠

قامت ثورة ١٩١٩ ! ٠٠

الشوارع والبطولة

ليست الجدران أحجارا صماء ، لكنها تاريخ وذكريات ومودات ونشوات وأحزان ..

لكل شارع تاريخ ولكل حارة قصة ، لو رفعت أسفلت طريق ، فربما وجدت قصة شهيد أو أثر موكب من مواكب الثورات .. أو ملحمة من ملاحم البطولة .

لكن الشوارع تتغير كما تتغير الأشياء والأفكار .

ولأن الزمن وغد ، فما أكثر ما تدوس الأقدام على البطولة وما أكثر ما تزدرى الاستشهاد ..

كثير من شوارع القاهرة أنشئت لأول مرة فى عهد الخديو اسماعيل ، الذى كان أول من بدأ عملية تحويل القاهرة الى عاصمة كبرى تناظر شوارع أوربا فى اتساعها وتنسيقها .. ومنها شارع عبد العزيز الذى أنشىء بمناسبة زيارة السلطان العثمانى عبد العزيز لمصر منذ حوالى مائة عام .. وبعضها أنشىء فى أوائل القرن .. لم يزد عمره عن نصف قرن الا قليلا .. ومنها شارع سليمان باشا ـ طلعت حرب الآن ـ الذى كان شارعا مظلما وكئيبا الى عام ١٩٠٥ ، ليس به محل تجارى واحد ، اذ كان مجموعة من الفيلات يملكها أغنياء اليهود والجاليات الأجنبية ، ليس بينهم مصرى واحد ، وكان السكون يخيم على الشارع من المغرب ، حتى انه كان لسكونه وظلامه مسرحا « لأصحاب المزاج » المغرمين من الجنسين ولولا أرصفته الاسفلت المعوجة لامتد نشاطهم فيه الى ما يجاوز اللقاء .

بعد ذلك التاريخ بسنوات قليلة كان شارع سليمان ، واحدا من شوارع مصر التى تفجرت بالثورة اللاهبة فى سنة ١٩١٩ ، فشهد مظاهرات لا حد لكثافتها ، وسقط فيه شهداء ، ومات على أرصفته شبان فى عمر الزهور ، ويوما جلس على « مقهى ريش » فى عام ١٩٢٠ شاب من طلبة كلية الطب ـ وكان للمقهى شرفة عريضة تمتد الى مشارف الميدان نفسه ـ ينتظر وزير الأشغال المصرى « محمد شفيق باشا » الذى كان يحاول التصرف فى مياه النيل بالسودان لحساب الاستعمار البريطانى ، لقتله .. والقى بالفعل عليه قنبلة لكنها طاشت ولم تصبه . ومن شارع سليمان الى الليمان ذهب الشاب الصعيدى عبد القادر شحاتة .

فمن ذا يذكر البطولة اليوم ممن يمرون فى شارع سليمان .

النصيحة التى لم تسمع

فى عام ١٩١٦ عزل مدير البحيرة « محمد محمود باشا » من منصبه بسبب البشاعات التى حدثت أثناء توليه لعمله .

أيامها كانت الحرب العالمية الأولى فى قمتها ، وكانت الحكومة قد كلفت العمد بوضع كشوف بأسماء المراقبين والمشتبه فى أمرهم ، وحتمت على هؤلاء أن يبيتوا فى دوار العمدة لاتقاء أخطارهم ودفع شرهم عن الأهالى .. وكما هى العادة فان المديريات والمراكز لم تدقق فيما يدرجه العمد من الأسماء فى كشوف المشبوهين ، وبسبب هذا انتهز العمد الفرصة ، وأدرجوا أسماء خصومهم الشخصيين والسياسيين ومن يريدون تسخيرهم للعمل فى اقطاعياتهم فى هذه الكشوف ، ومارس كبار ملاك الأرض « ديموقطاعية » من نوع فريد .

ومن أشكال « الديموقطاعية » التى انتشرت هذا الوقت ما عرف بالتغريب ، وهو نفى الرجل الى أبعد مركز عن وطنه الأصلى فى المديرية ، وكان التغريب يتم بطريقة بالغة الاذلال ، اذ كان المغرب يعرض على كل مراكز الشرطة التى يمر بها بحجة أنه ربما يكون متهما فى حادثة من الحوادث التى لا يزال الفاعل فيها مجهولا ، وكانوا يقودون الناس لهذا الغرض مكبلين بالحديد .

كثير من هذه البشاعات حدث فى مديرية البحيرة التى كان مديرها وقتها هو محمد محمود باشا . فقد تفنن رجال الادارة فى القبض على الفلاحين بتهمة الاشتباه ، وتغريبهم ، واضافة الى هذا ضرب رجال البوليس الفلاحين وجوعوهم وجلدوهم وربطوهم بحبل يمسكه فارس من رجال الشرطة يكرههم على العدو مسافات بعيدة ليلحقوا بجواده من ايتاى البارود الى دمنهور الى بلاد أخرى . وظهرت آثار الضرب على أرجل نحو أربعين رجلا من المتهمين ومات أحدهم من شدة الضرب .

وهكذا انغمس الاقطاعيون فى ممارسة ديمقراطيتهم الفريدة ، وضج الناس بالشكوى ، وبدأوا يرفعون شكاواهم الى السلطان حسين كامل حاكم مصر وقتها ، فأمر باحالة محمد محمود باشا الى المعاش وتقديم حكمدار البحيرة ومأمور ايتاى البارود وبعض ضباط الشرطة الى المحاكمة . كانت قضية ساخنة انتهت بسجن الحكمدار سنتين مع الشغل .. ومأمور المركز عدة شهور ، وحبس بعض ضباط الشرطة لمدة سنة مع الاحتفاظ بالحق المدنى لأهل أحد الذين ماتوا تحت التعذيب ، وصدر قرار بفصل وكيل نيابة المركز المذكور لأنه شاهد تعذيب المتهمين وسكت عنه ..

وعندما عين « باشا » جديد مديرا للبحيرة ، نشر الشاعر احمد محرم قصيدة تضمنت نصحا له كان مما قاله فيها :

ان البلاد لها حقوق جمة ، لا مفر لك منها ولا لك مهرب

الحكم أيام تمر حثيثة ، الذكر ينشر والمؤرخ يكتب

فاذكر سبيلك ان تصرم عهده ، وجرى لغايته الزمان القلب

ولم يسمع الباشا النصيحة . اذ عاد محمد محمود ليصبح رئيسا للوزراء وليحكم باليد الحديدية .

لماذا عزل

نشرت الهوامش واقعة عن الأسباب التى أدت الى عزل محمد محمود باشا من عمله كمدير لمديرية البحيرة فى عام ١٩١٦ بسبب اتهامه بتعذيب الفلاحين فى المديرية ..

فى حوار مع كاتب له تقديره واحترامه ــ طلب عدم ذكر اسمه (١) ــ روى واقعة لا شك فى صحتها ووضعها فى تحليل على النحو التالى :

« انه من الناحية المنطقية لا يجوز تصور أن حكام مصر ــ وكانت وقتها مستعمرة انجليزية ــ كان يعنيهم فى شىء اضطهاد الفلاحين أو عدم اضطهادهم ، وان السلطان حسين كامل الذى أصدر قرار عزل محمد محمود كان حاكما صوريا ولعبة فى أيدى الاحتلال ، وان عمليات تعذيب الفلاحين كانت تتم بسبب التعليمات التى صدرت من سلطة الاحتلال لجمع العمال والمؤن والدواب لخدمة الجيش الانجليزى . ومن هنا فلابد أن نبحث فى قضية عزل محمد محمود فى ضوء هذا الظرف السياسى العام ..

« وانطلاقا من هذا يروى الكاتب الكبير واقعة يذكرها جيدا بحكم انه كان من أبناء المديرية وكان على صلة وثيقة بالقاضى (٢) الذى تولى تحقيق

(١) هو الأستاذ توفيق الحكيم .

(٢) ذكر لى الأستاذ الحكيم أن والده هو الذى حقق هذه القضية .

القضية فى مراحلها الأولى ، تتلخص فى أن محمد محمود ــ الذى كان شديد الاعتزاز بكرامتــه ــ كان يرفض استقبال مفتش الداخلية الانجليزى على أرصفة محطة دمنهور عاصمة مديريته ، وان موقفه ذلك من الاحتلال كان محل تقدير اهالى البحيرة ، كما كان محل سخط دوائر الاحتلال ٠٠

« ان القضية قد دبرت ولفقت لسبب سياسى هو وطنية محمد محمود وتمسكه بكرامته أمام ممثلى الاحتلال ، وعندما عرضت القضية أمام القضاء لاحظ القاضى ــ وهو وثيق الصلة بالكاتب الكبير ــ أن الأدلة ملفقة وأن الذين زعموا أن هناك تعذيبا وقع عليهم ٠٠ لا توجد فى أجسادهم آثار التعذيب ، كما كان واعيا بأن هناك مبررات سياسية لتلفيقها ولذلك لم يطاوعه ضميره على الحكم فيها ، فعرضت على قاض آخر حكم فيها بما حكم ضد الحكمدار » ٠

ومن الواضح أن الواقعة التى يذكرها الكاتب الكبير لا يتضمنها أى مصدر من المصادر التى اعتمد عليها صاحب الهوامش ، وهى تضيف رؤية شاهد عيان لا تتوفر له ، والمصادر التى اعتمدنا عليها هى الصحف المعاصرة للحادث وبعض الذكريات الشخصية لمن عاصروا تلك الفترة أو كتبوا عنها ٠ والتصحيح الذى ذكره الكاتب الكبير ينصف موقف محمد محمود فى هذه الفترة ٠

لكنه فى تقديرنا لا ينسحب على كل تاريخه ، فقد ساهم فى انقلابات دستورية عديدة ، معطلا بذلك الشعار الديمقراطى التقليدى من أن الأمة مصدر السلطات ، كما انه كان ينتمى لفئات اجتماعية قد تكون أدت بعض الدور فى قضية مصر الوطنية ، لكنها تنكرت لذلك فيما بعد ، كما انها بالقطــع قد أفلســت تماما ولم تعــد قــادرة على لعب أى دور الآن ٠٠ ومن الناحية السياسية قد كان محمد محمود يمثل « جيروند » البرجوازية المصرية ، دعاة التساهل والمناورة مع الاستعمار والحصول على أى مكاسب ممكنة ، وهو موقف فى تقديرنا كان خاطئا من وجهة نظر المصالح البعيدة للشعب المصرى ، وقد نقد محمد محمود بعض ممارساته السياسية فيما بعد نفس النقد الذى نوجهه اليه ، كما أن ما ذكره الكاتب الكبير لا ينفى أن الاقطاعيين قد ارتكبوا فى حق الفلاحين من البشاعات ما لا تطيق أذن سماعه ، وبعض هؤلاء ما زال معاصرا ، ويستطيع أن يروى ٠

عـدم تربيـة

ما زالت واقعة عزل محمد محمود زعيم الأحرار الدستوريين عن عمله كمدير للبحيرة عام ١٩١٦ تثير نقاشا حولها ، وكان قد سبق لنا أن نشرنا رأيا لكاتب كبير ـ طلب عدم نشر اسمه ـ حول مبررات هذا الاجراء ، وقد ظن بعض أصدقاء الهوامش أن المقصود بذلك هو الأستاذ حافظ محمود ، وهو ظن خاطىء ، خاصة أن الأستاذ حافظ له إضافات أخرى تناقض ما ذهب اليه الكاتب الكبير ٠

ومن المعروف أن الأستاذ حافظ محمود قد ارتبط بالأحرار الدستوريين خلال فترة طويلة من عمره ، اذ كان رئيسا لتحرير مجلتهم السياسية فى أواخر عمرها ، وهو يقول انه كان خلال عام ١٩٢٨ فى صفوف المعارضين لسياسة الأحرار الدستوريين وحكومة اليد الحديدية ، ولكنه يضيف معلومات جديدة حول مبررات عزل محمد محمود عام ١٩١٦ وحول الفترة المبكرة من حياة محمد محمود ، فهو يذكر أولا انه نقل من عمله كمدير للفيوم لأنه طبق القانون على أحد موظفى الخاصة الملكية، وحدث أن ذهب الخديو عباس فى زيارة الى الفيوم بعد ذلك ، وتعمد أن يقول لمحمد محمود معلقا على تصرفه مع موظف الخاصة ، ملقيا المسئولية على أحد الضباط التابعين للمدير لكى تكون الاهانة غير مباشرة :

ـ انت عندك ضباط لم يتربوا بما فيه الكفاية !؟

وبسبب اعتزاز محمد محمود المبالغ فيه بكرامته ، فقد وضع ذراعه فى خصره وقال بعنجهية :

ـ بالعكس يا مولاى ٠٠ موظفى خاصتك هم الذين لم يتربوا بما فيه الكفاية ٠٠

وكانت هذه الكلمة القاسية سببا فى نقل محمد محمود من عمله الى البحيرة التى كانت فى ذلك الوقت مجرد أرض غير مستصلحة بشكل كامل ٠٠ لكن الخديو عباس بعد ذلك رضى عن محمد محمود بسبب مقاومته للانجليز فى مديرية البحيرة ، اذ كان المرحوم عبد اللطيف الصوفانى ـ أحد أقطاب الحزب الوطنى ـ من أهالى البحيرة ، وحدث أن أراد الانجليز تفتيش منزله ، بعد أن وصلتهم معلومات بأن لديه أسلحة مخبأة فى منزله ، ولم يعارض محمد محمود الأمر لكنه نفذه ، ورفع تقريرا بأنه لم يجد أى ممنوعات فى منزل الصوفانى فى وقت كان الانجليز معه متأكدون من وجود الأسلحة عنده ، الأمر الذى أكد لهم تواطؤ المدير مع الصوفانى ، فغضبوا منه ٠

ويقول الأستاذ حافظ محمود : ان موقف محمد محمود هذا هو سبب رضى الخديوى عنه مرة أخرى ، وتسبب منحه الباشوية · وهذه الحادثة كما سبق أن ذكرنا لا تغير من تقييمنا النهائى لموقف محمد محمود السياسى والطبقى ، وما نأمل أن يتفق فيه معنا الجميع أن بعض المواقف المحدودة لكبار ملاك الأرض ضد الاحتلال لا تعنى أن ذلك هو كل تاريخهم ، كما انها بالقطع لا تعنى صلاحيتهم لأداء أى دور الآن ·

شــر البقــر

فى الفترة التى أعقبت الاحتلال البريطانى لمصر ، تعددت الفرق المسرحية ، لكن معظمها كان مجالا للنصب والاحتيال · اذ انتهز مجموعة من النصابين والأفاقين الفرصة ليصبحوا أصحاب فرق مسرحية ، وممثلين ومؤلفين أيضا ··

وكانت الحركة المسرحية تتخذ شكل جمعيات يؤسسها هواة التمثيل ، تحولت مع الزمن الى فرق بعضها كبير ، يعرض فنه فى القاهرة ، وبعضها يتحرك فى الأقاليم والأحياء الشعبية ·· وكانت جميعها تعتمد على المسرحيات المترجمة ، وكان المترجم يتقاضى جنيهين عن كل نص ·

وبرواج المسرحيات توافد المحتالون والأفاقون ·· كان منهم المعلم ميخائيل جرجس ، الذى كان يملك حانة مشهورة ببولاق فيها تخت ، وعرض عليه أخوه أن يؤلف فرقة تمثيلية ، ورغم أن المعلم لم يكن يعرف شيئا فى الدنيا الا خمارته ، فان فكرة الكسب زينت له الشروع فى هذا العمل ، فأقدم عليه وأنشأ ــ بادارة أخيه ــ فرقة ، وأقام دارا خشبية سماها مسرح المعلم جرجس ، ولأن مطرب تخت الآلاتية كان يعرف القراءة ، فقد قرر المعلم أن يجعل منه ممثلا ومطربا ·· وهكذا تم اعداد كل شىء ولم تبق الا الرواية ، وسرعان ما حلت المشكلة حلا بسيطا ، فانتزع مدير الفرقة ثلاثة فصول من ثلاث روايات مختلفة سبق تقديمها وصنع منها مسرحية واحدة ، كما يصنع الكوكتيل من بقايا الكئوس · وأعلن أن أجر الدخول ثلاثة قروش للدرجة الأولى ، وزادت أرباح المعلم جرجس ، وتجولت فرقته فى أنحاء القطر ، ولم يمض زمن طويل حتى انتزع من أشهر الفرق آنذاك ممثليها ، ومنها فرقة

القرادحى مؤكدا بذلك أن العملة الرديئة تطرد العملة الطيبة من السوق ، وانه لا يبقى على المداود غير شر البقر ٠

ولأن التمثيل كان قد أصبح نصبا فقط ، حط على مصر يوما « الخواجا كورتى » وفى جعبته مشروع جليل هو تمثيل مسرحية باسم « المحمل الشريف » ورغم أن كورتى – بحكم اسمه على الأقل – لم يكن مسلما ، ولا يهمه المحمل الشريف فى شىء ، الا انه كان مغامرا يهمه أن يكسب ، وأن ينتزع النقود ، وقد لاحظ أن السياح الذين يفدون الى مصر فى الشتاء لا يمكنهم مشاهدة موكب المحمل الذى كان موعده الصيف ، واتفق كورتى مع فرقة مسرحية من الهواة على تقديم مشروعه ، وتقدم للحكومة المصرية التى وافقت على تقديم المسرحية على خشبة دار الأوبرا عشرين ليلة ، نصفها بالايطالية والنصف بالعربية ، وقدمت له التياترو لاجراء البروفات عليه ، وبدأ ينفق على المشروع من الميزانية التى رصدها له وكانت تصل الى ١٥ ألفا من الجنيهات ٠

وألف « **كورتى** » الرواية وترجمها « **الشيخ محمد نصرت** » بعربية مسجوعة ، وصرف الرجل أغلب ماله على الديكور وأعلن عنها فى جميع أنحاء العالم ، ولأول مرة دخلت الاعلانات على الجدران الى مصر كأسلوب جديد للدعاية ٠ ورغبة منه فى أن تكون مسرحيته واقعية جدا ، فقد رأى أن يستعين بمشايخ الطرق ليظهروا بأنفسهم على المسرح بدلا من الكومبارس ، وبينما هو يحاول الحصول على اذن بذلك كشف نفسه ، وبدأ العلماء يبحثون فى الموضوع : وانتهى بحثهم باصدار فتوى بتحريم الرواية ، وفشلت مغامرة كورتى ٠٠ وطار واحد من النصابين ٠٠ لكن المداود لم تخل أبدا من شر البقر ٠

نهاية كل تقارير

بدأت حياة « جورج فيليبدس » بصدفة وانتهت بمأساة ٠٠

٠٠ أما الصدفة ، فقد بدأت عندما اغتيل رئيس الوزراء المصرى « **بطرس غالى** » فى عام ١٩١٠ ، فقد تنبهت الحكومة الى أهمية وجود جهاز للأمن متخصص فى الجرائم السياسية ، وهكذا أنشىء « المكتب السياسى » ، ووضع

على رأسه « جورج فيليبدس » الذى كان ضابطا يونانيا من ضباط البوليس المصرى ·

وبقى هذا المكتب يعمل سنتين متواليتين دون أثر فعلى أو نتيجة ظاهرة . ولم يرض هذا رجلا واسع الأطماع والآمال كفيليبدس ، وخشى أن تلغى الحكومة المكتب فينضب هذا المعين الذى يفيض عليه بالرزق بغير حساب ، ومنذ تلك اللحظة دخل « فيليبدس » فى لعبة تدبير المؤامرات الوهمية وتلفيق التهم للناس ·

وكانت قمة نجاحه ، تلفيقه مؤامرة شبرا ، التى قبض فيها على ثلاثة من الشبان من أعضاء الحزب الوطنى اتهمهم بتدبير محاولة لاغتيال الخديو عباس واللورد كتشنر ومحمد سعيد باشا رئيس الوزراء ·

وبنشوب الحرب العالمية الأولى طرأت على البلاد ظروف من جراء حالة الحرب · فأصبح لفيليبدس رأى مسموع فى مختلف المسائل السياسية ، ومن ثم اتسع نطاق سلطته ، فشملت الاعتقال والنفى والبحث عن رعايا حكومات الأعداء ·

فيما بعد ثبت أن فيليبدس كان يستخدم ظروف القاء القبض أو النفى أو الافراج أو التستر ، للحصول على موارد جديدة يتدفق منهاالمال عليه ، فى أيام كان مسيطرا فيها على رقاب الناس وعلى أعراضهم وحرياتهم ·

وفى عام ١٩١٧ وقع « فيليبدس » فى المحظور ، وضبط متلبسا بالرشوة ، وانتهى امبراطور الرعب السياسى الى نهايته المحتمية ، ودخل السجن مع كثيرين ممن القاهم ظلما وعدوانا فى السجن دون مبرر من قانون أو أخلاق ·

وكان غريبا أن يلتقى « فيليبدس » فى السجن بواحد من ضحاياه هو « محمود طاهر العربى » الذى كان قد حكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما فى مؤامرة شبرا ، وفجأة أصبح الجلاد والضحية فى زنزانة واحدة ، وقرر « طاهر العربى » أن ينتهز الفرصة ليحصل من « فيليبدس » على اعتراف بتلفيق القضية ·

·· وجاء يوم عاد فيليبدس بعد أن زارته أسرته فى السجن ، وكان يحمل فى يده زجاجة صغيرة من الشمبانيا ، وشربها ، وعندما ثمل ، أخذ « العربى » يحدثه عن القضية ، ويثير فيه الرغبة فى الاعتراف بدوره فى تدبيرها ، ونجح بالفعل فى الحصول على اعتراف مكتوب منه بذلك ، وأرسله الى جريدة الأهرام فأثار ضجة كبيرة ·· وهكذا ينتهى كتاب التقارير ·· بكتابة التقارير ·· حتى عن أنفسهم !

يا عزيز عينى

حارب المصريون كثيرا لحساب غيرهم .. استغلهم الاستعماريون ودفعوا بهم للقتال فى حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل : يموتون فى الصقيع وفى الثلوج ، دون أن يذكر الاستعماريون شيئا عن السلام أو يتغنوا به ، وما أن بدأ المصريون يحاربون من أجل وطنهم المصرى ، وأوطانهم العربية ، حتى بدأ الأوربيون — فجأة — يتغنون بالسلام ويتباكون عليه !

فى الحرب العالمية الأولى انتهى العسكريون البريطانيون الى نظرية طريفة تقول بوجوب توفير الجندى البريطانى لحمل السلاح والقتال ، وذلك باعفائه تماما من كل الواجبات غير القتالية ، واسنادها الى قوة عاملة من المصريين ، تتشكل فى صورة فيالق اضافية تعمل فى خدمة القوات البريطانية باستمرار .. فتعبد الطرق ، وتمد خطوط السكك الحديدية ، وتحفر الآبار والخنادق وتقيم الاستحكامات وتمد انابيب المياه تحت الرمال .. الخ .

وفى أغسطس ١٩١٥ بدأ تشكيل فيلق مصرى باسم « فيلق النقل بالجمال » ليقوم بمهمات النقل ، ثم شكل بعدها فيلق العمال لينفذ الأعمال المدنية والأشغال الأخرى ، واقتصرت مهمات الفيلق الأول على مساعدة الحملة البريطانية فى مصر التى كانت تحارب ضد الجيوش التركية فى فلسطين وشبه جزيرة سيناء ، أما الثانى فقد اتسعت دائرة استخدامه لتشمل كافة الجهات ، فسافر الى جزر موروشس والى العراق والى فرنسا .

وتدريجيا تحولت عملية تشكيل هذه الفيالق ، الى عملية سرقة وسخرة وخطف ، وما أن جاء صيف عام ١٩١٧ ، حتى بدأت أبشع عملية لحشد العمال والفلاحين قسرا للعمل فى السلطة ، ففى كل مركز من المراكز عين ضابط بريطانى ليعاون مأمور المركز فى جمع الأنفار المطلوبين من أبناء الفلاحين فى قرى المركز ، وبين صراخ الأطفال وولولة النساء ، يحشد الرجال فى مضيفة العمدة الى أن يساقوا فى الصباح وهم موثوقون بالحبال ، الى المركز ، حيث يتسلمهم الضابط البريطانى ليشحنهم بالسكة الحديد الى معسكر التوزيع فى الاسماعيلية .. وهناك تنقطع أخبارهم تماما .

فى تلك السنوات ، عانى المصريون رعبا هائلا ، ولجأ بعض عمد القرى الى الايقاع بخصومهم وارسال أبنائهم الى حيث لا يعودون ، وانتشرت الرشوة ، يحاول بها الأثرياء انقاذ أبنائهم من ذلك المصير المحزن ، وهاجر كثيرون من المستورين فى الريف ليختفوا فى زحام المدن ، بعيدا عن أعين السلطة . وحدث يوما أن ترددت اشاعة خبيثة وسط عمليات خطف الرجال ، تقول ان السلطة قررت حشد جميع البنات والنساء غير المتزوجات ،

فكان لهذه الاشاعة أثر النار فى الهشيم ، اذ قام كبار الأسر بحملة لتزويج كل البنات ، ووجدت أزمة الزواج حلا مؤقتا لها .

وفى مصر كانت الأفواه مكممة ، والأحرار مشتتون ، لذلك لم يرتفع صوت بالاحتجاج ، وفيما بعد كتب « **بيرم التونسى** » زجله المشهور « صعيدى فى باريس » ، وأشار الى بعض رجال فيلق العمال الذين ذهبوا الى هناك :

أبكى عليك يا معوض .. مسكين والله مسكين
وحديك .. وحبايبك فى البلـد مبسوطين
اذا عاندك زمانك .. اللى حايحامى مين
والسلطة العسكرية قطعت ايدى اليمين

أيامها لم يتحدث الاستعماريون عن السلام ، كانوا يغنون للحرب ، لأننا كنا ضحاياها .. ومضت الأيام السوداء تاركة أغنيـة حزينة ، كان عمال الفيلق يغنونها وما زالت تعيش الى اليوم :

يتنا عزيز عينى وتنا بدى أروح بلـدى
ولـدى يا ولـدى السلطة خدت ولـدى

الفكـر والكارو

فى ثلاثية « نجيب محفوظ » فكر أحمد شوكت ـ بطل السكرية ـ أن يشتغل بالصحافة ، فعارضته أمه لأنه يريد أن يعمل جرنالجيا ، وفى نهاية المناقشة قال :

ـ ان قيادة الفكر وقيادة عربة كارو شىء واحد فى أسرتنا .

نفس هذا الموقف تعرض له شاعر القطرين « **خليل مطران** » الذى بدأ حياته محررا فى « الأهرام » و « المؤيد » ثم أصدر مجلتين من أهم صحف أوائل القرن هما « الجوائب المصرية » و « المجلة المصرية » ثم ترك اصدار الصحف واكتفى بكتابة الشعر ، والعمل بالتجارة .

أيامها كانت الصحف تعتمد على الاشتراكات الثابتة بالدرجة الأولى ، وكانت تعين لهذا الغرض محصلين يمرون فى بداية كل عام على المشتركين

لتحصيل الاشتراك ، لكى تستمر المجلة فى الصدور ، وكان المشترك يعد نفسه صاحب فضل فى حياة الجريدة ، وفى كل ما يبلغه صاحبها من جاه أو كرامة ، ويعطى نفسه الحق فى نشر مقالاته وتفاهاته وتعليقاته ، ولم تكن الصحف قادرة على التخلص من سيطرة المشتركين ، اذ لم يكن الاعلان قد فشا فيها ليلعب نفس الدور ٠ وفى مواعيد التحصيل الدورية كان المحصل يعود لخليل مطران لينبئه أن فلانا المشترك قال كذا ، وفلانا قال كذا من الأقوال التى - وان امتزج المدح بها غالبا - تسىء الى النفس ، لأنها تأتى تذكيرا بالجميل وبالمعروف ٠

ومرة عاد المحصل من رحلته ، وأبلغ « **خليل مطران** » أن صديقا من أصدقائه الذين كان يعاشرهم معاشرة متصلة ، استمهله فى اداء ما عليه ، ولم يكن ذلك للمرة الأولى ، وألح عليه المحصل بحكم ما يعرفه من صلته بصاحب المجلة ، فالتفت اليه الصديق المشترك واستمهله مرة أخرى ، وعندما ذكره المحصل بقيمة المجلة الفكرية وما يبذل فيها من تحرير ، ومن تفقات الطبع والبريد ، وعده خيرا ٠٠ وفى المرة الأخيرة قال المشترك بضيق :

- هوا ثمن عيش !!

وأدرك شاعر القطرين أن كل الذين يرسل اليهم صحيفته يحسبونه متطفلا عليهم ، فيما يتقاضاه منهم من نقود ٠٠ فصمم على اعتزال الصحافة ، وبعدها بقليل سنحت الفرصة له ٠ فخرج من الميدان - كما يقول - « موفور العرض سليم الشرف والكرامة » وباع جريدته ومطبعته وأخذ يتاجر فى القطن ويكتب الشعر ، حتى يأتى الزمن الذى يفرق فيه الناس بين قيادة الفكر ٠٠ وقيادة الكارو ٠

أتعبتنى يا مولاى

كان « **عبد العزيز فهمى باشا** » من كبار المحامين فى مصر الذين شهدت لهم المحاكم صولات وجولات فى ساحاتها ، وكان شديد الاعتزاز بكرامته ومهنته الى درجة جعلته دائما شديد الحدة اذا ما تعلق الأمر بنزاهته كمحام أو بنقاء ضميره كقاضى ٠

ومع انه كان على علاقة طيبة بالسلطان « **حسين كامل** » ، فانه لم يكن يقبل من السلطان أى نقد لسلوكه المهنى • حدث مرة أن كان موكلا فى قضية جنائية كبرى قدم فيها دفاعا مجيدا ادى الى براءة المتهم ، وبلغ من قيمة المرافعة أن نشرتها الأهرام كاملة ، وبرغم أن المتهم كان قد أدين فى محكمة درجة أولى فقد استطاع أن يفوز له بالبراءة فى الاستئناف •

وأراد السلطان أن يرضى المحامى المعجزة ، فدعاه الى مقابلته ، واخذ يطرى مناقبه وصفاته الممتازة ، ثم قال له :

ـ لقد قرأت مرافعتك البديعة فى القضية •• وأنت من أعاظم المحامين وقد نجحت فى تبرئة هذا المذنب •

وشكره عبد العزيز بكلمات قصيرة على مدحه ، كان واضحا فيها انه غير راض عن أسلوب المدح •• وعاد السلطان يكرر عجيبه واعجابه من المحامى الماهر الذى استطاع انقاذ موكله من العقاب ، وتمكن من تبرئة مذنب •• فانتفض عبد العزيز واقفا بحدة وهو يلوح بيديه ويصيح :

ـ لقد أتعبتنى كثيرا يا مولاى •• لقد أتعبتنى كثيرا •• اننى لم أبرىء مذنبا ، ولكن دافعت عن برىء فحصلت له على حقه •

وذهل صديق لعبد العزيز كان يحضر المقابلة من اللهجة التى يتحدث بها المحامى اللامع مع السلطان •• ووقف السلطان فربت على كتف المحامى الثائر ، وقال :

ـ نعم انه برىء •

وخرج الصديقان من حضرة السلطان فاخذ الصديق يعنف عبد العزيز فهمى على تهوره بهذا الشكل •• فصاح :

ـ كيف يمكن أن أقبل من أى انسان أن يتهمنى باننى اترافع لأبرىء المذنبين ، وهذه وصمة كبرى للمحامى الشريف •

ورد الصديق :

ـ ولكن السلطان لم يكن يقصد المساس بك كمحام بل مدحك وتكريمك •

فقال عبد العزيز فهمى :

ـ انا متأكد من ذلك ، ولكن على من يمدح الا يستخدم فى مدحه اسبابا تدعو للذم •

وفيما بعد ذهبت كلمة عبد العزيز فهمى مثلا !

ظاهرة الدكتور جيكل والمستر هايد

عاش العقل المصرى مأساة التناقض بين القول والفعل بكل أبعادها ، فالثائرون فى السياسة محافظون فى النظر الى ظواهر المجتمع ، وبعض الذين يطالبون بتحرير مصر كلها ، يطالبون فى نفس الوقت باستعباد النساء واستثنائهم من هذه الحرية .. وكان معظم الليبراليين المصريين تنويعة أخرى على لحن الدكتور جيكل والمستر هايد .

وهكذا عاش « احمد سمير » طويلاً بجوار الثوار العرابيين ، اذ كان صديقا وصفيا « لعبد الله النديم » وتفتح فى مناخ الثورة الديمقراطى ثم نفى بعد فشلها وعاش سنوات فى « شتوتجارت » بالمانيا ، فاحتك بالمجتمع الأوربى المتفتح الذى يدين بالمساواة بين الجميع .. ومع ذلك فقد ظل « احمد سمير » محافظا حتى النخاع فيما يتعلق بمسألة المرأة .

وعلى العكس منه كان صديقه « حفنى ناصف » الذى سمح لابنته « باحثة البادية » (ملك) .. بالدراسة ، وعندما نقل قاضيا فى طنطا أبقاها فى مدرستها وأقامت فى رعاية احمد سمير الذى كان مدرسا للغة العربية فى المدرسة التوفيقية ، وحدث أن أوصاه « حفنى ناصف » بأحد طلبته وهو « صليب سامى » ـ الوزير فيما بعد ـ وطلب منه أن يعطيه دروسا خصوصية .

ولأن الفتى والفتاة ، كانا فى مرحلة دراسية واحدة ، فان احمد سمير كان يجمع بينهما فى دروسه الخصوصية ، ولأن أسرتيهما تعيشان فى طنطا ، فقد كان « صليب » يصطحب ملك معه فى عطلة نهاية الاسبوع ، حيث كان والداهما ينتظرانهما على رصيف المحطة ، لكن « احمد سمير » اعترض على ذلك . وعندما ذهب صليب فى أحد أيام الخميس ليصحب ملك كالعادة ، فوجىء بأستاذه ينهر الفتاة بشدة وهى تبكى ، ثم التفت اليه قائلا :

ـ لقد كبرتما .. اذهب .. ملك لن تسافر معك .

وعندما علم « حفنى ناصف » بما حدث ضحك قائلا :

ـ ان « احمد سمير » سيموت بمرض جنون المحافظة على التقاليد !

وعندما أصدر « قاسم أمين » كتابه « تحرير المرأة » ، كان « احمد سمير » من اشد المعارضين له ، وقد بنى معارضته على أن ما ينادى به قاسم أمين لا يقبله انسان لنفسه ، وعلى رأس الذين سيرفضونه « قاسم أمين » ذاته .. ولكى يبرهن على نظريته ، ذهب الى منزل « قاسم أمين » ، وطرق الباب ، وعندما فتح له طلب مقابلة السيدة .. ودهش الخادم من الطلب الذى لم يكن

مألوفا ، فأخذ « احمد سمير » يلخص له ما أورده صاحب البيت فى كتابه عن حق المرأة فى الاختلاط بالرجل ، وقال انه جاء يطالب بمقابلة زوجة « قاسم أمين » لكى يختبر مدى اخلاصه لما ينادى به ·· وكانت النتيجة أن طرده الخدم من البيت !

وخرج « احمد سمير » يسخر من التعاليم التى لا يطبقها صاحبها ، ونسى أن مأساة قاسم أمين هى نفسها مأساته ، هو الذى طالب بتحرير مصر كلها بحماس ، وبنفس الحماس دافع عن استعباد بعض أبنائها ·

مجرد تنويعة على لحن دكتور جيكل ومستر هايد ·· ما زالت تعيش الى اليوم ·

انطونيادس الخالد

هبط « **جون انطونيادس** » مصر فقيرا مفلسا خالى الوفاض ، فنزح من ثروتها وعرقها ما جعله مليونيرا ، ثم مضى تاركا لها اسمه لتخلده مقابل قصر وحديقة ·

كان يونانى الأصل ، هبط الاسكندرية فى أواسط القرن الماضى وكانت ــ ككل الموانىء ــ مليئة بالمغامرين والأفاقين والتجار والثوار الهاربين من أوربا ، ولأنه يريد أن يكبر فقد انضم للاولين ، وظل يصعد ويثرى ، ثم أراد أن يحفر اسمه فى التاريخ ، فاشترى قطعة أرض فضاء رخيصة السعر مجاورة لحدائق النزهة ، لتكون حديقة تحمل اسمه ، وكلف الفنان الفرنسى « **بول ريتشارد** » بتنسيقها ، فخططها على غرار حديقة قصر فرساى فى باريس ، ونثر فى جوانبها تماثيل من أعمال كبار النحاتين ، للعديد من الشخصيات التاريخية وآلهة اليونان القدماء ·

كانت فكرة « انطونيادس » من انشاء الحديقة هى أن يتنزه فيها ، ويريح أعصابه المكدودة من عناء العمل من أجل الشعب السكندرى الكريم ، ثم انشأ فيها منزلا صيفيا لتكتمل راحته ، وحرص على أن يكون بين جمال الحديقة والبيت انسجام فزينه بالنقوش والزخارف وجعله تحفة ·

وبرغم كل ما فعله السكندريون لأنطونيادس ، فانه لم يحفظ العيش والملح ، وجاءت الأساطيل الانجليزية التى هدمت حصون الاسكندرية فى

١١ يوليو ١٨٨٢ فأعانها انطونيادس باخلاص شــديد كأنه كون ثروته من عرق الانجليز وليس من عرق المصريين ، واعترفت له الملكة فيكتوريا بخدماته الجليلة ، فمنحتــه لقب سير فى عام ١٨٨٢ ، وحز ذلك فى نفوس أهــل الاسكندرية فحــاول أن يستعيد مودتهم فمنحوها له مضطرين ، ونافقهــم ما استطاع : بشق الطرق ، وبالتبرع لمشروعات الاصلاح لكن ذلك لم يجد فتيلا .

وفى عام ١٨٩٥ ـ مات السير جون ـ وترك ثروته لابنــه أنطونى ، فاستثمرها وضاعفها ، ثم رأى أن يخلد ذكرى أسرته العظيمة ، فوهب القصر والحديقة لبلدية الاسكندرية فى عام ١٩١٨ ، بخطاب رقيق للسلطان فؤاد ، مشترطا أن تحتفظ البلدية باسم أبيه عليهما .

وخلد انطونيادس اسمه فى مصر ، وظل السكندريون يرددون أســمه بمناسبة وبدون مناسبة ، فاذا عن لأحدهم أن يسأل عن مبررات تخليد هذا الانطونيادس قال الذين يعرفون التاريخ :

ـ لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم .

قليل من التشرد وبعض السلاطة

بدأت المحاماة فى مصر مهنة محتقرة ، يبرأ منهــا أبنــاء البيوتات ، ويسمون المحامى « بالسليط » ، وأصبحت بذلك مهنة من لا مهنة له ، ولم تكن المحاكم تشترط فيمن يترافع أمامها أى شرط ، الا أن يكون ذرب اللسان ، مدربا على الكلام ، مشاغبا ، ووقحا .

وعندما بدأ الزعيم « **محمد فريد** » حياته محاميا ، استفز هذا غضب وحزن والده « **احمد فريد باشا** » ، وكان ناظرا للدائرة السنية ، ووصل الأمر الى حد انه ذهب لزيارة الشيخ « **محمد عبده** » خصيصا يشكو ابنه ويبكى ، ويقول للشيخ :

ـ هل يصح يا سيدى الأستاذ أن يهزأنى محمد فريد على آخر الزمن ، ويفتح دكان افوكاتو .

ولم تكن الصحافة أيضا ، فى بدايتها ، مهنة محترمة الاحترام الكافى ، وكان المتواتر أيامها أن المشتغلين بها هم مجرد مجموعة من المتشردين الذين يعيشون على التأفيق ونشر الفضائح ٠

ومع تطور الزمن ، تغيرت النظرة للأمور ٠

كان محمد فريد قد بدأ حياته وكيلا للنيابة وقدم الصحفى « على يوسف » للمحاكمة أمام محكمة الجنايات بتهمة نشر تلغرافات تسيء الى سمعة الجيش الانجليزى الذى كان يحارب فى السودان ، وتكشف عن فتك الأمراض به ، وعن تراجعه أمام الثوار السودانيين ، وكان « محمد فريد » أيامها وكيلا للنائب العام ، فحضر الجلسة ، ثم بدرت منه ألفاظ ضد الحكومة ، عدتها جارحة لها ، فأمرت بنقله الى الصعيد ، فاستقال من وظيفته واشتغل بالمحاماة ٠

وفى ثورة ١٩١٩ ، أصبح المحامون من أنشط الفئات التى تنظم الثورة ، وتدعو لها ، وتتصدى للدفاع عن أى متهم سياسى ، دفاعا حارا وبلا أجر مادى ، وأصبح من تقاليد المحاماة ، أن التطوع للدفاع فى القضايا السياسية هو شرف يناله المحامى ، ولا يقبل عنه أى جزاء مادى ٠

الشىء نفسه حدث للصحافة ، اذ تولى الصحفيون الدفاع عن القضايا الوطنية باخلاص واصرار ٠ وكان المنطق الذى يحكم كل هذا بسيطا ٠٠ ففى مواجهة الاحتلال والمتعاونين معه لابد من السلاطة ، وقليل من التشرد وقلة الأدب أحيانا ٠

زمن الفكاهة السعيد

عرف الجيل الأسبق عددا من الظرفاء ، كانت لهم جلسات وندوات مشهورة ، ويبدو أن العصر كان خالى البال الى درجة ملحوظة ٠

وكان الشيخ « **حمزة فتح الله** » ــ عميد مفتشى اللغة العربية ــ قد اتفق مع صديقه شاعر القطرين « **خليل مطران** » الا يتحدثا الا باللغة الفصحى ، وبرغم هذا فقد أخذ كل منهما يشنع على الآخر ، فقال مطران انه ذهب لزيارة الشيخ حمزة فى منزله فسمع مطربا يغنى أغنية مطلعها :

ان كـان كـدا ولا كـدا   لأصبر على كيد العدا

فسأل مضيفه عن الأغنية فقال الشيخ حمزة ان المطرب يغنى :

ان كان كذا أو كذاك أو كذلك   فلأصبرن على كيد الأعداء

ومن تشنيعات الدكتور « محجوب ثابت » عليهما ، أنهما ركبا يوما ترام الرمل ، فلما جاء الكمسارى طلبا تذكرة الى محطة « معسكر قيصر » ولم يفهم الكمسارى بالطبع ، وأصرا على موقفهما ، وأخيرا اضطرا الى الذهاب من الرمل الى محطة « كامب شيزار » سيرا على الأقدام بسبب حبهما للغة العربية ٠

وكان معروفا عن الدكتور ثابت حبه « للقاف » ونطقه لها بطريقة مفخمة مقلقلة ، وذكر خليل مطران أن الدكتور ذهب الى مقهى بلدى وطلب قهوة ، ونطق القاف بطريقته ، فقال الجرسون :

ــ واحد قهوة للبيه اللى بيقاقى عندك !

وروى عنه أمير الشعراء أحمد شوقى أنه سأله يوما عن مصير قضية له فقال :

ــ القضية دلوقت فى الاستقناف ٠

ومن فرسان النكتة فى ذلك الجيل أيضا « حسين الترزى » ، ومن فكاهاته المشهورة التى سخر فيها من طلبة المدارس الثانوية ــ وكان معظمهم انذاك من كبار السن وفيهم المتزوج ــ أن أحدهم تأخر فى الصباح فسأله الناظر عن السبب فقال :

ــ كنت بأصبغ شعرى ٠

وقد أطلق « حسين الترزى » على صديق له من الأطباء هو الدكتور « بكير » تشنيعة ٠٠ فقال : انه ذهب لزيارته فى العيادة فرآه يعلق على الباب « جثة » أحد زبائنه اعلانا عن العيادة ٠

الاميرالاى هارفى باشا

« **جورج هارفى باشا** » واحـد من أشـهر الشخصيات فى التاريخ المصرى الحديث ٠

كان فى الثانية والعشرين من عمره عندما جاء الى مصر كأحد ضباط الجيش البريطانى الذى قهر الثورة العرابية ، وبعد الاحتلال ألحق بوزارة الداخلية كأحد معاونى « **اللورد كتشنر** » الذى أنيطت به مهمة تطويع تلك الوزارة لمطامع الاستعمار ٠ وبذل « هارفى » فى ذلك مجهودا ملحوظا جعله يترقى بسرعة الى أن أصبح مفتشـا عاما لوزارة الداخلية ، وأصبح قريبا من منصب « المستشار » ، وهو المنصب الذى كان حائزه يعتبر الحاكم الفعلى لأى وزارة فى مصر المحتلة !

وأدت كثرة الدسائس المحيطة به الى حرمانه من منصب المستشارية ، وعين حكمدارا للقاهرة فى فترة مد ثورى ، صاحبت حركة الزعيم « **مصطفى كامل** » ، فوجه كل همه لمقاومة الحركة الوطنية وتخريبها والتجسس عليها ، تنفيذا لسياسة الاحتلال ٠ وتفرغ « هارفى » لهذا النشاط ، فأنشـأ قلـم « المباحث السياسية » بالمحافظة ، وتوسع فى تعيين المخبرين والمرشدين ، وتدريبهم ، ونظم أرشيف القلم بطريقة محكمة ، بحيث أصبح لديه تقارير عن كل المشتغلين بالسياسة ، من الأمراء والوزراء والأعيان والصحفيين والموظفين والتجار ٠

وكان قاسيا ومتعجرفا، من جبابرة العمل والنظام والطغيان : ترك الجريمة تتفشى فى المجتمع المصرى ، ووجه همه فقط للذين يطالبون بتحرير بلادهم ٠ وعندما نشبت الحرب العظمى ــ عام ١٩١٤ ــ بقى فى مصـر ، وأمضى سنواتها الأربع ، يعمل بدون أجازة ، حفاظا على أمن الامبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس ٠

وفى عام ١٩١٨ استقال « هارفى » من عمله ــ وكان قد بلغ الثامنة والخمسين ــ وعمل بوزارة التموين البريطانية ، وعاد الى مصر فى عام ١٩٢٨ ، وكان مختل الأعصاب بشكل واضـح ، وما لبث أن مات بها فى مايو ١٩٣٠ ــ بعد أن بلغ السبعين ــ فى احدى مستشفيات الأمراض العقلية ٠





محكمة فى جبانة ـ المتشرد الصغير ـ توحيدة المصرية ـ الهروب فى قلب مصر ـ الوطن للجميع ـ بائعة الفجل المصرية ـ جبناء الأمة ـ الشحط والستة ريال ـ صف مكان صف ـ دار المصريين جميعا ـ المصرية الباسلة ـ ابتسامة الشهيد ـ الباشا والأسطى ـ الحاج جاد الله ـ اللى مايكرهوهم ـ الأحزان والقنابل ـ الثورة والناس ـ محسن بن عيوشة ـ بس التركى ـ الشغل .. شغل ـ المقاولة الأمريكية .



محكمة فى جبانة

عقدت أعجب محكمة فى التاريخ المصرى جلساتها فى « قرافة » الامام الشافعى ٠

حدث هذا أثناء ثورة ١٩١٩ ، وكان البوليس قد تصدى لاحدى مظاهرات الثورة وقتل أثناء الاشتباك أحد الطلاب ، وكان أحد زملائه بجواره ، فأمسك بعنان حصان الضابط القاتل وصاح :

– حيدر هو اللى قتله !

وكان « محمد حيدر بك » آنذاك قومندان للسوارى بقسم عابدين ، ومن أشرس رجال البوليس فى التصدى للمظاهرات ، وحاصر المتظاهرون منزله ، فاضطروه للبقاء داخله ، ثم تحايل وخرج فى ملابس مدنية وتوجه الى منزل « زهير أفندى صبرى » الطالب بالحقوق ، وأحد زعماء الثورة أيامها ، وأقسم له أنه برىء مما نسب اليه ، وأن لديه شهودا على انه يوم المظاهرة كان فى راحته الأسبوعية ، وطالب بتبرئته من تهمة قتل الطالب ورفع الحصار عن منزله ٠

وبناء على اقتراح من « زهير صبرى » تألفت هيئة لمحاكمته ضمت عشرين من زعماء الطلبة ومندوبى العمال ، واتخذت اجراءات مشددة لابقاء مكان المحكمة سريا عن المتهم والشهود ، ورتب الأمر بحيث اقتيد الجميع الى « حوش » فى قرافة الامام الشافعى انعقدت فيه المحكمة واستمعت لشهادة شهود النفى ، وكانوا عددا من ضباط الجيش المصرى ، أكدوا أن حيدر بك كان يمضى أجازته معهم ، وحسم شاهد الاثبات الموقف عندما تأكد من ملامح المتهم ، قال : ان الذى أطلق الرصاص ليس هو لكنه ضابط يشبهه !

وصدر الحكم بالبراءة ، ورفضت المحكمة طلبا للادعاء بمحاكمة الضابط على جرائمه الأخرى ، على أساس أنها مشكلة للنظر فى تهمة معينة ، وعندما تشكك المتهم فى أن الحكم سيكف عنه المتربصين به ، طمأنته المحكمة ، وأمرته أن يخرج بملابسه الرسمية وسيكون آمنا ٠

بعد ربع قرن من هذه الحادثة كان زهير صبرى المحامى احد أصدقاء جلالة الملك ومن بطانته ، وما أكثر ما يكون الزمن وغدا !

المتشرد الصغير

عندما يتعرض الوطن للخطـر ، فان كثيرين يغيرون موقفهم وينتمون اليه ·· حتى تلك العناصر التى عاشت فى قاع الحيـاة ، والتى فقـدت اتجاهها تماما ·

فبعد أن أطلقت مدفعية الأسطول الانجليزى أولى قذائفها على الاسكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨٢ ، افرجت حكومة الثـورة العرابيـة عن المسجونين ، ودعتهم للانضمام الى قوات المقاومة ، وهكذا انضم الأشقياء الى الفلاحين وصعاليك المدن فى صد الغزو ·

وفى أثناء ثورة ١٩١٩ ، مات كثيرون لكى لا يسقط علم مصر فى التراب ، كان من بينهم طلبة صغار وشبان ومتشردون لا مهنة لهم ·

ويروى الأستاذ العقاد فى كتابه عن « سعد زغلول » أن ثلاثة عشر مصريا قد تبادلوا على علم مصر ، يسقط الواحد منهم شهيدا وهو يحمل العلم ، فيحل محله آخر يتقدم ليحمل العلم دون لحظة خوف أو تردد ·

ومما نقل عن الطبيب الكبير الدكتور « على ابراهيم باشا » ، حكاية صبى صغير ، فى الخامسة عشرة من عمره ، حملته سيارة الاسعاف الى القصر العينى يوم الجمعة ١٩ مارس ١٩١٩ ، وكانت قوات الاحتلال قد حاصرت المصلين الذين خرجوا بعد صلاة الجمعة بالجامع الأزهر ، فأطلقت عليهم رصاص « دمدم » المحرم دوليا · وكان الدكتور على ابراهيم يعمـل طبيب امتياز بالقصر العينى ، فاستقبل المصابين ، ولفت الصبى الصغير نظره ·

كان – كما وصفه – لا يبدو طالبا أو صانعا · وعندما سأله الطبيب عن وظيفته ·· قال ببساطة :

– صنعتى ؟! أنا متشرد ·

وابتسم الطبيب وقال له :

– وماله ·· لكن مصرى ·· ووطنى ·

وقبل منتصف الليل ·· دعى الطبيب لعيادته ، وكان محموما يصيح صيحات هستيرية متقطعة وخافتة ، لكن هلوسة الحمى التى كانت تخرج من فمه كانت تلخيصا لمشـاهد المظاهرة العظيمة التى مـات فيهـا ثلاثة عشر مصريا ·· لا لشىء الا لكى لا يسقط علم مصر فى التراب ·· كان الصبى يقول :

ـ اجمد يا شيخ على ·· الثبات يا شيخ على ·· يا بختك يا شيخ على ·· نلتها والله ومت شهيد ، هات الراية ·· الراية معايا يا شيخ محمد ·· اضرب يا شيخ محمد ·· ماتخافش ·· الثبات ·· آه يا دماغى ·· خد الراية يا شيخ محمد ·

وفى منتصف الليل ، مات ·· وكانت وفاته كحياته معجزة ·· فقد مات دون أن ينزف قطرة دم واحدة !

توحيدة المصرية

يتعرض الوطن للخطر ، فيكتشف الذين يعيشون فى قاع الحياة أنفسهم ، ويعطونه عمرهم ، ذلك أنهم مركز كل ما فيه من ظلم وظلام وفساد ·

مات المتشرد الصغير ، وهو يسلم الراية لآخر يموت بعده ، وفى الصباح جاءت أسرته لتتسلم جثته ، وكانت مفاجأة للدكتور على ابراهيم عندما اكتشف أن الصبى هو ابن « توحيدة الانجليزية » وكانت قد أخذت لقبها ، لأنها كانت الغانية المفضلة لجنود جيش الاحتلال وضباطه ، وكان المنزل الذى تديره فى حى البغاء يتفنن فى تقديم المتعة لهم ، لدرجة أن أصبح لقب « الانجليزية » مشهورا ومعروفا فى حى البغاء · بل فى مصر كلها ·

وطوال سنوات الحرب الأولى ، فتحت « توحيدة » بيتها للترفيه عن جنود الاحتلال ، الذين كانوا يقيمون فى القاهرة ، أو يعودون اليها فى أجازات قصيرة ، يشربون الخمر ، وينالون المتعة ويقيمون حفلات للرقص الشرقى ، ويستمتعون بكل ما يتيحه لهم وضعهم المتسلط باعتبارهم حكام مصر الحقيقيين ·

وتسلمت « توحيدة » جثة ابنها الصبى ، ودفنته دون دمعة ، وفى اليوم التالى أقامت فى منزلها حفلة كبرى ، دعت اليها مجموعة كبيرة من أصدقائها الانجليز ، وتحدث حى البغاء كله بالحفلة الفخمة التى أريقت فيها الخمور ، وسالت أنهارا ، وارتفعت نغمات الموسيقى وملأت الضحكات أرجاء الحى السعيد ·

فى صالة المنزل ، كانت توحيدة تضحك وترقص ، وهى فى قمة فتنتها ، وأخذت تترامى على ضيوفها الانجليز معابثة ، تمنح القبلات واللمسات ، وتخطف غطـاء الرأس من واحد لتضعه فوق رأس آخر • وأخيرا اخذت مسدسين من وسط أحد الضباط ، وأخذت ترقص بهما • وفى غيبة الوعى لم ينتبه أحد لما تفعل ، وابتهج رواد الحفلة بمشهدها : لقد أصبحت توحيدة انجليزية فعلا ، الكاب على رأسها والمسدسات فى يديها ••

وفجأة انطلق الرصاص ، واصيب كثيرون من الجنـود والضباط ، وقتلت توحيدة ضيوفها الأعزاء •

وفى الصباح كانت قد لفظت انفاسها فى « القصر العينى » •

ويعلق الدكتور على ابراهيم الذى روى الحكاية قائلا :

ـ تنازلت توحيدة عن لقب الانجليزية بالدم •• أصرت على أن تموت وهى توحيدة المصرية •

الهروب فى قلب مصر

« محمد شكرى الكرداوى » واحد من أبرز الوجوه التى شاركت فى الكفاح ضد الاحتلال الانجليزى لمصر ، كان من متطرفى الحزب الوطنى قبل الحرب ، ثم واحدا من يعاقبة الوفديين بعد تفجر الثورة ، هؤلاء الذين كانوا يؤمنون بأن الاستعمار لا يرفع يده الا والسلاح فى ظهره •

وكان « الكرداوى » مهندسا ثوريا ، ينظم ويخطط ، ويشرف على تنفيذ ما خططه بحيوية ذهنية خارقة ، ولا ييأس أبدا ، مهما فشلت خططه أو عجزت عن تحقيق ما رسم لها من أهداف ، فعندما قبل السلطان حسين الحكم فى ظل الحماية ، قرر أن يغتاله بنفسه ، لكن أهله اكتشفوا الخطة فاعتقلوه ، ومنعوا تنفيذها ، فظل يدبر الى أن أطلق « محمد خليل » النار على السلطان ، طبقا لخطـة رسمها الكرداوى ، وفشلت الحادثة ، ولكنهـا كانت صرخة احتجاج على أى حال •

وبعد تفجر الثورة ، كون فى المنصورة ـ وهى مسقط رأسه ـ جمعية سرية باسم « اليد السوداء » كان أحد أعوانه فيها « أحمد أفندى جلال »

ـ الذى اشتغل بعد ذلك فى الصحافة ثم أصبح مخرجا سينمائيا مشهورا ـ وظلت الجمعية توزع المنشورات الثورية ، وتؤلب أهالى المنصورة لتستمر الثورة . وعندما جاءت لجنة ملنر ، وأصدر الوفد قراره الشهير بمقاطعتها ، كان « محمد سعيد باشا » أحد الذين قبلوا رئاسة الوزارة مخالفا بذلك قرار الوفد بمقاطعة اللجنة ، وعدم الحوار معها ، والاضراب عن تشكيل أى وزارة تقبل التفاوض وإياها ، الا اذا إعترفت بشرعية تمثيل الوفد للأمة ، وقبلت الحديث معه ، فقرر « الكرداوى » أن يغتاله لخروجه عن ارادة الأمة ، ودبر خطته فى سرية شديدة ونفذها طالب بالأزهر هو الشيخ « **سيد محمد على** » .

وعقب الحادثة ، هرب الكرداوى ، وصدر عليه حكم غيابى بالأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما ، ورصدت جائزة قدرها ألف جنيه لمن يبلغ عنه ، أما هو فقد اختفى خمس سنوات متصلة فى القاهرة وأسيوط وقابل مدير الأمن بها أكثر من مرة ، فلم يتعرف على شخصيته برغم توزيع آلاف من صوره على كل البلاد . وتزوج وهو مختف مرتين بأسمائه المستعارة ، وأنجب من الأولى ابنة سماها « رسمية » .

وظل الكرداوى مختفيا الى أن تولى الوفد الحكم وصدر عفو عام على المسجونين السياسيين فعاد من مخبئه ـ بعد خمس سنوات من الاختفاء ـ وعين موظفا بوزارة المعارف ، وظل يدرس الى أن تخرج من مدرسة المعلمين وعمل بالتدريس .

الوطن للجميع

« الدين لله ، والوطن للجميع » واحد من أهم شعارات ثورة ١٩١٩ .

وخلال شهور الثورة ـ وفيما تلاها من سنوات ـ ساد هذا الشعار العظيم ، وفشلت محاولات الاستعمار لتطبيق سياسة « فرق تسد » التى اتبعها على مشارف القرن ، وأساءت للنضال الوطنى أبلغ اساءة .

فى ثورة ١٩١٩ خطب القسس على منابر المساجد ، وخطب الأئمة فى هياكل الكنائس ، وكان القسيس والشيخ يتصدران دائما أى مظاهرة ثورية ، ويتعانقان أمام الجماهير وأمام جنود الاحتلال .

وفى سنة ١٩٢٠ وصلت الى مصر لجنة ملنر الشهيرة التى كلفت بدراسة أسباب الثورة ، ومعرفة مطالب المصريين ، وكان الوفد المصرى بقيادة

« **سعد زغلول** » أيامها فى باريس ، يدافع عن حق مصر فى الاستقلال ، وأصدرت لجنة الوفد المركزية بيانا دعت فيه الى مقاطعة اللجنة لاجبارها على الاعتراف بالوفد المصرى كقائد شرعى للامة ، والتفاوض معه ، واستقالت الوزارة القائمة آنذاك ، وأصدر الوفد بيانا يناشد فيه السياسيين عدم تشكيل وزارة لكيلا تجد اللجنة من تخاطبه فى مصر ٠

ولجأ الاستعماريون للمناورة ، فكلفوا مسيحيا وهو « **يوسف وهبة باشا** » بتشكيل الوزارة ، فشكلها ٠ وكانت مناورة ذكية ، هدفها التفرقة بين عنصرى الأمة ، وسارع « عبد الرحمن فهمى » ــ سكرتير لجنة الوفد المركزية ــ الى الكنيسة المرقسية الكبرى ، وخطب هناك قائلا :

ــ اذا كان الاستعماريون قد وجدوا مسيحيا واحدا خائنا يقبل رئاسة الوزارة ، فقد وجدوا أيضا ثمانية مسلمين خونة قبلوا أن يكونوا وزراء ٠

وعندما قرر الجهاز السرى للثورة قتل « **يوسف وهبة** » تصدى الشباب المسيحى « **عريان يوسف سعد** » لهذه المهمة ، لكى لا يستغل الاستعماريون المسألة ــ لو نفذها مسلم ــ فى ازكاء نيران الحرب الطائفية ٠٠ وقبض على عريان سعد ٠٠ وحكم عليه بالسجن عشر سنوات قضى منها أربعة ثم أفرج عنه فى عفو عام ٠

بائعة الفجل المصرية

« **توفيق العزب** » فدائى قديم ٠ كان عضوا بجمعية « اليد السوداء » التى ألفها الشيخ « **مصطفى الغاياتى** » لمقاومة الاحتلال الانجليزى ٠ دخل السجن مرتين ، وقضى فيه عشر سنوات كاملة من عمره ٠

بدأ « **توفيق العزب** » حياته موظفا بالسكة الحديد ، وظل بها الى أن أحيل الى المعاش ، وقد دخل السجن لأول مرة عام ١٩٢٢ فى قضية اغتيال الموظفين الانجليز ، ثم أفرج عنه فى عهد وزارة « سعد زغلول » عام ١٩٢٤ ، وعاد اليه مرة أخرى فى قضية القنابل الشهيرة خلال حكم اسماعيل صدقى ٠

يروى « توفيق العزب » ، أنه فى احدى عملياتهم ، تصدى لموظف انجليزى كبير هو « المستر هاتون » كبير مهندسى السكة الحديد ، وأطلق عليه الرصاص

وهو خارج من مبنى هيئة السكة الحديد ، وفى آخر لحظة ، رأته بائعة فجل فقيرة ، كانت قد خرجت من أحد منحنيات الطريق • وعندما قبض عليه استدعى البوليس بائعة الفجل لتتعرف عليه ، وعرض عليها عرضا قانونيا يتضمن أشخاصا يماثلونه فى القامة والشكل ، ومرت بائعة الفجل على كل الوجوه ، ثم قالت ببلاهة متصنعة :

— مش فيهم !!

وكان البوليس كبير الأمل فى أن تكون هذه البائعة ، شاهد الرؤية الذى يقود « توفيق العزب » الى المشنقة ، ولكنها أصرت على موقفها ، فاستدعاها البوليس ، وعرض عليها مكافأة تصل الى عدة آلاف من الجنيهات ، ولكنها أصرت على أن الذى قتل الخواجة ، هو شاب طويل ورفيع ، وهى صفات لا علاقة لها على الاطلاق بتوفيق العزب ، وكرر البوليس العرض ، وكررت البائعة الانكار ، وعندما عرضوا عليها صورته وطلبوا منها أن تخرجه من الصف وتأخذ ما تريد ، رفضت •

الشىء الغريب — كما يقول توفيق — أنه فى كل مرة من مرات العرض ، كانت عينا البائعة تصطدم بعينيه ، وتظهر فيها علامات تدل على معرفتها به ، بل وتشجيعها له •

وخرجت مرة أخرى لتبيع الفجل تاركة الاف الجنيهات دون أى تردد •

وتلك — كما يقول توفيق العزب — هى مصر •

جبناء الأمة

فى ربيع ١٩١٩ كانت الحياة فى مصر عجيبة !

كان صباح القاهرة ، يبدأ بمظاهرات صاخبة ، تهتف بسقوط الاحتلال ، وتطالب بالاستقلال التام أو الموت الزؤام ، وكان الرصاص الاستعمارى يختار للمصريين دائما هذا الموت الزؤام ، فاذا كان الظهر ، خرجت نفس هذه المظاهرات تشيع جنازات الشهداء الذين ماتوا فى مظاهرات الصباح ، تهتف نفس الهتاف ، وتموت نفس الميتة !

وفى المساء كانت معظم العناصر النشطة تلتقي فى الجامع الأزهر الشريف ، تخطط وتناقش ، وتتصدى للمؤامرات ، وحاصرت قوات الاحتلال الجامع الأزهر لتمنع الوصول اليه ، فسدت كل الطرق المحيطة به ٠ وتحايل طلاب الأزهر على ذلك بأن وضعوا بعضهم بجوار نقط الحصار ، ليدلوا الحاضرين على مكان الاجتماع ، فاذا جاء أحدهم همسوا له : زاوية العميان ٠

وعبر طريق طويل ، من شارع لحارة ومن زقاق لعطفة ، ومن سطح ربع الى خرابة ، ينتهى الجميع الى داخل الأزهر ، ليجدوا داخله أعدادا تصل الى عشرين ألفا فى بعض الليالى : طلبة من الطب والحقوق والمهندسخانة والمعلمين العليا والزراعة والتجارة ، وصعاليك وعمال ومهنيون وقساوسة من السريان الكاثوليك ، والروم لكاثوليك ، والروم الارثوذكس ، وآلاف من الأقباط وكثيرون بلا مهنة ولا رزق ٠

ويخطب كل هؤلاء فيهاجمون « العقلاء » ودعاة الحكمة ، الذين يطالبون بالسكينة ، ويسخرون منهم ، ويسمونهم « جبناء الأمة » ويطالبون بألا تغمض عين ولا تقف يد ، ولا تخفت حنجرة ، قبل أن يعلن الانجليز عزمهم على الرحيل عن البلاد ٠ وترتفع درجة الحماس ، فيطالبون الناس ألا يكفوا عن الاستشهاد ٠ وكانت الأسماء التى تخطب غريبة ، لا يجمعها سوى حبها للوطن ورغبتها فى الموت فى سبيله : الشيخ الزنكلونى والشيخ ابو العيون ، والقمص سرجيوس والايجومانس قرفوريوس ٠

ويتفق الجميع ٠

ثم يتفرقون من حيث جاءوا فى هدوء ٠ يتبادلون السخرية من جبناء الأمة ، ويتسللون من « زاوية العميان » الى « طريق النور » ، ويشرق الفجر بعد قليل ، ويبدأ يوم جديد ، بالمظاهرات والاستشهاد والجنازات ، ويعود الجميع فى الليل — وقد كفكفوا دموعهم — الى زاوية العميان ليسخروا من جبناء الأمة ٠

الشحط والستة ريال

كان « **بيرم التونسى** » صعلوكا نبيلا ٠ عاش مع الفقراء ، ونبض شعره بكل ما فى حياتهم من معاناة صادقة ، وصبر طويل ، وسخرية مرة ،

ترك محل البقالة الذى كان يعمل صبيا به ، وانطلق يكتب عن الشعب ويسخر من كل أعدائه : الاحتلال والسلطان والشركات ، ورجال الدين المزورين الذين يدافعون عن امتيازاتهم بتفسير الاسلام لحسابهم والمتاجرة بالقرآن ٠

وبينما كان الشعب كله يلتف حول قيادة « سعد زغلول » يشذ الشيخ بخيت مفتى الديار المصرية ، ومعه عدد من الارستقراطية الدينية التى كانت ترتبط بالسلطات الحاكمة وتعارض الثورة ، ويكتب بيرم على الربابة قائلا :

أول ما نبــــدى نصــــلى عــلى النبـــى
نبـــى وطنـــى يلعــــــن أبــــوك يــا بخيت

ويتصدى للشيخ بأزجاله ، فما يكاد يقرأ فى الصحف خبرا عن أن الشيخ قد ضبط وهو يخرج من قصر الدوبارة ـ مقر ممثل الاحتلال ـ حتى يكتب له :

يــا بخيت يــا أبو دومــة ، يــا أبو خلقــة مشــومة
ضــبطوك متنيــل ، ع القصــــر محـــول
اتلــم أحســــن لك ٠٠ دا الشـــعب قاعــد لك

وينفى « بيرم » الى باريس بسبب زجله الذى هاجم فيه السلطان فؤاد ، ويظل عشرين عاما طويلة فى بلاد الغربة ، ومع ذلك يكتب عن مصر ويرسل أزجاله لتنشر فى صحفها ، ويتصدى للمتاجرين بالدين ، فعندما اتسـعت الدعوة لانشاء الجمعيات التعاونية تطوع الشيخ « التفتازانى » ـ وكان من مشايخ الطرق الصوفية ـ لمقاومة الدعوة ، وكتب على صفحات « الاهرام » يتهم أصحابها بالالحاد والخروج على الدين ، ويقول أنهم « بلاشفة لا يؤمنون بدين ولا يعترفون بالله » ٠

ومن منفاه ، كتب بيرم ساخرا من الشيخ ، محرفا اسمه الى « زفتزانى » وخاطبه قائلا :

لا فى الجوامــع رأيت مثلــك ولا فى الـــدير
عالــم ومســلم وبتعــارض فى فعــل الخـــير

ما دام فضـــيلتك بتاكـــل كســـتليته وطـــير
يبقى الدريس والــدره والفجــل للخرفـــــان

طـــب وانـــت مالــك بتتفلحس وتتفلســــف
وتخش فى اللى مـــا هـــو لك ليــه وتكشــف

هى نهـــار البلـــد دى لمـــا تتبلشـــف
هاتجــردك م القــاوون والجبــة والقفطان ؟!

وسخر « بيرم » مما يفعله بعض رجال الدين ، الذين يعيشون على عرق الآخرين ، ولا يعطونهم أجرا ٠٠ فقال يصفهم :

يشغلوا الشحط في الجامع بستة ريال
يكنس ، ويمسح محلات الأدب ، عال العال

واخر الشهر يتحاسب على الاهمال
يطلع من الدين ٠٠ والدنيا كمان خسران

وهكذا عاش بيرم التونسي في المنفى ونبض قلبه مع الوطن ٠

صف مكان صف

اتخذت جماهير الشعب المصرى من المسجد والكنيسة مقارا للاجتماع والحوار ورسم الخطط أثناء ثورة ١٩١٩ ، حتى أصبح بيت الله هو المكان الذى يسع الجميع ويضمهم ، ويتيح لهم أوسع الحرية للتعبير عن حبهم للوطن واستعدادهم للموت فى سبيله ٠

وبعد أن قطعت الثورة مرحلة من مراحلها ، وبدأ الاختلاف بين صفوف الوفد ، لم يقم هذا الخلاف على أساس « طائفى » ، ولكنه قام على أساس « سياسى » ، فبعد أن عرض « اللورد ملنر » مشروعه الذى انتهت اليه مباحثاته مع سعد زغلول ، رأى بعض أعضاء الوفد أن المشروع مقبول ورأى سعد أنه أقل مما يطمح اليه الشعب ، وأنه مجرد تنظيم للحماية ، واشتد الخلاف فى الرأى بين سعد ومعارضيه ، وانتهى بخروج معظم الأعضاء عن الوفد ٠ وبقى سعد مع أربعة أعضاء ، كان بينهم اثنان من الأقباط هما واصف بطرس غالى وويصا واصف ٠

وقاد سعد حملة معارضة لوزارة « عدلى يكن » التى شكلت لتتفاوض مع الحكومة البريطانية حول مقترحات اللورد ملنر ، وطالب أن يكون للوفد رئاسة ممثلى مصر فى المفاوضات ، وأن يكون معظمهم من أعضائه ، وظلت المعارضة تتصاعد حتى نشبت ثورة أخرى فى مصر ، ونفى سعد للمرة الثانية ونفى معه « مصريون » لم تفكر قوات الاحتلال لحظة فيما اذا كانوا نصارى أو مسلمين ٠

وفى يوم من شتاء ١٩٢١ ، أوفدت السلطة العسكرية البريطانية سرية من الجنود الانجليز فحاصرت بيت الأمة ، وصعد قائدها - وهو ضابط بريطانى - الى غرفة نوم سعد زغلول ، وخرج به من المنزل منفيا الى عدن .. وفى نفس اللحظة كانت قوات أخرى تعتقل سينوت حنا ، ومصطفى النحاس ، ومكرم عبيد ، وفتح الله بركات .

وتجتمع لجنة الوفد المركزية ، وتضم اليه أعضاء جدد ، منهم « مرقص حنا » ، وتصدر قرارا بمقاطعة البضائع الانجليزية ، يوقع عليه أعضاء الوفد بالكامل ، وتقبض سلطات الاحتلال عليهم جميعا ، وكان بين المعتقلين الثمانية اربعة من الأقباط ، والحركة الوطنية فى هذا كله تتبع أسلوب « صف مكان صف » ، تعتقل لجنة الوفد فتحل مكانها لجنة أخرى ، ذهب الثمانية سجناء الى ثكنات قصر النيل ، فحلت محلهم قيادة أخرى للوفد كان من أعضائها اثنان من الأقباط : سلامة ميخائيل وفخرى عبد النور ..

وتمضى أيام الثورة : مظاهرات وقتلى ومشانق وشهداء ، وجنازات لجان تعتقل وأخرى تنفى ، وفى كل هذا لا يتذكر أحد الا أن مصر فى خطر .

دار المصريين جميعا

منذ الثورة العرابية ، ومعظم الوثائق السياسية المصرية تنظر الى مصر باعتبارها دولة قومية ، وعلى أساس أنها « دار المصريين جميعا » لا اختلاف بينهم فى ذلك على أساس أديانهم أو لغتهم .

وفى ديسمبر ١٨٨١ نشرت الصحف برنامج أول حزب مصرى ، وهو « الحزب الوطنى » الذى أسسه الثوار العرابيون ، وجاء فى المادة الأولى منه أن « الحزب الوطنى » حزب سياسى علمانى ، مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذاهب وجميع المسلمين والنصارى واليهود وكل من يحرث أرض مصر ، ويتكلم بلغتها منضم اليه ، لأنه لا ينظر الى اختلاف المعتقدات ويعلم أن الجميع اخوان ، وأن حقوقهم فى السياسة والشرائع متساوية .

وبانتكاس الثورة العرابية ووقوع مصر تحت اقدام الاحتلال ، عادت النغمة الطائفية للارتفـاع ، واقتـرن هذا بهزيمة الثورة وانتكاس احلام الديمقراطية والتحرر التى عايشت الجيل الذى ساهم فى اشعالها .

وظلت المسألة تتفاقم الى أن عادت الى وضعها الطبيعي والصحيح ، تفجرت الثورة الوطنية الديمقراطية فى سنة ١٩١٩ ، وغاد الجميع يحوتون متجاورين من أجل مصر ، لم يفرق الرصاص الانجليزى بين المصريين حسب أديانهم ، ولم تفرق المنافى بين المصريين حسب الدور التى يتعبدون فيها ، نفى مكرم عبيد وسينوت حنا كما نفى سعد والنحاس ، ولكنها تفرق بين الخونة والوطنيين ، وتعانق الشيخ الزنكلونى مع الشيخ أبو العيون مع القمص سرجيوس ·· وكتب الشيخ أبو العيون يقول : « سار القسيس بجانب الشيخ وجموع المتظاهرين من خلفهم قائلين : الى الأمام ·· الى الأمام ·· الى الشهادة » ·

أما سرجيوس فقد خطب من فوق منبر الجامع الأزهر فقال : « اذا كان الانجليز يتمسكون ببقائهم في مصر بحجة حماية القبط ، فأقول ليمت القبط وليحيى المسلمون أحرارا » ·

المصرية الباسلة

كانت « **شريفة رياض** » واحدة من أوائل السيدات المصريات اللواتى خرجن للعمل العام ، وناضلن من أجل قضية المرأة وأدركن بوعى أن تحرر المرأة المصرية ليس عملا منفصلا عن تحرر الوطن المصرى ، وليس قضية جزئية أو فرعية ·

بدأت نشاطها فى أوائل القرن عندما بدأت تجمع تبرعات من الأسر المصرية الثرية لمساعدة الأتراك فى حرب البلقان ، وكان عملها تحديا سافرا لسلطات الاحتلال الانجليزى ، فقد كانت أى مساعدة لتركيا تعتبر ـ أيامها ـ عملا عدائيا لانجلترا · وبرغم انها كانت تنتمى لأسرة محافظة ـ بل ورجعية ـ فانها خرجت الى الطريق ونشطت اجتماعيا وسياسيا بجسارة نادرة ·

كانت ابنة لحسن راسم باشا محافظ الاسكندرية ، وزوجة لمحمود بك رياض ، أحد أبناء مصطفى رياض باشا ـ رئيس الوزراء المصرى قبل الثورة العرابية وبعدها ـ وكان الثلاثة ـ والدها وحموها وزوجها ـ شديدى المحافظة ، بل ان زوجها لم يكن يهتم أى اهتمام بالعمل العام أو السياسى · وبرغم ذلك حاولت أن تشكل لجنة نسائية للحزب الوطنى بزعامة مصطفى

كامل ، وفشلت فى ذلك ــ بسبب محافظة الحزب فى المسائل الاجتماعية عموما ــ فانتقلت الى الخدمة العامة وأنشأت « جمعية المرأة الجديدة » لتعليم وتدريب الفتيات ٠

وفى مجرى ثورة ١٩١٩ العظيمة ، وفى تيارها الوطنى والديمقراطى النقى ، وجدت « شريفة رياض » نفسها ، فكانت العمود الفقرى لنشاط السيدات المصريات خلال الثورة ، وكانت صاحبة الدعوة الى الاجتماع الذى عقد فى الكنيسة المرقسية الكبرى وأسفر عن تشكيل لجنة السيدات التى قامت بنشاط باسل خلال الثورة ٠ فهذه اللجنة هى التى حركت سيدات مصر للخروج فى المظاهرات الكبرى أثناء ثورة مارس العظيمة ٠٠ وهى التى جمعت الاكتتابات لمساعدة أسر الشهداء والضحايا ، وساهمت بدور بارز فى مقاطعة السياسيين المصريين للمناصب الوزارية عام ١٩٢٠ ، ولعبت « شريفة » دورا محركا فى تنظيم اضراب الكناسين الذى كان من أبهر وأعظم أعمال الثورة ٠

وكانت تتميز بشجاعة فائقة ، ولباقة نادرة ، مكنتها من أن تعارض سعد زغلول ــ الذى كان يقدرها ويحترمها ــ فى بعض آرائه ٠٠ وحدث أن ذهبت ضمن وفد نسائى لمقابلة المندوب السامى البريطانى محتجات على اعتقال سعد زغلول ومطالبات بالافراج عنه ، وقال لهن الخواجا بصلف أوربى :

ــ ان المرأة المصرية التى لا تزال تضرب وتركل فى بيتها لا يحق لها أن تنادى بالحرية قبل أن تتحرر هى ٠

وردت « شريفة رياض » بعنف ، فذكرت الخواجا بقضية كانت مثارة وقتها فى انجلترا اتهم فيها أحد اللوردات الانجليز بضرب زوجته ٠

قالت :

ــ ان صح منطقك وجب أن تكون انجلترا محتلة حتى تتحرر نساؤكم من ضرب أزواجهن ٠٠

وبلع الخواجة الاهانة ساكتا ٠

واستمرت « شريفة » تناضل ضمن حركة لجنة ملنر ، وأثناء انقلاب صدقى على الدستور ــ فى أوائل الثلاثينيات ــ لعبت دورا هاما فى المقاومة وساندت نضال عمال العنابر والترسانة من أجل التحرر والديمقراطية ، فنظمت لجان للمساعدة والاسعاف ، وحضرت معظم المحاكمات تشجع وتدفع الغرامات وتوكل المحامين ٠

وفى عام ١٩٣٦ اعتزلت العمل العام بعد وفاة ابنتها ، وكانت عروسا ، وماتت هذه المصرية الجميلة الشجاعة فى سبتمبر ١٩٥٤ بعد أن حفرت اسمها فى وجدان مصر ٠

ابتسامة الشهيد

كانت المعركة بين جماهير الشعب المصرى وبين الاستعمار البريطانى متشعبة الميادين متعددة الأساليب ، استخدم فيها الطرفان كل ما لديهما من امكانيات ووسائل ، العنف والشراسة أحيانا ٠٠ والذكاء والطرافة فى أحيان أخرى ٠

وكانت المظاهرات أسلوبا من أساليب الاحتجاج على الاستعمار وعلى عملائه من الخونة الذين كانوا يكممون الأفواه ويدوسون القانون ، ويسلبون الناس حقوقهم فى وضح النهار ٠

يروى اللواء « رسل باشا » ــ وهو انجليزى تولى منصب حكمدارية العاصمة سنوات طويلة ــ فى مذكراته أنه علم يوما أن هناك مظاهرة تنوى مهاجمة فندق الكونتننتال حيث يقيم عدد كبير من الضباط الانجليز وزوجاتهم ، فصحب فصيلة من جنوده ، وأحاط بالفندق انتظارا للمظاهرة ، التى ما لبثت أن ظهرت : شديدة الازدحام عنيفة الهتافات ، وزاد الطين بلة ــ فى رأى اللواء رسل ــ أنها كانت جنازة شهيد ، وهو ما قلق له الحكمدار الانجليزى ، الذى كان يعلم أن الجنازات المصرية لها حرمة ولا تجوز مهاجمتها لأن ذلك يستثير الغضب العام ٠

وعندما وصل المتظاهرون الى مدى الرؤية ، شاهد الحكمدار عددا من الشبان يحملون نقالة عالية ، تمددت عليها جثة صفراء تحيط بها الأزهار ، وقد تهدل ذراعاها على حرفى النقالة ، وتقدم هؤلاء الى مدخل الفندق وأحاط بهـم المتظاهرون كحرس قوى لهـم ، واشتدت الهتافات ، وعنفت ، وبات واضحا أن الضباط الانجليز الذين يقطنون فى الفندق سيتعرضون لما لا يحمد عقباه ، وترك الحكمدار مكانه على الشرفة ، وتقدم الى حيث وقف رجاله ليقوى عزائمهم ، وليحاول التفاهم مع المتظاهرين بالحسنى ، وأشعل سيجارة ليخفى توتره ، وبينما هو يتفاهم مع قادة المظاهرة ، خيل اليه أن الشهيد الميت على النقالة والمغطى بالزهور يبتسم ، وخطرت له فكرة ، فاستمر فى حواره معهم ، بينما كانت كفـه الممسكة بالسيجارة تقترب من كف الشهيد المدلاة من النقالة ، وبعد برهة فوجىء المتظاهرون بالشهيد يصرخ وينزل من فوق نقالته هو وزهوره ، ويندفع جاريا وخلفه المظاهرة كلها ٠

كان الذكاء المصرى المدرب قد ابتكـر هـذه الفكـرة أيامها ، ليحمى مظاهراته من العدوان عليها ٠

وجـرى المتظاهرون ضاحكين يبحثون عن نعش يملئونه بالحجارة ، ويحاورون فيه بذكاء المصرى ، الذى لم يطفؤه جـوع أو يقهـره طغيـان بريطانيا ٠٠ وكانت أيامها عظمى ٠

الباشا والأسطى

كان رجلا نحيلا قصيرا لا تساوى ثيابه أكثر من خمسة قروش ، يرتدى - عادة - سترة ممزقة وجلبابا رثا ويضع على رأسه طربوشا ، كان يرتقى منبر الأزهر فى بعض أيام الثورة ثم يقف على المنصة فاذا هو عملاق ، واذا بالألوف المؤلفة من الذين يحتشدون فى الأزهر تصمت ويستقر ضجيجها لتصغى الى ما يقوله بأسلوبه العامى الساذج فى خفوت واعتزاز :

كان الأسطى « احمد » بطلا عظيما من أبطال المقاومة الشعبية ، كان يسيطر على واحدة من المنظمات الفدائية التى كانت تتربص بجنود الاحتلال وتفتك بهم ، وتمد نشاطها لتقاتل المترددين والضعفاء وطلاب الوظائف الذين تركوا الثورة فى منتصف الطريق خوفا أو اغراء ٠

وجاءت لجنة ملنر الى القاهرة ، لتحطم قوى الثورة ، وتمهد الطريق الى خيانات لا حصر لها ٠ وكان ظاهر مهمتها البحث عن مطالب المصريين وهى فى حقيقتها أحبولة من أحابيل الاستعمار يهدف منها الى تفتيت صخرة الوطنية واضعاف روح المقاومة ومغالبة الشعور الوطنى الفياض ٠

ويوما ترامت الى الأسطى احمد أنباء عن باشا ارتبط بموعد محدد فى الساعة العاشرة صباحا ليلقى اللورد ملنر ، مخالفا بذلك القرار الذى أجمعت عليه الأمة بأن تعلن رأيها الموحد بمقاطعة اللجنة ٠

وفى الثامنة صباحا ، كان الأسطى احمد وعدد من طلاب الأزهر - كان منهم الصحفى المخضرم المرحوم محمد على غريب - ينتظرون الباشا أمام باب قصره ، ليقولوا له انهم يرجونه أن يعتذر عن الذهاب الى هذا الموعد لأن مصلحة الوطن تقتضى ذلك ٠ وغضب الباشا الذى لم تكن تهمه مصلحة الوطن فى شىء ، وساءه أن يقدم اليه أسطوات ومجاورون فقراء ملوثون بطين الحقول طلبا كهذا ، وسبهم سعادته بالعثمانلى بكلمات فاض بها - ويفيض بها دائما - لسان أمثاله ٠ ولم يرد الأسطى وسكت المجاورون ٠٠ تركوا الباشا حتى ركب عربته التى كان يجرها جوادان فارهان ، وقبل أن يتحرك السائق أمسكوا بالجوادين وقادوهما الى الاسطبل - وهو يقع تحت السراى - وأدخلوا العربة وفى جوفها الباشا ، ثم اقفلوا عليها الباب وتركوا عددا منهم لحراسة سعادته والاطمئنان على راحته فى الاسطبل ، ولمنعه بالطبع من الخروج ، ومنع أى مخلوق من الافراج عنه ٠ وظل الباشا يصرخ بالتركى ، ويستغيث بالعثمانلى ، فيجتمع المارة لانقاذه ، وبهدوء كان الأسطى أحمد يشرح الموضوع لهم ، فيبصقون على الأرض ، وينضم بعضهم الى فرقة الحراسة التى ظلت تتضخم ٠٠ الى أن أفرج الأسطى عن الباشا فى الثانية

عشرة .. وبعد ساعتين من موعده مع اللورد ملنر .. وهكذا كان الشعب يحرس قضيته !

الحاج جاد الله

بطولة الشعب هادئة .. صامتة ، لا تعرف الضجيج ولا الدعاية ، لا تبحث عن شهرة ، ولا تنتقص فضلا ليس لها .. انها حتى لا تنتظر جزاء على تضحياتها . والمأساة أن التاريخ أحيانا يعتمد الضجيج كشهادة للبطولة ، وينسى الذين قاتلوا فى صمت ، وضحوا دون ضجيج ، وتعذبوا دون اعلان !

فى مصلحة السكة الحديد كان « **الأسطى احمد جاد الله** » يعمل ، وكان قد تنازل عن لقب الأسطى عندما مكنته الظروف أن يحج الى بيت الله ، وعرف من وقتها بـ « **الحاج جاد الله** » .

وتأتى ثورة ١٩١٩ وينغمس فيها الأسطى بكل ثقله ، يهبها كل طاقته ، ويتمرن على اطلاق الرصاص الى أن يحذقه ،ويصر على أن يرفع من درجة استعداده ، فيواصل التمرين وينجح أخيرا فى اصابة الهدف بالتوجيه ، وليس بالنيشان فقط ، وكان طبيعيا أن ينغمس فى حركة المقاومة السرية ، وأن ينطلق رصاصه ليصيب الذين كانوا يحتلون مصر ، ويمتهنون كرامتها وينهبون خيراتها .

فى ضاحية الزيتون كان هناك ضابط انجليزى يقوم بالدور الذى يقوم به كل المحتلين : يعذب الأهالى ، ويغلظ فى معاملتهم ، فاعتزم الحاج جاد الله أن يجعله هدفا لرصاص مسدسه ، فيريح من شروره كل الذين كانوا يقاتلون من أجل حرية مصر .

ورسم الحاج خطته ..

فى صباح يوم التنفيذ توجه الى « محطة مصر » ليستقل منها القطار الى هدفه ، وبينما هو فى انتظار القطار فوجىء بضابط بريطانى يركب جواده ويتربص للمتظاهرين . وعلى الفور قرر أن يحرمه من القيام بالدور الذى كان يستعد للقيام به ، وأن يقوم بذلك قبل تنفيذ مهمته الأصلية ، لكن مشكلة ما

قد واجهته ، اذ كان هناك جندى بوليس مصرى يقف فى المنطقة ، وعيناه ترقبان كل ما يقع فيها ، وكان معنى اطلاق النار على الضابط الانجليزى أن يتعرض الجندى لرصاصه ، ولم يهن على الحاج جاد الله أن يطلق مصريون الرصاص على مصريين ، وخاصة اذا كانوا من نوع ذلك الجندى الفقير الغلبان ، الذى دفعه الجوع لأن يكون عونا لجلاديه ، رغما عن ارادته ودون رغبة منه ٠

فى لحظة خاطفة كان الحاج جاد الله قد قرر أمرا ٠٠ عاد الى منزله وطلب من زوجته أن تلبس ملابسها وتستعد للخروج ، وكانت الزوجة فى شهور حملها الأخيرة ، وعندما أخطرها الحاج بما يريده منها ، تحمست على الفور وارتدت ملابسها وصاحبته الى محطة السكة الحديد ٠٠ كان الحاج قد قرر أن ينقذ الجندي اعتمادا على شىء يعرفه فى كل مصرى ٠٠ هو طيبته وحرصه على مساعدة الضعفاء ٠

وما أن هلت السيدة الحامل ، داخلة الى المحطة ، ورآها الجندى تتهاوى اعياء ، حتى اهتم بأمرها ، وخاصة عندما طلبت منه أن يوصلها الى رصيف المحطة ، وأن يحضر لها كوب ماء ٠٠ وما أن ترك النقطة التى كان فيها حتى كان الحاج جاد الله يطلق رصاصه على الضابط الانجليزى ويدخل بهدوء الى حيث يركب القطار ٠٠ الى مهمته الأصلية : قتل ضابط انجليزى آخر ٠

اللى مايكرهوهم

كل تجارب الشعب المصرى مع الطغاة والمستعمرين تؤكد أنهم بلا ضمير ولا أخلاق وانهم يقتلون القتيل ويذرفون عليه دموع التماسيح ويمشون فى جنازته ٠٠

ومرة فى أثناء ثورة ١٩١٩ قامت معركة ضارية بين الجنود الانجليز ومتظاهرين عزل من حوارى القاهرة ومدارسها ، وفتح قراصنة الحضارة الانجليزية النار على المتظاهرين ، وتصدى هؤلاء لخط النار بشجاعة وفروسية ، وحصدت النار الطلبة حصدا ، وهوت جثثهم الى أرض المعركة من كل جانب كالحمام الراقد ٠٠

انتهت المعركة بقتل عدد كبير من المتظاهرين ، ولم يبق منهم الا نفر قليل يعد على الأصابع ، ونقلت جثث الضحايا من الشهداء الى المشرحة ،

وكانت تقع فى ذلك الوقت فى مبنى قديم غادرته مدرسة الحقــوق فتركته للمشرحة ، ومكانه الآن جزء من سراى عابدين يطل على شارع حسن الأكبر ، وتجمع حوله فى معظم أيام الثورة أمهات ثكالى وآباء يبكون أبناء فى عز الشباب ٠٠ وجاء حكمدار القاهرة الانجليزى « اللواء رسل باشا » ليشرف على تسليم الجثث للاهالى ، وكان يفعل ذلك فى ظرف شديد ، وتهذيب بالغ ، ولا ينسى أن يقدم عزاءه الى أهالى الموتى ٠ وكان ظرفه الانجليزى البارد يستثير غضب الأهالى ، ويزيد من أحزانهم اذ ما الذى يعنيه أدب القتلة ٠٠ وتهذيب السفاحين ٠٠ الا أنهم يستهينون بالضحية ؟

وانتهى الى بعض الثوار يوما أن الأمير « محمد على توفيق » يستقبل الانجليز فى قصره ، وتنبه الطلبة الى اجبار الأسرة المالكة على أن تبدى رأيا صريحا فى القضية الوطنية ٠ ولهذا السبب ذهب وفد منهم الى سراى الأمير بالمنيل ، واستصدروا منه – بعد مناقشة حادة – تصريحا لصالح الاهداف الوطنية ، وكتب سكرتيره التصريح ، ووقع عليه ، وأخذه الطلبة ونشروه فى الصحف ، فعلقت عليه بعضها مرحبة ، وتورط بعض الكتاب الوطنيين فى مدح تصريح الأمير ٠٠ ولم تمض أيام الا واتصل قائد القوات البريطانية بالأمير ، وفى اليوم التالى كذب سموه التصريح ٠٠ رغم أنه بخط سكرتيره وتوقيعه !

وكان هذا درسا آخر ، على أن الطغاة والمحتلين مهما تظاهروا بأدب مزيف ، فان الشاعر لم يخطىء عندما دعانا لأن نكرههم ٠٠ ونكره الذين لا يكرهونهم ٠

الأحزان والقنابل

كان فى الثلاثين من عمره عندما اختفى فجأة ودون سابق إنذار ٠٠ ومضت ست سنوات طويلة قبل أن تكتشف أسرته أين ذهب ٠

اسمه اليوزباشى (الرائد) « مصطفى حمدى » ٠٠ فى عام ١٩١٤ – وكان فى الرابعة والعشرين – التحق بخدمة البوليس ، لكنه لم يبق فى منصبه سوى ثلاث سنوات فقط ، ثم فصل لأنه كان يهرب أسلحة من مصر الى المجاهدين فى ليبيا ، وببساطة تحول من ضابط بوليس الى سجين فى

سجن الأجانب ، ومضى عام قبل أن يخرج مرة أخرى الى الحياة • وكانت ثورة ١٩١٩ قد نشبت ، فألقى بنفسه فى تيارها الى أن خمدت جذوة العنف الشعبى التى صاحبت ميلادها ، فذهب الى احدى العزب فى قلب الريف ، واختفى فيها يعمل ناظرا لها •

وذات صباح ترك عمله المستقر وعاد الى القاهرة ، وانغمس فى حركة المقاومة السرية ضد الاحتلال ، وبسبب خبرته كضابط بوليس سابق ، تولى تدريب الفدائيين ، واختار لذلك منطقة صحراوية فى آخر حدود حلوان ، فكان يجتمع مع زملائه عند حافة الصحراء ، ثم يتوجهون الى جبل يبعد نصف ساعة عن المدينة ركوبا ، فاذا ما أدركوه تركوا ركائبهم واعتلوا الجبل سيرا على الأقدام ، حتى اذا ما بلغوا قمته ، أخذوا يتمرنون على القاء القنابل من المرتفع الى أهداف فى الوادى المنخفض •

وفى يوم شتاء بارد من ديسمبر ١٩١٩ كان « **مصطفى حمدى** » يدرب عددا من الفدائيين على القاء القنابل ، وفى اللحظة التى ألقى فيها القنبلة هبت زوبعة هواء مفاجئة حرفت مسار القنبلة ، وبدلا من أن تقع فى سفح الجبل ، وقعت فوق نتوء فى قمته ، وتطايرت شظاياها فأصابت الفدائى الشجاع ، وأسرع اليه أصدقاؤه وأرادوا اسعافه بتضميد جروحه ، فلم يتمكنوا ، فأسلم الروح بين أيديهم وحفروا له قبرا فى ثرى مصر •

بعد ذلك التاريخ بخمس سنوات ، قتل السردار سير لى ستاك ، وهجمت الدوائر البريطانية فى البوليس المصرى على كل تجمعات الفدائيين ، وحطت بكل ثقلها عليهم ، وكشف التحقيق مع النائب شقيق منصور عن سر مقتل « مصطفى حمدى » ، وعثر البوليس على جثة الشهيد ، وقبض على أمه وعلى خاله ، فوجد فى منزل الخال ١٨ قنبلة •• وشيعت رفات مصطفى حمدى بلا مشيعين سوى قلب مصر ، الذى ظل يذكره الى اليوم •

الثـورة والنـاس

فى أيام الثورات ترتفع القيم ، وتسود الاستنارة ، فيكشف عديدون عن معادنهم الحقيقية ، وعندما يصبح الوطن هو القضية ، تكف مظاهر السلوك العدوانى التى يمارسها الناس فى ظروف حياة ذليلة يفرضها عليهم المستعمر ، فتنصرف عداوتهم لا الى العدو ، ولكن الى النفس أو الاصدقاء •

قبل ثورة ١٩١٩ ، كان طلاب الأزهر يعانون كثيرا من مظاهر السلوك العدوانى ضدهم ، فقد كانوا فى الأغلب الأعم من طبقات فقيرة ، أقعدها فقرها عن مصاريف التعليم المدنى الباهظة ، فرغبت فى أن ترسل أبنائها الى معهد مجانى ، يتلقون فيه العلم الشريف ، فيصبح من حقهم الحصول يوميا على ثلاثة أرغفة من الخبز ، كانت تعرف « بالجراية » ، وينفق على تصنيعها من أموال الأوقاف التى اشترط أصحابها انفاق ريعها على هذا العمل الخيرى ، تقربا الى الله بمساعدة الذين يطلبون العلم بشريعته .

فى الحوارى التى تحيط بالجامع الأزهر كانوا يعيشون حياة عسيرة ، ويأكلون طعاما رديئا ، يتزاحمون بالعشرة والعشرين فى حجرات ضيقة لا يصلها ماء ولا كهرباء ، يستحمون فى المساجد ، ويعانون شظف العيش ، تشرب أجسادهم الرطوبة من الجلوس الطويل على الأرض لتلقى الدروس ، ويعانون مع هذا كله الاحساس بالغربة ، اذ كان المجتمع المصرى يتحول تدريجيا فى تلك السنوات الى مجتمع مدنى ، فانتشر فى شوارع القاهرة نشيد يسخر من مجاورى الأزهر ، فقد كان من المعتاد أن تتجمع جوقة من الأطفال خلف طالب ازهرى لتهتف : « يا مجاور عمتك دابت .. من الطرشى والفول النابت » .. ساخرة من طعام « المجاورين » الفقير مثلهم ، والذى لم يكن يتعدى هذين الصنفين الذين لا يشبعان من جوع .

وحول أعمدة الأزهر كان الطلبة الصغار يعيشون أسرى وقار لا يناسب أعمارهم ، فيضحكون فى خشية وتوجس ، اذ ما كان ينبغى لطالب العلم الشريف فى الأزهر ، أن يرسل القهقهات عالية مدوية ، لأن ذلك يتنافى مع كرامة أهل العلم وحرمة المساجد .

وتقوم الثورة عام ١٩١٩ وتهتدى بسرعة الى مقرها الطبيعى وهو الأزهر ، ويشتعل بيت الله حماسة ، وتتأجج فيه الوطنية المشبوبة ، وتلتقى فيه عشرات الألوف من القلوب الثائرة ، واذا ما قصده أى انسان فى أى وقت من الأوقات نهارا ، أو ليلا ، وجد فيه منبرا وخطيبا يبعث بكلماته النارية فى نفوس الناس جذوة الوطنية .

وخرج الأزهريون فى المظاهرات يموتون من أجل مصر ، وفى الأزهر الشريف رددت الجماهير الثائرة ألحان سيد درويش ، وكانت تلك أول مرة يغنى فيها الناس فى بيت من بيوت الله ، فحين تكون الثورة لاهية لا يهتم الناس بظواهر الأمور ، لكن بجوهرها .. لذلك لم يعتبر أحد التغنى بالوطن فى أحد بيوت الله جريمة .

وانطلق الأزهريون فى كل مكان يخطبون فى الجماهير ، ويتحدثون اليهم كدعاة للثورة ، وزايلهم الجمود والتزمت ، وراحوا يغشون المقاهى

والمنتديات العامة ، على غير ما تعود الناس منهم فى الماضى ، فقد كانوا يعدون الجلوس فى المقاهى عارا ومسبة وحراما ، وأحس أهل المدينة نحو طلبة الأزهر بحب وتقدير ، انعكس فى سلوكهم تجاههم ، وكف الأطفال عن السخرية من المجاورين ، وقل احساس هؤلاء بالتضائل ، وشمخوا برؤوسهم ، ولم لا : أليسوا بعض الذين أشعلوا الثورة ، اذ كان معهدهم مقرها ومركز قيادتها ٠

كانت النفس المصرية تتغير بالثورة ٠٠

تغير الأزهريون وتغير الناس

محسن بن عيوشة

غريبة هى مصر ٠٠ ذكى هو شعبها ٠٠ قادر وجبار ٠٠ عنيد وطيب ٠٠ مظهره الخارجى يبدو للمتعجل السطحى ، كأنه نائم أو مستهتر ، كأن شيئا مما يجرى لا يعنيه ٠

يتصور المحتلون انه مات أو نسى ، يتخيل المنافقون أنه يصدق نفاقهم ، يتوهمون أنه يحترمهم أو يصدق ما يقولون ٠٠ فجأة يصدمهم بالحقيقة المرة ، يسخر من وطنيتهم المدعاة ، من جاسوسيتهم الزرية ٠٠ من الأحذية التى لعقوها حتى تشققت ألسنتهم من لعق الجلود !

من الحوارى والشوارع الجانبية والحقول ، يخرج كتاب وشعراء يكتبون عن الشعب ، يعيشون وسطه ، يعبرون عنه ، يسخرون من أعدائه ، شعرا بلغته : يعبرون به عنه ، ويدفعون به اليه ، فيردده ساخرا من غفلة المنافقين ، وغباء المحتلين، وفجر الجواسيس ٠

واحد من هؤلاء كان « **بيرم التونسى** » ، ابن المبغالة السليط اللسان بالحق ، وعدو الجواسيس والخونة والمنافقين والطغاة ، الرجل الذى أودى به عداؤه للسراى ، فنفاه عن مصر عشرين عاما ، لأنه سخر من « الملك فؤاد » المبروم الشوارب ، الذى كان يزف الى « نازلى هانم صبرى » فى عز أيام الثورة ٠

وهو فى منفاه قرأ كثيرا عن الجواسيس الذين كانوا يعملون لحساب المخابرات البريطانية ، ويشهدون فى المحاكم بما يؤكد الاتهام ضد الثوار والمناضلين ٠

فى واحدة من هذه المحاكمات قرأ بيرم التونسى عن جاسوس اسمه « احمد عبد المحسن » ، تقدم للشهادة ضد بعض الوطنيين ، ونقل معلومات عنهم أودت بهم الى السجن ، وكتب « بيرم » من باريس قصة نثرية زجلية بعنوان « الجاسوس » نشرت فى مصر وقدم لها بمداعبة قال فيها انها بقلم الكاتب الذائع الصيت « لطخ » ، وأضاف ساخرا أن الذى نقلها الى لغة التجديد هو الدكتور طه حسين . وحاكى « بيرم » فى قصته أسلوب د. طه حسين فى تكراره ذى الجرس الموسيقى ، وختمها بزجل يدعو لضحك كالبكاء .

وفى زجله تحدث « بيرم » عن الجاسوس « محسن » ، الذى أخذ يبتز الناس :

محسن عدوك من أعيان البلد ضبع
والبغل فى الأيام دى ما بين الغنم ريع
المجلس اللى مايدفعولوش فى يوم أربع
تنزل مصيبة تفرق جمعهم فى خميس

وروى الزجل قصة زواج محسن ، والطريقة التى أثرى بها : نصب على احدى الأسر ، وتزوج منها ، تاركا زوجته الأولى بعد أربعين يوما من زواجه الجديد :

الأربعين انتهت والسواد نقل عفشه
فى بيت حماته وفات اللى بنت عشه
وبالطلاق بالثلاثة بيتها ماتخشه
جاسوسنا حتى على أهله لئيم وخسيس

حماة الجاسوس الجديدة استقبلته بالترحيب ، كانت مثله سيدة بلا اخلاق :

لكن لسانها فشر عقرب وفرقلة
تسب الدين وقت الشر والملة
وفى الهزار بخراب البيت بتتسلى
وكل منزل تخشه يدخله ابليس

وكان طبيعيا أن ترحب بالجاسوس ذلك انه :

سيدنا عمال ينهب م البلد ويجيب
يحق له حكم عرفى فى البلد والبوليس

وتتغير الدنيا ..

يأتي « سعد زغلول » ويذهب الجاسوس ، ويهتف بيرم :

يا سعد ياللى دهست الجبارين بالرجل
وشلت يا سعد منها كل عجل وعجل
محسن صبح مايلاقيش حق حزمة فجل
ولا اللى يطلب له حتى كاس زبيب ع الكيس

وتغير الحماة نغمتها :

قالت حماته يا محسن يا بن عيوشة
تقعد هنا عندنا اقعد وانت برطوشة
وان كنت تخرج مافيش مانع ولا حوشة
روح على أمك يا خويا هات لها دبابيس

مجرد موعظة من الشعب !

يس المتركى

فى سنة ١٩١٩ كانت مصر بلا دستور ، ولكن « ولى الأمر » عظمة السلطان فؤاد ، كان أسدا حبيسا ، وقتها كانت السلطة شركة بين « الغوغاء » فى الشارع ودار المندوب السامى فى قصر الدوبارة .. وتحت ضغط شعار المقاطعة السياسية لتشكيل الوزارات التى تزعمها الوفد ظهرت أيامها موضة « الوزارة الادارية » ، وهى وزارة لا علاقة لها بالسياسة ، وليست طرفا فى علاقة مصر ببريطانيا العظمى ، فهى تكتفى بتصريف المسائل اليومية تاركة للوفد المصرى الشئون السياسية ، وكانت الوزارات الادارية ، وزارات ضعيفة لا احترام لها ولا هيبة ، تضم فى الغالب وزراء كانوا موظفين تدرجوا فى مناصبهم حتى أصبحوا وزراء بالأقدمية !

أيامها كانت الثورة على اشدها ، والشعب كله ضد السلطان ، يتهمه بالتضامن مع حكومته وبالتالى مع الانجليز فى قمع الحركة الوطنية والتنكيل بزعمائها ، وقبل « يوسف وهبة باشا » أن يكون رئيسا لوزارة ادارية لا شأن لها الا بالموظفين ، وطلب السلطان من الوزارة أن تبرز شعبيته ، وأن تتغلب على مقاطعة الجماهير للتشريفات الملكية ، وفشل « يوسف وهبة » فى

ذلك ، فتقدم « توفيق نسيم » ليكون الفارس المعلى ومورد الجماهير العبقرى ، ونجح المديرون والمحافظون فيما كلفهم به « توفيق نسيم » ، وأصبحت جماهير وزير الداخلية تحل التندر والفكاهة : مخبرون يرتدون ملابس الأعيان ، ومساجين يرتدون ملابس صحفيين ويدخلون السراى الملكية لاعلان التأييد الشديد . ولما زادت الحكاية عن حدها وجه « يوسف وهبة » نظر « توفيق نسيم » مطالبا اياه بالتزام حدود اللياقة فى تلك الحركة والعمل فيها بمنتهى التحفظ والاحتياط .

بسبب هذه الكلمة غضب السلطان من يوسف وهبه ، فهو لم يفشل فقط فى جلب الناس للسراى ، ولكنه أيضا يعترض على ذلك ، وتقرر بالفعل أن يقلش رئيس الوزراء المسكين ، ولأن بدعة اقالة الوزارات لم تكن قد نشأت بعد ، فقد أخذ السلطان يفكر فى طريقة لطرد وزيره الأول ، وأحس يوسف وهبه أن الحالة غير طبيعية ، فبسمات السلطان أصبحت لنسيم وحده ، أما هو فلا يلقى الا « الزكنة » فى صالون مكتب السلطان .

ويوما قرر يوسف وهبه أن يستقيل ، فالتمس مقابلة السلطان وحدد له موعدا قبل الظهر ، ولشد ما كانت دهشته عندما دخل حجرة المكتب فوجد محمود شكرى رئيس الديوان فى حضرة السلطان ، وقد جرت العادة على أن يستقبل السلطان رئيس الحكومة على انفراد ، جلس وهبة وهو يظن أن رئيس الديوان لن يلبث طويلا لينصرف ولكن جلسته طالت ، وكان عظمة السلطان يتحدث معه باللغة التركية مع ما فى ذلك من جرح لكرامة رئيس الحكومة الذى يجهل هذه اللغة ، وشعر يوسف وهبه بحرج موقفه ، وأراد أن يشعر السلطان بهذا فاستأذن في الانصراف حتى ينتهي عظمته من حديثه مع رئيس ديوانه .

ولكن السلطان لم يدعه ينصرف بل قال له :

ـ خليك قاعد يا باشا .. مافيش ضرر من وجودك .

فابتسم وهبه باشا وقال :

ـ صحيح يا مولانا مافيش ضرر ، لأنى لا أعرف التركى .

وعلى الفور قال السلطان :

ـ هو بس التركى اللى ماتعرفوش ؟

وامتقع وجه رئيس الوزراء وقال :

ـ لا شك أن غيرى يعرف أكثر منى ، ولذلك جئت لارفع استقالتى الى عظمتكم !!

الشغل .. شغل

عالم السياسة .. عالم بلا قلب .. والذين يشتغلون بها يعلمون أن العواطف لا علاقة لها بها ، والمجاملات لا تدخل فيها ، وبين الابتسامات تلمع الخناجر ، وحتى القتيل يشيعه قتلته الى الدار الآخرة بدموع الحزن عليه ..

كان « عبد الخالق ثروت باشا » سياسيا داهية ، من النوع الذي لا يعرف الانسان أسراره ، لدرجة أن أحد كبار الصحفيين وصفه مرة فقال : « انه واحد من ثلاثة أو أربعة في تاريخ مصر كله يمكن أن يوصف بالسياسي الداهية » .

حدث في عام ١٩٢٠ ، أن كان « عدلي يكن » يتفاوض في لندن مع « لورد كيرزون » في حل القضية المصرية ، وكان ثروت وقتها رئيسا بالنيابة لمجلس الوزراء ووزيرا للداخلية ، وكانت وكالات الأنباء تنقل كل يوم أخبار الولائم والمآدب التي يقيمها الانجليز للوفد المصري في المفاوضات ، لكن الأستاذ حسن الشريف – وكان محررا أيامها في جريدة وادي النيل – سمع من أحد كبراء المصريين معلومات محزنة عن سير المفاوضات علم منها أن اللورد كيرزون يهين بعض أعضاء الوفد الرسمي ويزجرهم في بعض الأحيان وانهم تحملوا منه ما لا ترضاه كرامة رجال يمثلون حكومتهم وأمتهم في بلاد أجنبية .

وتناول حسن الشريف قلمه ، وكتب مقالة من نار ، افتتحها بطعن شديد على الوزارة ووفدها الرسمي واختتمها بذكر المعلومات المحزنة التي بلغته ، ونشرت المقالة في « وادي النيل » ، وذهب الكاتب الى شرفة فندق كازينو سان استيفانو ، وجلس مع أحد كبار الأجانب المقيمين في مصر ، وهو يراجع اللهجة الشديدة التي كتب بها مقالته ، متوقعا انها ستغضب الحكومة لا محالة .

وبينما هو يفكر في ذلك اذا بثروت باشا ينزل من سيارته أمام السلم . فقام هو وصاحبه تحية له ، فاتجه وزير الداخلية اليهما وسلم عليهما ، ودعياه الى الجلوس معهما ، فاستجاب ، وحاول « حسن الشريف » أن يعرف رأي ثروت باشا في المقالة ويتبين مدى غضب الحكومة منها ، ودار الحديث حول موضوعات مختلفة ، وأفاض ثروت في الحديث ، ونثر في حديثه الكثير من النكات ، وغلب على ظن حسن الشريف أن الرجل لم يقرأ المقالة ، وفي نهاية اللقاء حاول « حسن الشريف » أن يدفع الحساب فرفض ثروت وقال :

انت ابننا ، فكيف تدفع لنا

وتيقن حسن الشريف أن ثروت لم يقرأ المقالة ، أو انه قرأها ولم يغضب منها .. ولكنه ما كاد يلتقي بأحمد فريد رفاعي – الذي كان سكرتيرا لثروت – حتى ثار في وجهه وقال له

— ان ثروت قرأ المقالة وغضب منها غضبا شديدا حتى أنه تكلم مع النائب العام بشأنها وطلب منه أن يحقق معك فيما جاء بها ·

وظن الصحفى أن سكرتير الوزير يمزح معه ، فقد كانا صديقين ، فرد قائلا انه كان مع ثروت باشا منذ دقيقتين ولم يذكر له شيئا من هذا بل ولم يتبين من لهجة حديثه معه ولا من ملامح وجهه شيئا ·

ولم يرد « فريد رفاعى » بشىء ، ومضى تاركا « حسن الشريف » الذى استكمل سهرته فى الكازينو ، ثم عاد الى منزله ، وما كاد يدخل حتى وجد فى انتظاره ضابط بوليس يحمل أمرا من النائب بالقبض عليه بسبب مقالته ·

وفى صباح اليوم التالى كان حسن الشريف سجينا على ذمة التحقيق فى سجن العدراء ·· يضرب كفا بكف دهشة من رجل يلاطفه ويجامله ويدفع له ثمن مشروبه ، وهو يعلم أنه وقع قرارا بالقبض عليه والزج به فى السجون ،

لكن الشغل ·· شغل ·

المقاولة الأمريكية

ما أكثر المقالب والطعنات التى تلقتهـا الحركة الوطنية المصرية من الولايات المتحدة الامريكية ·

لم يكن أول هذه « المقالب » اعتراف الرئيس الأمريكى « ولسن » بالحماية البريطانية على مصر ، فى الوقت الذى كان الوفد المصرى فيه يشد الرحال الى باريس لعرض قضية مصر على مؤتمر الصلح ، استنادا الى المبادىء التى اعلنهـا « ولســن » ، ومنهـا مبدأ حق تقرير المصير · فقد سـبقتها تصريحات الرئيس الأمريكى « تيودور روزفلت » عام ١٩١٠ التى دعا فيها مصر الى قبول الاحتلال والاعتراف به ·

وبعد اعتراف « ولسن » بالحماية البريطانية على مصر حاول الوفد المصرى أن يتدارك الأمـر ، فطلب سـعد زغلول مقابلة ولســن ، ولكنـه اعتـذر عن المقابلة مرتين ، ثم حـاول الوفد أن يسـتعين ببعض أعضـاء الكونجرس ليعارضوا المواد التى تعترف بالحماية البريطانية على مصر فى

اتفاقيات الصلح ولكن المحاولة فشلت ووافق الكونجرس على احتلال انجلترا لمصر .

ومن أطرف محاولات الوفد مع الامريكيين ، محاولة استئجار « محامى أمريكى » للدفاع عن استقلال مصر لدى الكونجرس الأمريكى ، وقد انتهى بحثه بالوصول الى المستر « جوزيف فولك » وكان متخصصا فى القانون الدولي وعمل فترة مستشارا قضائيا لوزارة الخارجية الأمريكية ، ثم تولى حكم ولاية ميسورى .

وقام المستر فولك بدعاية صحفية واسعة فى أمريكا ، ليعد الأفكار لتلقى القضية المصرية قبل طرح تفاصيلها امام لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس ، وقدم مذكرة جامعة عن مطالب مصر ، وانبرى يرد على كل ما ينشر فى الصحف الأمريكية من أنباء أو آراء عن قضيتها .

والغريب أن « المستر فولك » ، قد رفع قضية على الوفد المصرى بعد ذلك ، مطالبا ببقية أتعابه ، وقال محاميه : ان الوفد قد اتفق معه على أتعاب محددة ، لم يأخذها بالكامل ، ورد محامى الوفد بأن « المستر فولك » كان مستأجرا للعمل على اقناع الكونجرس الامريكى بعدم الاعتراف بالحماية ، وأنه لم ينه « المقاولة » كما ينبغى .

كتب للمؤلف

١ ـ الثورة العرابية :
الطبعة الأولى : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٧٤
الطبعة الثانية : دار المستقبل العربي ـ القاهرة ١٩٨٣

٢ ـ حكايات من مصر : (المجموعة الأولى)
الطبعة الأولى : دار الوطن العربي ـ بيروت ١٩٧٤

٣ ـ الإخوان المسلمون : مأساة الحاضر ومشكلة المستقبل
دراسة ضمن ترجمة كتاب الاخوان المسلمون لريتشارد ميتشل
الطبعة الأولى : مكتبة مدبولى ـ القاهرة ١٩٧٧

٤ ـ مجموعة شهادات ووثائق لخدمة تاريخ زماننا (رواية سياسية)
الطبعة الأولى : دار ابن رشد ـ بيروت ١٩٨٠ ٠

٥ ـ البرجوازية المصرية واسلوب المفاوضة
الطبعة الأولى : دار بن خلدون ـ بيروت ١٩٨٠ ٠
الطبعة الثانية : مطبوعات الثقافة الوطنية ـ القاهرة ١٩٨٠ ٠

٦ ـ افيون وبنادق
نشرت مسلسلة فى مجلة ٢٣ يوليو ـ لندن ١٩٨٠ ٠

٧ ـ محاكمة فؤاد سراج الدين باشا (دراسة ووثائق)
الطبعة الأولى : مكتبة مدبولى ـ القاهرة ١٩٨٣ ٠
الطبعة الثانية : مقدمة المؤلف لنصوص المحاكمة وقد صدرت مستقلة بعنوان « **البورجوازية المصرية ولعبة الطرد خارج الحلبة** » دار التنوير بيروت ١٩٨٢ ٠

٨ ـ فلسطين : الأرض والمقاومة (بالاشتراك مع خيرية قاسمية وحسناء مكداشى)
الطبعة الأولى : دار الفتى العربى ـ القاهرة ١٩٨١ ٠
الطبعة الثانية : أمانة الاعلام بحزب العمل ـ القاهرة ١٩٨٢ ٠

٩ ـ **حكايات من مصر** (المجموعة الثانية ـ هوامش المقريزى)
الطبعة الأولى : مطبوعات القاهرة ـ القاهرة ١٩٨٣ ٠

١٠ـ **رجال مرج دابق** (الفتح العثمانى لمصر والشام)
دار الفتى العربى ـ القاهرة ـ بيروت ٠

تحت الطبـع :

١١ـ **خمسة وجوه لوعد باطل** (قصـة وعـد بلفور ـ بالاشتراك مع جميل عطية) ـ دار الفتى العربى ـ القاهرة ـ بيروت ٠

١٢ـ **حكايات من مصر** (المجموعة الثالثة ـ هوامش المقريزى)

١٣ـ **حكايات من مصر** (المجموعة الرابعة ـ البرنسيسة والأفندى)

١٤ـ **عبد الرحمن الجبرتى** (الانتلجنسيا المصرية فى عصر القومية)

١٥ـ **افكار شكرى مصطفى الحقيقية** (دراسة لتيار التكفير والهجرة ـ مع أول نص ينشر لأفكار الجماعة) ٠

١٦ـ **اغتيال مصطفى خميس** (الصدام الأول بين العسكريتاريا والبروليتاريا)

١٧ـ **أسطورة فرج الله الحلو** (وثائق التحقيق فى قضية تعذيبه واغتياله ـ مع دراسة عن الخلاف بين الشيوعيين وعبد الناصر حول قضية الوحدة العربية) ٠

١٨ـ **الصحافة المصرية فى معركة الديمقراطية** (١٩٥٠ ـ ١٩٥٤)

١٩ـ **مذكرات عرابى باشا وأوراقه** (الجزء الأول من المذكرات)

٢٠ـ **مذكرات عرابى باشا وأوراقه** (الجزء الثانى من المذكرات)

٢١ـ **مذكرات عرابى باشا وأوراقه** (الأحاديث والمقالات والرسائل)

٢٢ـ **وثائق الحركة الشيوعية المصرية** (دراسة ـ ووثائق)

٢٣ـ **والجروح قصاص** (أمين عثمان ـ أنور السادات ـ خالد الاسلامبولى)

٢٤ـ **جنرالات بلا جنود** (قصص قصيرة)

٢٥ـ **الأزهر والحركة السياسية فى مصر**

٢٦ـ **محاكمة فؤاد سراج الدين** (الجزء الثانى)

٢٧ـ **محاكمة فؤاد سراج الدين** (الجزء الثالث)

رقم الايداع ٨٣/٤٤٨٣

دار ماجـد للطبـاعة
٢ شارع بلال ـ القصيرين ـ الوايلى ـ القاهرة







● بين عامى ١٩٧١ و ١٩٧٥ كانت « هوامش » زاوية ثابتة تنشر كل صباح على صفحات جريدة « الجمهورية » القاهرية ، فتسوق الى قارئها لقطة مركزة من تاريخ مصر ، أشبه بأقصوصة ، استعار كاتبها « صلاح عيسى » اسم المؤرخ العربى القديم « المقريزى » ليوقعها به .

ومع أن « هوامش » كانت تسعى لقارىء افقدته اجهزة الاعلام الرسمية وعيه بتاريخه ، وثقته بنفسه ، والاخطر من هذا بوطنه ، وتحاول ـ عن طريق التراكم الكمى ـ أن تربط بين نضاله التاريخى من أجل الحرية والعدل ، وبين ما يواجهه من مؤامرات على حقه فى التحرر من القهر القومى والاجتماعى ، الا أن المناخ السياسى الذى نشرت فى ظله ـ على مشارف حرب أكتوبر وبعدها بقليل ـ أقحمها فى الصراع السياسى الضارى الذى شهدته مصر حتى منتصف عهد السادات بين قوى الردة وطلائع التقدم والاستنارة ... فصدرت ضدها منشورات سرية .. وتقارير بوليسية .. ولاحقتها الرقابة .. وانتهى الحصار حولها بمنع نشرها ، ثم بفصل كاتبها !

وهذا الكتاب ـ الذى يصدر بعد سبع سنوات من اعداده للنشر ـ يضم ٢٠٠ أقصوصة من التاريخ المصرى ، تغطى الفترة بين العصور الوسطى وحتى ثورة ١٩١٩ ، وفى مقدمته المطولة ، يكشف المؤلف بعض ما كان يجرى فى كواليس السياسة والصحافة آنذاك ، واختار أن ينشرها كمجموعة ثانية ، لكتابه « حكايات من مصر » ، وهى سلسلة يحلم أن تمكنه الظروف من مواصلة كتابتها يتوجه بها ، بالدرجة الأولى ، لجيل الشباب ، آملا أن يزيد من وشائج الحب التى تربطه بتاريخ وطنه وأحلام امته ! ●





٢٥٠ قرشاً




روائع مجلة
الابتسامة
من الكتب
المعالجة
والصفحات الفردية